
كتابى
47
رابندرانات تاغور
قلوب ضالة
Looloo
www.dvd4arab.com
حلمي مراد
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

قلوب ضالة

رابندرانات تاغور

تاغـــور

اذا كان القدر قد اعتاد أن يختار الفلاسـفة والمفكرين من الفقراء والمستضعفين ، الا أن الهند شهدت مناسبتين ، حاد فيهما القدر عن هذه العادة : وكانت أولى المناسبتين ، يوم اختار القدر « بوذا » من قصر أحد الأمراء المالكين فى الهند ، ليكون مبشرا بالحكمة والفلسفة .. ثم كانت المرة الثانية ، حين اختار « رابندرانات تاغور » حفيد الأمير « دواركانات تاغور » ليكون من رسل الأدب والحكمة ..

ولد « تاغور » فى (كلكتا) فى ٦ مايو سنة ١٨٦١ .. وبعد أن درس فى أحدى المدارس الخاصة بالهند ، رحل الى انجلترا وهو فى السابعة عشرة من عمره ليدرس القانون . ولـكنه لم يستسغ هذا اللون من الدراسة ، فعاد الى بلاده ، وتوفر على الكتابة فى مجلات (البنغال) وصحفها ، وما لبث اهتمامه أن اتجه الى أحوال بلاده ومواطنيه ، فراح يسعى لرفع مستوى الحياة الفكرية والاجتماعية فى الهند ، وانشأ فى سنة ١٩٠١ مدرسة فذة فى نوعها ورسالتها ، تنكب فيها برامج التربيـة المألوفة ، ليعنى بالنواحى الروحية والانسانية والقومية .

وتوفر على الانتاج الأدبى فى تلك المرحلة ، ففاز فى سنة ١٩١٣ بجائزة « نوبل » للآداب . وقام بعد ذلك بعـدة رحـلات فى أوربا ، كما زار اليابان والولايات المتحدة . وقد وضع تاغور مؤلفاته ـ من أشعار وتمثيليات وروايات ـ بوحى من جمال الكون ، وادراك وجود الله ، وحب الأطفال ، والبساطة . وتبدو هذه المعانى فى أجلى صورها فى كل ما كتب .

وعندما بلغ الثامنة والخمسين ـ وهى سن تفتر فيها هم الكثيرين ـ وجد فى مجال الفنون ناحية جديدة لنشاطه ، فشغف بالرسم والتلوين ، واقبل على ممارستها .

وفى ٧ أغسطس سنة ١٩٤١ مات « تاغور » عن ثمانين عاما.

الفصل الأول

● ما ارتاب أحد لحظة فى أن (رامش) سيجتاز امتحانه النهائى فى القانون بنجاح .. فقد اعتادت ربة العلم ، التى ترعى الجامعات ، أن تغدق عليه أوراق زهرتها الذهبية — زهرة (اللوتس) — وأن تمطره بالجوائز العلمية ، وتغرقه فى الشهادات من رأسه إلى قدميه ! .. وكان من المرتقب أن يعود (رامش) من (كلكتا) إلى موطن أهله عقب الامتحان ، ولكنه لم يبد أى تعجل فى حزم متاعه . وكتب له أبوه يأمره بالعودة فوراً ، فرد بأنه سيعود بمجرد أن تعلن نتائج الامتحان .

وكان (جوجندرا) بن (أنادا بابو)(1) زميلا لرامش فى الدراسة ، وجاراً له فى السكن . وكان (أنادا بابو) ينتمى إلى ملة (البراهمة) ، وله ابنة تدعى (همنالينى) ، تقدمت أخيراً إلى امتحان السنة الأولى فى الآداب . واعتاد (رامش) أن يزور الأسرة دوماً ، وأن يظهر فى دارها فى موعد تناول الشاى ، بانتظام . على أن الشاى لم يكن الإغراء الوحيد ، إذ أن (رامش) كان يتردد على الدار فى ساعات أخرى . كذلك اعتادت (همنالينى) أن تتمشى على سطح الدار ، لتجفف شعرها بعد الاستحمام ، وهى تقرأ أثناء سيرها .. واعتاد (رامش) أن يجلس على سطح داره — عند رأس السلم — ممسكاً بكتاب ، ليخلو إلى الاستذكار فى هذا المكان المنعزل الذى يصلح للاستغراق فى القراءة فى هدوء . ومع ذلك ، كانت ثمة أمور بسيطة تصرفه عن القراءة

(1) « بابو » لقب احترام يقابل « السيد »

هناك ، كما يمكن أن نستبين إذا فكرنا فى الأمر ملياً ! .. بيد أنه لم يكن قد دار أى حديث عن الزواج بين الطرفين ، إذ كان لدى (أنادا بابو) من الأسباب ما يقعد به عن إثارة الموضوع . فقد كان له صديق شاب يدرس القانون فى إنجلترا ، وكان السيد الكهل « يضع عينه » على هذا الشاب كمرشح للزواج من ابنته !

وفى عصر ذات يوم ، دار على مائدة الشاى نقاش محتدم ، فى حضور شاب آخر من أصدقاء الأسرة يدعى (أكشاى) لم يكن موفقاً فى اجتياز امتحاناته ، إلا أنه لم يكن يقل عن أن شاب مثقف تعطشاً إلى الشاى وغيره من المكيفات غير الضارة ؟ .. ومن ثم كان يكثر من الظهور على مائدة الشاى فى دار (همنالينى) . وقد قال فى ذلك اليوم أن ذكاء الذكور كالسيف ، وأن ثقله كفيل بأن يجعله سلاحاً بتاراً ، ولو لم يكن حده مشحوذاً ، فى حين أن ذكاء المرأة كالمبراة ، لايمكن — مهما تشحذها — أن تؤدى مهمة خطيرة !

وأوشكت (همنالينى) أن تتقبل فى صمت هذا الزعم البعيد عن الصواب ، لولا أن أخاها (جوجندرا) أمعن فى الحط من قدر الذكاء الأنثوى ، مما اجتذب (رامش) إلى معمعة الجدل ، فانتزع نفسه من صمته ، وأخذ يتغنى بمديح المرأة ! .. وكان قد احتسى كوبين من الشاى ، فوق ما اعتاد ، فى غمرة حماسه للأنوثة ، حين أحضر الخادم رسالة موجهة إليه بخط أبيه ، فما هو أن تأملها ، حتى ارتضى الهزيمة ، بينما كان النقـاش فى أوجه ، وتأهب مسرعاً للانصراف . وانبعثت عاصفة من الاحتجاج ، فاضطر إلى أن يوضح لهم أن أباه قد وصل لتوه

قادماً من البلدة ، فقالت (همنالينى) لجوجندرا : « سل والد رامش بابو أن يأتى لنقدم له قدحاً من الشاى » .. فبادر (رامش) قائلا : « أرجو أن لا تتعبوا أنفسكم ، إذ يحسن بى أن ألحق به فى الحال » .

واغتبط (اكشاى) فى نفسه ، وقال : « قد يأبى السيد الشيخ أن يتناول شيئاً هنا ! » .. وكان يشير بذلك إلى أن (أنادا بابو) كان براهمياً ، فى حين أن والد (رامش) كان من غلاة الهندوكيين !

* * *

● استقبل (براجا موهان بابو) — والد (رامش) — ابنه بقوله : « يجب أن تعود معى إلى البلدة بقطار الصباح غداً ؟ » .. فحك (رامش) رأسه ، وتساءل : « هل من سبب للعجلة ؟ » .. فأجابه (براجا موهان) : « ليس هناك سبب معين بالذات » .. وتطلع (رامش) إلى أبيه بنظرة متسائلة ، وهـو يعجب من سر تعجله فى هـذه الظروف ، بيد أن (براجا موهان) لم ير ثمة ضرورة لأن يشبع فضول ابنه !

وإذ خرج الأب فى المساء لزيارة أصدقاء له فى (كلتكا) ، جلس (رامش) يكتب له خطاباً . وبدأ بالاستهلال التقليدى الذى يليق بمقام الأب : « إلى قدمكم اللوتسية[1] الموقرة » .. بيد أن قلمه أبى أن يمضى بعد هذه العبارة ، رغم أن الشاب راح يحدث نفسه بأنه مرتبط بـ (همنالينى) بعهد صامت ، فمن الخطأ أن يخفى هذا العهد المكتوم عن أبيه بعد اليوم . وأخيراً ، كتب عدة خطابات بأساليب مختلفة ، ولكنه انتهى إلى تمزيقها جميعاً .

---

(١) لزهرة « اللوتس » مكانة قدسية لدى الهندوكيين .

وفى تلك الليلة ، أوى (براجا موهان) إلى مخدعه بعد العشاء مباشرة ، فصعد (رامش) إلى سطح الدار ، وراح يذرعه قلقاً — كطيف من أطياف الليل — وبصره لا يتحول عن بيت جيرانه . ورأى (أكشاى) يخرج فى الساعة التاسعة ، كعادته ، إذ كان يتلكأ فى الانصراف ! .. ولم تحن الساعة التاسعة والنصف ، حتى أغلق الباب الخارجى للدار . وفى الساعة العاشرة ، انطفأ ضوء غرفة الجلوس فى مسكن (أنادا بابو) . وما حانت الساعة العاشرة والنصف ، حتى غرق البيت كله فى النعاس !

واضطر (رامش) إلى أن يغادر (كلكتا) فى ساعة مبكرة من الصباح التالى ، إذ حرص أبوه على أن لايدع له فرصة للتحايل على تفويت القطار !

الفصل الثانى

● عندما بلغ (رامش) البلدة ، تبين أن ثمة عروساً اختيرت له ، وأن تاريخاً حدد للزواج ! .. إذ كان (براجا موهان) قد تعرض فى شبابه لأيام سوء وضيق ، وكان مديناً بما أحرز — بعد ذلك — من ثراء ، إلى محام يدعى (إيشان) ، من زملاء صباه . وقد قضى (إيشان) نحبه فى سن مبكرة ، وظهر بعد وفاته أنه لم يخلف سوى ديون ، فألفت أرملته نفسها وابنتها الوحيدة ، فى فقر مدقع . وكانت هذه الابنة — التى بلغت فى هذه الأثناء سن الزواج — هى العروس التى اختارها (براجا موهان) لرامش : ولقد اعترض بعض المشفقين على الشاب ، قائلين أن الفتاة — كما علموا — لم تكن جميلة ، ولكن (براجا موهان) لم يكن

يجيب بغير قوله : « لست أرى رأيكم ، ففى وسعكم أن تحكموا على زهرة أو فراشة من مظهرها ، ولكن هذا لاينطبق على الإنسان .. وخليق برامش أن يعتبر نفسه محظوظاً ، إذا أثبتت الفتاة أنها زوجة صالحة .. كما كانت أمها ! » :

وغاص قلب (رامش) بين جنبيه ، حين سمع الأقاويل عن زواجه المقبل ، فراح فكره يهيم على غير هدى ، محاولا أن يبتكر وسيلة للتهرب ، ولكنه لم يهتد إلى وسيلة ما . وأخيراً ، استجمع شجاعته ليقول لأبيه : « ليس بوسعى — فى الواقع — أن أتزوج من هذه الفتاة يا أبى ، فأنا مرتبط بوعد مع فتاة أخرى ! » :

براجا موهان : « ما هذا القول ؟ هل بينكما خطبة رسمية ؟ » .

رامش : « لا .. ليست خطبة بالمعنى الصحيح .. ولكن .. » .

براجا موهان : « هل فاتحت أهل الفتاة ؟ .. وهل اتفقتم ؟ » :

رامش : « الواقع أننى لم أتحدث فى الموضوع ، وإنما .. » :

براجا موهان : « إذن ، فلم تتكلم ؟ ! .. ليهدأ بالك ، ما دمت لم تقل شيئاً حتى الآن ! » :

وألقى (رامش) قذيفته الأخيرة ، بعد صمت قصير ، إذ قال : « لسوف أسىء إلى الفتاة التى أعنيها ، إذا أنا تزوجت من سواها ! » .. فأجاب (براجا موهان) : « ولكن ذنبك يكون أكبر ، إذا أنت رفضت الزواج من العروس التى اخترتها لك ! » :

* * *

● ولم يشأ (رامش) أن يمضى فى الجدل ، فقد أيقن بأنه لم تعد أمامه

سوى فرصة واحدة .. تلك هى أن يقع حادث ما يحول دون هذا الزواج . وكان العام الذى يعقب تاريخ القران (منحوساً) ، لا تعقد فيه زيجات — وفقاً لتنبؤات الفلكيين — فعلل النفس بأن يقع ما يمنع الزواج فى اليوم المحدد له ، فيتحتم تأجيله عاماً على الأقل !

وكانت هذه العروس تقيم فى بلد ناء ، لاسبيل إليه إلا عن طريق النهر : فى رحلة تستغرق ثلاثة أيام أو أربعة ، إذا سلك المرء أقصر السبل خلال المسالك المائية (الترع) التى تربط بين القنوات الرئيسية . فبعد أن حسب (براجا موهان) حساب أى طارئ قد يعترض جماعته فى رحلتها ، اختار يوماً للبدء بها ، يسبق موعد القران بأسبوع كامل .

وظلت الريح مواتية طوال الطريق ، فقطعوا المسافة إلى (سيمولغاتا) فى أقل من ثلاثة أيام . ومن ثم كانت أمامهم أيام أربعة قبل موعد الزواج . والواقع أن السيد الشيخ كان يسعى إلى غاية أخرى من وراء الوصول المبكر . فقد كانت أم العروس تعيش فى شظف ، وطالما رغب فى أن تبرح موطنها وتنتقل إلى قريته ، حيث يستطيع أن يكفل لها عيشاً رغيداً ، فيسد بذلك ما كان لصديق صباه من دين فى عنقه . إلا أن العرف كان يمنعه من أن يعرض على السيدة مثل هذا الاقتراح ، إذ لم تكن بينهما أية رابطة من روابط النسب . أما الآن ، وإزاء الزواج المرتقب ، فقد سعى ليعرض عليها الأمر ، آملا فى قبولها . ولما لم يكن قد بقى من أسرتها سوى ابنتها الوحيدة هذه ، فقد وافقت أم العروس على ما عرض عليها من أن تشغل مكان الأم لزوج ابنتها الذى حرم أمه

فى صغره ، بل لقد تشبثت بالفرصة قائلة : « لتقل الشائعات ما تقول ، فإن مكانى الطبيعى بجوار ابنتى وزوجها ! » :

وقضى (براجا موهان) الأيام السابقة على الزواج فى تدبير الإجراءات لنقل آثاث السيدة إلى مقرها الجديد ؛ وكان قد اصطحب معه بعض قريباته ليساعدنها ، رغبة منه فى أن ترافق القوم عند عودتهم بالعروس ::

* * *

● وعقد القران فى الموعد الذى حدد له . غير أن (رامش) تعمد أن لا يردد الصيغة الشرعية كما ينبغى أن تردد فى مثل هذه المناسبة !

وعندما حانت اللحظة التى يحل فيها لكل من العروسين أن يرى الآخر للمرة الأولى ، أغمض عينيه ، ونكس رأسه ، وظل صامتاً عندما خلا إلى عروسه فى غرفة العرس ، بل إنه رقد طيلة الليل مولياً ظهره للفتاة .. حتى إذا تنفس الصباح ، بادر إلى مغادرة الحجرة !

وإذا انتهى الاحتفال ، بادر القوم إلى الرحيل ، فأفرد للنساء قارب ، وللشيوخ آخر ، وللعروسين والشبان ثالث ، كما خصص قارب للموسيقيين الذين عزفوا فى حفلة الزفاف ، والذين أخذوا يغالبون السأم بعزف بعض المقطوعات من آن لآخر خلال الرحلة !

وكان الحر لا يطاق فى ذلك اليوم ، والسماء صافية ، ولكن ضباباً كابياً أخذ يرين على الأفق ؛ وبدت الأشجار على الشاطئ ساكنة ، لا تكاد تهتز ورقة منها : وسبح المجذفون فى عرقهم .. وقبل أن تغيب الشمس ، قالوا لبراجا موهان : « لابد لنا من أن نربط القوارب الآن

إلى الشاطئ يا سيدى ، فليس ثمة مكان نرسو فيه لعدة أميال بعد هذه البقعة ! » .. ولكن (براجا موهان) كان تواقاً إلى أن يقطع الرحلة فى أقصر مدة ممكنة ، فقال : « لا داعى لأن نقف هنا : فلسوف يظل القمر مشرقاً طيلة النصف الأول من هذا المساء .. فلنذهب إلى (بالوهاتا) ونرسو هناك .. وسوف أجزل لكم العطاء ! » .. ومن ثم واصل الرجال التجذيف .

وكانت ثمة منطقة رملية إلى أحد جانبى النهر ، يتصاعد منها هواء مشبع بالحرارة التى اكتنزتها الرمال طيلة النهار .. وإلى الجانب الآخر ، فضاء غير مأهول . وأشرق القمر خلال الضباب الداكن ، وقد احتقن لونه حتى بدا كعينى رجل ثمل ! .. ولم يكن فى صفحة السماء أثر للسحب ، حين بدد السكون الشامل فجأة ، ودون ما إنذار ، هزيم كقصف الرعد .. والتفت المسافرون خلفهم ، فإذا عمود من الأغصان المهشمة ، والأعشاب والقش ، والغبار ، والرمال ، ينتصب فجأة ، كما لو كانت تثيره مكنسة هائلة خفية .. ثم يندفع نحوهم فى اجتياح . وتعالت صرخات جزعة : « اهدأوا ! ..اسكنوا ! اثبتوا فى أماكنكم ! اثبتوا ! الرحمة ! الغوث ! » .

ولن يقدر لأحد أن يعرف ما حدث بعد ذلك .. فقد انقض على القوارب إعصار مدمر رفعها عن الماء ، وقلبها رأساً على عقب .. وإن هى إلا لحظة ، حتى كانت المراكب قد اختفت من الوجود !

الفصل الثالث

● انقشع الضباب المعتم ، وأسبغ ضوء القمر على البطاح الرملية المترامية ، غلالة ناصعة البياض ، ولم يظهر على صفحة النهر أثر لأى قارب ، بل ولا لأية موجة ! .. وساد النهر والشاطئ هدوء كتلك السكينة الشاملة التى يخلعها الموت على شخص أضناه العذاب !

وعندما استعاد (رامش) رشده ، ألفى نفسه ملقى على حافة جزيرة رملية . وانقضى بعض الوقت قبل أن يتذكر ما حدث ، وإذ ذاك عاودته رؤى النكبة كلها — وكأنه فى حلم محموم — وقفز واقفاً على قدميه . وكان أول ما ساوره ، هو أن يستبين ما أصاب أباه وأصدقاءه ، فراح يحملق فيما حوله ، ولكنه لم ير أى أثر لإنسان حى ، فى أى مكان ، وأخذ يسير على حافة الماء باحثاً ، دون جدوى ، وبدت الجزيرة فى بياض الجليد ، وقد استلقت بين فرعين من نهر (بادما) العظيم — أحد روافد (الجانجز) — كما يستلقى الطفل بين ذراعى أمه . واجتاز (رامش) الجزيرة من أحد جانبيها إلى الجانب الآخر ، وما أن شرع فى البحث ، حتى لمح شيئاً يشبه الغلالة الحمراء ، فغذ الخطى إليه ، وإذا فتاة شابة ترقد كالميتة على الرمال ، وقد التفت فى ثوب عرس قرمزى !

وكان (رامش) على دراية بوسائل إسعاف الغرقى ، فأخذ يبذل قصارى جهده — فترة طويلة — ليرد تنفس الفتاة إلى طبيعته ، رافعاً ذراعيها إلى ما فوق رأسها ، ثم مخفضاً إياهما إلى جانبيها ، حتى تنفست أخيراً ، وفتحت عينيها . وكان الإنهاك قد استبد برامش فى هذه الأثناء ، فظل بضع دقائق عاجزاً عن التقاط أنفاسه ، وبالتالى ، عن سؤال



لمح شيئا يشبه الغلالة الحمراء ، فغذ الخطى اليه ،
واذا فتـــاة شـــابة ترقد كالميتة على الرمال ..

الفتاة . كما أنها لم تكن قد استردت بعد وعيها كاملا ، على ما لاح له ، إذ أنها لم تكد تفتح عينيها حتى عادت تغمضهما فى إعياء : على أن (رامش) اطمأن إلى أن أنفاسها أخذت تتتابع فى يسر : وظل برهة طويلة جالساً ، يتأملها فى ضوء القمر الشاحب : كان المنظر المحيط بهما أغرب منظر يشهده شابان عروسان فى أول لقاء حقيقى لهما ! .. فقد كانت البقعة مقفرة ، معزولة بين الأرض والسماء ، وكأنها تقوم بين الحياة والموت !

وســاءل (رامش) نفسه : « من ذا الذى قال أن (ســوسيلا) – عروسه – لم تكن مليحة ! » .. وكان ضوء القمر قد غمر المكان ببهاء زاه ، وبدت السماء كرقعة شاسعة لاحدود لها . عن أن كل روعة الطبيعة بدت لعينى (رامش) مجرد إطار خلق ليحيط بالوجه الصغير .. وجه النائمة ! .. ونسى كل شىء ، وراح يقول لنفسه : « لشد ما أنا مغتبط ، لأننى لم أحاول أن أنظر إليها فى غمرة الزفاف وضجيجه .. ما كان بوسعى إذ ذاك أن أراها كما أراها الآن .. ثم إننى إذ رددتها إلى الحياة ، أصبحت ذا حق عليها يفوق كل الحقوق التى يكسبنى إياها ترديد الطقوس والصيغ المأثورة للزواج .. فإننى بترديد هذه الطقوس أجعلها زوجتى أمام الناس ، فى حين أننى الآن قد فزت بها كهبة عزيزة غالية من القدر الكريم ! » .

* * *

● وما لبثت الفتاة أن استردت رشدها ، فاستوت جالسة ، وشدت ثوبها المتهدل حول جسمها ، وأرخت قناعها على وجهها : وسألها

(رامش) : « أتعرفين ما الذى جرى لمن كانوا فى القارب ؟ » ، فهزت رأسها دون أن تنبس ببنت شفة . وعاد (رامش) يقول : « هل لك فى أن تبقى وحدك بضع دقائق ريثما أذهب للبحث عنهم ؟ » .. ولم تجب الفتاة ، ولكن جسمها المنكمش قال فى بيان أبلغ من الكلام : « لا تدعنى هنا وحدى ! » .. وفهم (رامش) ضراعتها الصامتة ، فوقف وأخذ يجيل النظر فيما حوله ، ولكنه لم يلمح ما ينم عن أثر لحياة فوق الرمال المتلألئة ، المترامية . وراح ينادى كلا من أصحابه باسمه ، وبأعلى صوته ، دون أن يتلقى جواباً ، فلما تبين أن لا ثمرة لجهوده ، جلس ثانية ، وكانت الفتاة قد دفنت وجهها فى راحتيها ، تحاول أن تكبح دموعها ، غير أن صدرها راح يعلو ويهبط متهدجاً .

وأوحت إليه غريزة خفية بأن كلمات العزاء — فى حد ذاتها — لن تجدى فى التسرية عن الفتاة ، فاقترب منها ، وأخذ يربت رأسها وعنقها فى لطف . ولم تعد تقوى على احتباس دموعها ، فانفجر حزنها قوياً ، فى سيل من الشهقات المتلاحقة . وتدفقت الدموع من عينى (رامش) إشفاقاً عليها . وعندما تمالكا نفسيهما ، كان القمر قد اختفى ، فبدت لها الصحراء المقفرة فى الظلام كحلم رهيب ، ولاحت الرمال البيضاء كطيف مستلق فى الدياجير . وأخذ النهر يلمع هنا وهناك — تحت ضوء النجوم الواهن — كجسد حية رقطاء ، فأمسك (رامش) بيدى الفتاة — وكانتا رخصتين ، أثلجهما الخوف — واحتواهما بين راحتيه ، واجتذبها برفق إليه . ولم تقاوم ، إذ سلبها الخوف كل شعور عدا الرغبة فى أن تأنس إلى صحبة إنسان . وفى الظلام الدامس ، وجدت الحمى

الذى كانت تنشده ، فى صدر (رامش) المتهدج ، الدافئ . ولم تكن الظروف ملائمة للاستحياء أو الدلال ، فاستكانت فى اطمئنان إلى ذراعيه اللتين ضمتاها إليه .

وغابت نجمة الصباح ، ودب الشحوب فى سماء الشرق خلف النهر ، ثم احمر لونها . وكان (رامش) يرقد على الرمال فى نوم عميق ، بينما توسدت العروس الشابة ذراعه ، واستلقت إلى جواره غارقة فى النعاس . وما لبثت شمس الصباح أن ترامت على أعينهما فى رفق ، فنهضا من نومهما . وظلا برهة يحملقان فيما حولهما بدهشة ، ثم تبينا فجأة أنهما وحيدان ، طرحهما الموج على الجزيرة المنعزلة ، بعيداً عن موطنهما :

الفصل الرابع

● لم يمض وقت طويل ، حتى انتثرت الأشرعة البيضاء على صفحة النهر .. أشرعة قوارب صيد السمك : ونادى (رامش) أحد هذه القوارب ، واستعان بمن كانوا فيه من صيادين على استئجار قارب للعودة به إلى قريته ، كما اتصل قبل الرحيل بالبوليس ، للبحث عن رفاقه الذين تخلى عنهم الحظ .

وعندما بلغ مرساة السفن فى قريته ، علم أن البوليس عثر على جثث : أبيه ، وحماته ، وعدد من أقاربه ، وأنه قدر لبعض النوتية أن ينجوا . أما من عدا هؤلاء ، فقد اعتبروا مفقودين . وكانت جدة (رامش) قد بقيت فى بيت الأسرة ، فاستقبلت حفيدها وعروسه بالعويل ، كما ساد النحيب دور كل أولئك الذين كانوا فى موكب

العرس ، فلم تطلق المقذوفات النارية ، ولا تعالت الصيحات والهتافات ترحيباً بالعروس عند وصولها .. ولا احتفل بها أحد ، بل إن القوم كرهوا – فى الواقع – رؤيتها !

وكان (رامش) قد عقد العزم على أن يبرح وزوجته القرية بمجرد انتهاء مراسم دفن الموتى ، ولكنه لم يستطع أن ينقل قدماً ، قبل أن يسوى شئون أبيه . وسألته الثكالى من نساء الأسرة أن يسمح لهن بالحج ، فاضطر إلى اتخاذ التدابير لذلك أيضاً . ولم يكن – فى سويعات راحته من هذه الأمور المحزنة – ليغفل مطالب الحب ، فإن عروسه لم تكن تلك الطفلة التى صورتها له الأنباء والأقاويل . بل إن نساء القرية تجنين فزعمن أنها تجاوزت سن الزواج المألوفة . ولم يجد حامل (الليسانس) الشاب عوناً فى الكتب ، يبصره بأساليب الهوى ! .. على أنه أحس بشعور غريب يدفعه إلى الحسناء الصغيرة .. بل إن ذهنه الذى اعتاد أن يفكر على أسس من المنطق لم يقو على مقاومة فتنتها ! .. وتمثلها فى خياله زميلة المستقبل وشريكته . وتوالت أمام عينيه – فى أحلامه – الرؤى التى تظهرها فى مختلف نواحى الحياة : عروساً عذراء ، وخليلة معبودة ، وأماً فاضلة طاهرة لأولاده ! .. وكما يقيم الرسام للصورة المثالية – أو الشاعر للقصيدة الكاملة التى يبتدعها خياله – عرشاً فى فؤاده ، ويروح يضفى عليها كل إعزاز ، ويقف عليها كل ولاء ، فإن (رامش) بوّأ هذه الفتاة الهيفاء ، الصغيرة القدّ ، عرش خياله ، كبهجة لفؤاده ، وبشير بالفرح والرخاء فى داره !

الفصل الخامس

● قضى (رامش) ثلاثة أشهر تقريباً فى تسوية شئون أبيه ، وفى تدبير كل الإجراءات للحج الذى رغبت فيه عجائز الأسرة . وبدأ بعض الجيران – فى تلك الأثناء – يقدمون تحياتهم للعروس الشابة . وأخذ الرباط العاطفى – الذى كان يشدها إلى (رامش) – يزداد توثقاً على مر الأيام ، فاعتاد الزوجان الشابان أن يبسطا الحصائر على سطح الدار ، وأن ينفقا الأمسيات تحت السماء . وأصبح (رامش) يستحل لنفسه بعض المداعبات ، فيفاجئها من خلف ظهرها ، ويضع يديه على عينيها ، ويجذب رأسها إلى صدره .. فإذا غلبها النعاس فى أوائل الليل قبل العشاء ، تعمد أن يوقظها بمفاجأة مزعجة ، معرضاً نفسه للوم والعتاب ! .. وفى إحدى الأمسيات ، أمسك بشعرها المعقوص ، فنثره فى مداعبة ، وقال : « لست أحب يا سوسيلا هذا الشكل الذى عقصت عليه شعرك اليوم ! » ، فاعتدلت الفتاة فى جلستها قائلة : « اسمع .. لماذا تصرون جميعاً على أن تدعونى سوسيلا ؟ » .

وحملق فيها (رامش) مأخوذاً ، حائراً ، لا يدرى ما الذى كانت تعنيه بهذا السؤال ، بينما استرسلت هى قائلة : « إن تبديل اسمى لن يغير من حظى . لقد كنت منحوسة مذ كنت طفلة ، وسأظل منحوسة ما حييت ! » .. وانبثق فى فؤاد (رامش) شعور من خيبة الأمل ، وغاض الدم من وجهه . وتسلط عليه فجأة يقين بأن هناك ثمة خطأ جسيماً .. خطأ ما لم يكن يدرى كنهه ، فقال : « لماذا تقولين إنك سيئة الحظ طيلة عمرك ؟ » .

— لقد مات أبي قبل أن أولد .. ولم أكن قد بلغت الشهر السادس من عمري حين لحقت به أمي . ولقد قضيت وقتاً من أسوأ الأوقات فى دار خالى . ثم بوغت بأنك جئت من مكان ما ، وأعجبت بى ، فلم ينقض يومان حتى تزوجنا .. وإنك لتعلم ما جرى بعد ذلك !

واستلقى (رامش) على حشيته حائراً . وكان القمر قد بزغ ، ولكن شعاعه بدا فى عينيه فاقد البهاء . وأوجس من أن يوجه إلى الفتاة سؤالا آخر ، بل إنه حاول أن يطرح عن ذهنه ما سمع ، وأن يعتبره حلماً ، أو وهماً ! .. وهبت نسمة دافئة من الجنوب ، لطيفة كزفرة المستيقظ من نعاس .. وشرع طائر من طيور (الوقواق) يصدح فى ضوء القمر بأنغام رتيبة .. وانبعث من القوارب الراسية فى المرفأ القريب غناء النوتية . وإذ تبينت الفتاة سكون (رامش) لكزته فى رقة ، متسائلة : « هل نمت ؟ » .. فأجابها : « لا » ، ولكنه لم يزد . وما لبثت الفتاة أن استسلمت للنوم فى دعة !

وإذ ذاك استوى (رامش) جالساً ، وراح يتأملها .. ولكنه لم ير على جبينها أثراً للسر الذى خطه القدر . ترى ، كيف تسنى لمثل هذا النحس البغيض — الذى أشارت إليه — أن يستتر وراء حسن كهذا ؟

الفصل السادس

● وما لبث (رامش) أن أيقن أن الفتاة لم تكن الزوجة التى عقد عليها قرانه ! على أنه لم يكن من السهل أن يكتشف ممن كانت قد اقترنت ، وعنّ له مرة أن يسألها فى لباقة ، فقال : « ما الذى خطر لك حين رأيتنى

للمرة الأولى عند عقد قراننا ؟ » . فأجابته : « إننى لم أرك .. إذ لم أوجه إليك بصرى طيلة الوقت » .

رامش : « أولم تسمعى اسمى على الأقل ؟ » :

الفتاة : « إنما سمعت عنك للمرة الأولى فى اليوم السابق لزفافنا ، فقد كانت زوجة خالى تتعجل الخلاص منى ، إلى درجة شغلتها عن أن تذكر لى شيئاً ، ولو اسمك ! » :

رامش : « لقد علمت — بهذه المناسبة — أنك تعرفين القراءة والكتابة ، فهل تراك قادرة على كتابة حروف اسمك ؟ » .. وقدم لها ورقة وقلماً ، فصاحت فى استهجان : « لعلك تحسبنى أجهل حروف اسمى ! .. إنه فى الواقع سهل الهجاء » ، وكتبت بحروف كبيرة : « سريماتى كمالا ديبى » .

رامش : « والآن ، اكتبى اسم خالك ! » :

وكتبت (كمالا) : « سريجوكتا تارينى تشاران تشاتوباديای » ، ثم تساءلت : « أترانى أخطأت ؟ » .. فأجابها : « لا .. ولكن ، هلا كتبت اسم قريتك ؟ » .. فكتبت : « دوبابكور » . وبمثل هذه الحيلة لم يلبث (رامش) أن جمع عدداً من البيانات عن حياة الفتاة . على أنه ظل رغم ذلك أبعد ما يكون عن الغاية التى كان يسعى إليها من وراء أسئلته ، ومن ثم عكف على تدبير خطة يتصرف بمقتضاها فى المستقبل . كان الاحتمال الغالب أن زوجها غرق . ولو أنه اهتدى إلى أهل هذا الزوج ، وأرسل إليهم (كمالا) ، فمن المشكوك فيه أن يقبلوها بينهم . ولم يكن من الإنصاف أن ترد إلى دار خالها ؛ ثم ، كيف يتقبلها المجتمع ، إذا

ما ظهر أنها كانت تقيم كل هذا الوقت مع رجل غير زوجها ، كزوجة له ؟ .. وأين إذن تجد المأوى والرعاية ؟ .. ولو افترضنا أن زوجها كان حياً ، فهل من المحتمل أن يرغب فى استعادتها .. أو أن يقدم على ذلك ؟!

وشعر (رامش) بأنه إذا أقدم على أى تصرف من هذا القبيل ، لألقى بالفتاة فى عرض بحر لا أول له ولا آخر ، وليس لها فيه من هاد ولا دليل ! .. وما كان بوسعه أن يستبقيها معه بأى اعتبار ، سوى اعتبار أنها زوجته ، كما لم يكن بوسعه أن يسلمها إلى أى امرىء آخر : ومع ذلك ، فما كان له أن يعيش معها كزوج يعيش مع زوجته ! .. وأصبح من واجبه أن يمحو الصورة الفاتنة التى رسمها لهذه الفتاة ، كشريكة لحياته المقبلة ، رغم أنه أبدع فى رسمها ، وأسبغ عليها ألواناً وضاءة مزجها له الحب ! .. كذلك لم يعد فى الإمكان أن يقيم معها فى قريته . أما بين الحشد الزاخر من السكان الذين تكتظ بهم (كلكتا) ، فلن يكون أكثر من فرد مغمور .. ولعله يستطيع هناك أن يهتدى إلى حل . ومن ثم انتقل بكمالا إلى (كلكتا) ، وأقام معها فى مسكن ناء عن ذاك الذى كان يشغله من قبل .

ووجدت (كمالا) فى الانتقال تجربة مثيرة .. فما أن استقرا فى مسكنهما يوم وصولهما ، حتى لزمت النافذة ! .. كان السيل الآدمى الذى يتدفق دون انقطاع تحت بصرها ، كفيلا بأن يثير فى نفسها فضولا لا سبيل إلى إشباعه . وكان (رامش) قد استأجر لخدمتها امرأة ثيباً لم تكن طرقات (كلكتا) بالجديدة عليها ، ومن ثم أخذت ترمق عجب

(كمالا) وكأنه لون من النزق ، وما لبثت أن هتفت بها : « ما الذى يدهشك فى هذا المنظر ؟ .. أو لن تنهضى للاغتسال ؟ .. إن الوقت يمضى سراعاً ! » .

وكانت المرأة مكلفة بخدمتهما طيلة النهار ، على أن تنصرف فى المساء إلى دارها ، إذ عز عليهما أن يجدا خادماً تبيت معهما . وقال (رامش) لنفسه : « لم أعد أملك أن أنام مع (كمالا) ؛ ولكن ، كيف تقضى الصغيرة لياليها وحيدة فى مكان لم تألفه ؟ » .. وما أن انصرفت الخادم عقب العشاء — فى الليلة الأولى — حتى قاد (رامش) (كمالا) إلى مخدعها ، وقال : « يحسن بك أن تأوى الآن إلى فراشك ، وسألحق بك بعد أن أفرغ من القراءة ! » .. وفتح كتاباً ، وتظاهر بالقراءة .. وكانت (كمالا) متعبة ، فلم تلبث أن نامت .. وأفلحت الحيلة فى الليلة الأولى ! وكذلك عمد (رامش) فى الليلة التالية إلى إسلام (كمالا) إلى السرير وحيدة . وكان الحر شديداً ، فنشر ملاءة على أرض الشرفة المتصلة بالمخدع ، وقرر أن يقضى ليلته هناك . وظل فترة طويلة مستغرقاً فى التفكير ، مستروحاً النسمات ، ولكنه ما لبث — حوالى منتصف الليل — أن استغرق فى السبات . غير أنه انتبه من نومه فى نحو الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً ، على شعور أوحى إليه بأنه لم يكن وحيداً .. كان ثمة من يجتلب له النسمات بمروحة ! .. وفى شرود النائم ، جذب الفتاة نحوه قائلا بصوت أثقله النعاس : « ألا اذهبى فنامى يا سوسيلا ، ودعى الترويح عنك ! » .. ولكن الخوف من الظلام زين لكمالا أن تستكين إلى حضن (رامش) ، وسرعان ما استغرقت فى نوم هادىء .

واستيقظ (رامش) مبكراً فى الصباح ، فأجفل مأخوذاً ، إذ كانت (كمالا) نائمة وقد طوقت عنقه بذراعها اليمنى ! .. كانت قد فرضت نفسها عليه ، فى ثقة عذبة مفعمة بالإغراء ، فتوسدت صدره : واغرورقت عيناه وهو يتأمل الفتاة النائمة .. كيف يجرؤ على أن يفك الأنشوطة الناعمة التى طوقت بها الفتاة عنقه فى اطمئنان ؟ .: وتذكر أنها تسللت إلى جواره فى الليل ، لتروح مستجلبة له الهواء . وأرسل زفرة حارة ، وأخذ يتحايل حتى تخلص من عناقها فى رفق ، ثم نهض :

* * *

● قرر (رامش) — بعد تفكير طويل ، قلق — أن يلجأ إلى حل مؤقت للمشكلة ، بأن يلحق (كمالا) بمدرسة داخلية للبنات . ومن ثم شرع يزين لها الفكرة ، فسألها : « هل تحبين أن تزدادى علماً يا كمالا ؟ » .: فتطلعت إليه الشابة بنظرة قالت بلغة أفصح من الكلام : « ما الذى ترمى إليه ؟ » .. فأخذ يسهب فى الحديث عن فوائد التعلم ، وما فى الدراسة من متعة . وما كان أحراه بأن يوفر على نفسه الكلام ، إذ كان كل ما قالته (كمالا) هو : « حسناً ، إذن فعلمنى ! » .. فقال (رامش) : « سألحقك بمدرسة ! » ، فهتفت فى عجب : « مدرسة !. أو تذهب فتاة كبيرة مثلى إلى المدرسة ؟! » .. وابتسم إذ أسندت احتجاجها إلى السن ، ثم قال : « إن ممن يذهبن إلى المدرسة من يكبرنك فى السن كثيراً ! » .

ولم تجد (كمالا) ما تقوله بعد ذلك . وفى أحد الأيام ، استقلت عربة مع (رامش) إلى المدرسة ، فإذا بها مؤسسة كبيرة ، لا يكاد

المرء يحصى من كنّ فيها من فتيات ، منهن من يكبرن (كمالا) ومنهن من يصغرنها !.. ووكلها (رامش) إلى رعاية ناظرة المدرسة ، حتى إذا همّ بالانصراف ، تحركت وكأنها تبغى أن تصحبه ، فقال لها : « إلى أين تنصرفين ؟.. لسوف تمكثين هنا ! » .. فسألته فى صوت مرتجف : « أولن تمكث أنت الآخر ؟ » . قال : « لست أملك البقاء! » : عند ذاك أمسكت (كمالا) بيده ، وقالت : « إذن ، فليس لى أن أبقى أنا الأخرى .. خذنى معك ! » .. فقال وهو يخلص يده من يدها : « لا تكونى غبية يا كمالا ! » .. وأفحم هذا التأنيب (كمالا) ، فلم تحر كلاماً ، وسمرت فى مكانها كالمأخوذة وقد بدا وجهها مسرحاً لاختلاجات مؤثرة : وأسرع (رامش) إلى الخروج بقلب أثقله الألم . على أنه — رغم تعجله — لم يستطع أن ينسى منظر ذلك الوجه الجميل ، الصغير ، المرتاع !

الفصل السابع

● اعتزم (رامش) بعد ذلك أن ينصرف إلى ممارسة المحاماة أمام محاكم (آليبور) فى (كلكتا) . على أنه كان فاتر المهمة ، إذ كان ينقصه الحافز الذى يدفعه إلى العمل فى سبيل غاية معينة ، وإلى تذليل كل العقبات التى تعترض طريق المحامى الناشئ . وبدأ يكثر من المشى على غير هدى — أو لغير ما غاية — عند جسر (هوراه) ، أو حول (ميدان الكلية) . وكان قد شرع يفكر فى القيام برحلة إلى المناطق الشمالية الغربية ، حين تلقى رسالة من (أنادا بابو) ، حولت إليه من بلدته . وكان الشيخ

الجليل قد كتب له : « طالعت فى صحيفة (الجازيت) نبأ نجاحك ، فآلمنى أن لا أسمع هذا النبأ منك شخصياً . ولقد انقضى أمد طويل لم نحظ فيه بأخبارك . فمن واجبك أن تخفف من قلق أصدقائك القدامى ، ولذا نرجو أن تكتب إلينا عن صحتك ، وعن موعد حضورك إلى كلكتا » !.. وما نرانا نخرج عن الموضوع إذا ذكرنا هنا أن الشاب الآخر الذى كان يدرس فى إنجلترا — والذى كان (أنادا بابو) يضع عينه عليه كزوج لابنته — كان قد أتم دراسته ، وسمح له بممارسة المرافعة أمام المحاكم ، وعاد إلى الهند فتزوج من شابة ثرية !

وساور الشك (رامش) — فترة طويلة — فيما إذا كان من حقه ، بعد كل ما جرى ، أن يجدد علاقته بهمنالينى على النسق الذى قامت عليه فى الماضى . إذ ما كان له — فى حاضره — أن يميط اللثام عن حقيقة علاقته بكمالا ، مهما تكن الظروف . فقد كان يشفق على الفتاة البريئة مما يعرضها له هذا التصرف من فضيحة وخزى فى نظر المجتمع : ومع ذلك ، كان من واجبه ، إذا شاء أن يستأنف علاقاته الأولى مع (همنالينى) ، أن يبوح لها بكل شىء ! .. على أنه — فى أى الحالين — لم يجد من الكياسة أن يبطئ فى الرد على خطاب (أنادا بابو) ، ومن ثم كتب له : « أرجو أن تغفروا لى عدم زيارتى لكم ، فقد حالت دون ذلك ظروف فوق إرادتى » ! .. وتعمد إغفال ذكر عنوانه الجديد . وفى اليوم التالى ، ابتاع الزى التقليدى للمحامين ، وظهر لأول مرة فى محكمة (آليبور) :

وفى ذات يوم ، راق لرامش أن يقطع بعض الطريق على قدميه ،

وهو عائد من حى المحاكم . وإذ همّ بأن يستأجر عربة لتقله إلى البيت ، سمع صوتاً مألوفاً لديه ، يهتف فى عجب : « أبت .. هاهو ذا رامش بابو ! » .. وانبعث صوت رجل يصيح : « قف أيها الحوذى .. قف ! ». ووقفت عربة على مقربة من المكان الذى وقف فيه (رامش) . فقد كان (أنادا بابو) وابنته عائدين من نزهة استغرقت نهارهما فى حدائق حيوان (آليبور) ، ومن ثم كان هذا اللقاء . وما أن وقع بصر (رامش) على (همنالينى) فى العربة .. (همنالينى) بوجهها السمح اللطيف ، وزيها ، وشعرها المنسق على ذلك النمط الذى ألفه ، والقرطين الكبيرين ، والأساور الذهبية المحيطة بمعصميها .. ما أن وقع بصر (رامش) على كل هذا ، حتى اجتاحت صدره موجة من الانفعال العاطفى هزت كيانه هزاً !

وهتف (أنادا بابو) : « هذا إذن رامش ! .. أى حظ أتاح لنا أن نلقاك هكذا فى الطريق ! .. لقد كففت الآن عن الكتابة إلينا ، وحتى عندما كتبت لم تعطنا العنوان .. إلى أين أنت ذاهب الآن ؟ .. هل أنت ذاهب لتأدية مهمة خاصة ؟ » .. فأجاب (رامش) : « لا .. إنما انصرفت لتوى من المحكمة » .

— إذن ، تعال فتناول الشاى معنا .

وكان قلب (رامش) مفعماً بالشوق ، ولا مجال فيه للتردد ، فصعد إلى العربة ، وجلس وهو يغالب الحياء والإحجام بجهد جبار . وسأل (همنالينى) عن صحتها . وبدلا من أن تجيبه ، سألته : « لماذا لم تنبئنى بنجاحك ؟ » .. ولم يسعفه ذهنه بجواب ، فاكتفى بأن قال :

« لقد علمت أنك الأخرى نجحت » .. وضحكت (همناليني) قائلة :
« إذن ، فأنت لم تنسنا تماماً ! حسناً ، إن هذا يبشر بشيء من الطمأنينة ! » .
وسأله (أنادا بابو) : « وأين تقيم الآن ؟ » :: فقال (رامش) :
« فى حى دارد جيبارا » .. وإذ ذاك قال الشيخ الجليل : « ولماذا ؟ ::
إن مسكنك القديم فى حى (كالوتولا) كان ملائماً ! » :: وحدقت
(همناليني) فى (رامش) باهتمام ، مشوقة إلى سماع جوابه : ولم تغب
هذه النظرة عن (رامش) ، بل لقد أحس بالعتاب الذى انطوت عليه ،
فقال متلعثماً : « أجل .. لقد اعتزمت أن أعود إليه ! » :

* * *

● وكان (رامش) موقناً بأن (همناليني) قد أقامت من نفسها
حكماً عليه ، ومن ثم وجد نفسه أمامها مذنباً ، وكأنما كان تغيير مسكنه
جريمة خطيرة ! .. وأثار الشعور بالذنب فى نفسه شجناً مؤلماً ، وعجز
ذهنه عن أن يلهمه حجة واحدة للدفاع عن تصرفه : على أن هذا
التحقيق دار فى صمت — مؤقتاً — وتعمدت (همناليني) أن تثبت بصرها
على الطريق مشيحة عنه . حتى إذا ثقل الصمت ولم يعد لرامش قبل
باحتماله ، تطوع لأن يذكر لها طرفاً من سبب تغيير مسكنه ، قائلا :
« إن لى قريباً يقيم بالقرب من (هدوا) ، ولذلك أقمت فى (داردجيبارا)
حتى أكون على اتصال به ! » .. ومع أن هذا لم يكن كذباً خالصاً ،
إلا أنه بدا تبريراً ناقصاً ، يثير الاستنكار .. كأنما لم يكن حى (كالوتولا)
قريباً من حى (هدوا) بحيث يتيح له أن يطمئن من آن إلى آخر على
قريب له بعيد النسب !

وظلت (همناليني) تحدق فى الطرق ، فراح (رامش) المسكين
يعصر ذهنه بحثاً عن شيء يقال . وما لبث أن تساءل : « ما أخبار
جوجن ؟ » .. ولكن الجواب جاءه من (أنادا بابو) ، إذ قال :
« لقد أخفق فى الامتحان النهائى للقانون ، فذهب إلى الريف لتغيير
الهواء » ! .. وإذ بلغت العربة غايتها ، فعل المسكن المألوف والأثاث
فعل السحر فى نفس (رامش) ، فأرسل زفرة عميقة ، امتزج فيها
الارتياح والحسرة بشكل عجيب ! .. وجلس دون أن ينبس ببنت
شفة . وفجأة ، قال (أنادا بابو) : « لعلها أعمال هامة تلك التى حملتك
على البقاء طويلا فى قريتكم ؟ » .. فقال (رامش) : « لقد مات أبى .. » .
ولم يتم عبارته ، إذ صاح الشيخ : « أحق هذا ؟ .. وكيف كان ذلك ؟ » .

— كان عائداً إلى القرية فى قارب على نهر (بادما) ، حين هبت
عاصفة مباغتة ، فانقلب به القارب . وكان من بين الذين غرقوا :

واكتسح هذا النبأ ما كان بين (رامش) و (همناليني) من فتور ،
كما تجرف الريح السحب من السماء ، فلا يلبث أن يسودها الصحو .
وقالت (همناليني) لنفسها فى أسف : « لكم أخطأت فى حق رامش
بابو .. كان مشغولا بحزنه على فقدان أبيه ، وبما ترتب على ذلك من
متاعب . ولعله لا يزال حزيناً حتى الآن .. ولكنا اعتبرناه مذنباً ،
ولم يخطر لنا قط أن انشغاله عنا قد يكون راجعاً إلى متاعب عائلية
أو أعباء من هذا القبيل ! » .. ومن ثم تحولت تغدق رعايتها على الشاب
اليتيم ! .. فلما لاحظت أنه لم يصب شيئاً مما قدم مع الشاى ، قالت :

« أرى أنك لست فى صحة طيبة .. يجب أن تعنى بصحتك ! » ، ثم التفتت إلى (أنادا بابو) قائلة : « يجب أن يتناول رامش بابو عشاءه الليلة معنا يا أبت ! » .. فقال السيد الكهل : « بالتأكيد يا ابنتى ! » :

* * *

● وفى تلك اللحظة ، وصل (أكشاى) . وكان ظهور (رامش) غير المرتقب صدمة ساعته ، بعد أن ظل زمناً بغير مزاحم أو غريم على مائدة الشاى بدار (أنادا بابو) . بيد أنه تمالك نفسه ، وهتف فى حبور : « ما هذا ؟ .. أأنت هنا يا رامش بابو !.. ألا ترى أنك قد نسيت وجودنا تماماً ؟ » .. فاكتفى (رامش) بابتسامة واهنة . ولكن (أكشاى) مضى فى حديثه : « عندما رأيت كيف حملك أبوك على الرحيل ، أيقنت أنه ولابد سيعتقلك إلى أن يتم تزويجك .. فهل استطعت أن تفر من هذا المصير ، بعد الذى جرى ؟ » .. ورمقته (همنالينى) بنظرة ناقمة عقدت لسانه : وإذ ذاك قال (أنادا بابو) : « لقد رزئ رامش فى أبيه يا اكشاى » .. ونكس (رامش) رأسه ، ليخفى الاصفرار الذى كسا وجهه فجأة ، عند ذكر الزواج . وسارعت (همنالينى) تسرّى عنه ، وهى محنقة على (أكشاى) لتحرشه به ، فقالت : « إننى لم أطلعك بعد على مجموعة صورى الجديدة ، يا رامش بابو » .. وأحضرت (الألبوم) فوضعته على المائدة أمام (رامش) ، وشرعت تحدثه عن الصور . وانتهزت الفرصة لتقول له بصوت خافت : « أظنك تقيم وحيداً فى مسكنك الجديد يا رامش بابو » ؟ .

فأجاب : « أجل .. وحدى » .

ــ حسناً ، يجب أن تنتقل بأسرع ما تستطيع إلى مسكنك القديم المجاور !

ــ نعم ، سأنتقل إليه يوم الاثنين القادم مهما يحدث !

فاستدركت قائلة فى تخابث : « الواقع اننى سأحتاج إلى معونة منك ــ بين آن وآخر ــ فى دراسة الفلسفة ، لأحصل على « بكالوريوس الآداب » .. واغتبط (رامش) لهذه الفكرة !

الفصل الثامن

● وقبل أن يمضى وقت طويل عاد (رامش) إلى مسكنه القديم . ولم يبق أثر للغيوم التى خيمت على علاقاته بهمنالينى . بل إنه اعتبر كأحد أبناء البيت ، فكان يشترك فى الدعابات العائلية ، ولم يفته قط الحضور فى أية مناسبة من المناسبات التى كانت الأسرة تحتفل بها . وكان طول استغراق (همنالينى) فى الاستذكار قد شف جسمها ، حتى كان المرء يخال أن النسيم يوشك أن يقصف عودها !

وكانت (همنالينى) ــ قبل عودة (رامش) ــ كثيرة التحفظ والصمت ، حتى أن أصدقاءها كانوا يحجمون عن الإلحاح عليها بالحديث ، خشية أن تردهم فى جفاء . على أن الأيام القلائل التى تلت عودة (رامش) إلى مسكنه القديم أحدثت تطوراً مدهشاً فى مظهرها ومسلكها .. فحلت محل صفرة خديها حمرة خفيفة ، وأصبحت عيناها ترقصان طرباً مع كل كلمة تنطق بها : ولقد مرت عليها فترة كانت ترى فيها أن من الطيش ــ بل من الإجرام ــ أن تبدى اهتماماً كبيراً

بالثياب . ولكن أحداً لم يقدر له أن يدرك سر ما طرأ عليها اليوم من تطور فى هذا الصدد ، فما كانت لتفضى بدخيلة نفسها إلى أحد ، أما (رامش) ، فكان كالعهد به دائماً ، محرجاً ، مرهف الضمير ، كمن يخشى أن يصدر عنه ما يؤاخذ عليه ؟ .. كان الشعور بالمسئوليات يثقل جسمه وعقله ، على السواء : وما كان ليحيد عن عاداته ولو تغير نظام الكون ! .. كان أشبه بالفلكى ، لابد من أن يقيم مرصده وكل أدواته على أسس وقواعد ثابتة ، رغم أن الكواكب تمضى فى أفلاكها طليقة ، حرة من كل قيد ! .. وكان لا يحفل ببهرج الدنيا وضجيجها ، ليستغرق فى كتبه وما كانت تتضمنه من فلسفات . على أن وميضاً من الخفة والمرح — اللذين لم يكن له بهما عهد — أشرق اليوم فى ظلام مسلكه المتزمت . ومع أنه ظل يجد عناء فى ترويض نفسه على إلقاء النكات والفكاهات ، إلا أنه أصبح لا يتورع عن أن يبدى تقريره للملحة الطيبة ، أو الدعابة البريئة . وإذا كان شعره قد ظل محروماً من المعاجين والطيب ، إلا أنه لم يكن قط زرى الثياب .. ولاح أن جسده وعقله أصبحا أكثر نشاطاً ومرحاً !

الفصل التاسع

• تفتقد (كلكتا) — أكثر من أية مدينة أخرى — كل تلك المعالم التى اعتاد الشعراء أن يرسموها للبيئة التى تليق بالعشاق من الشباب . فالبساتين المزهرة ، والأشجار الوارفة ، والخمائل الملتفة فى أوراق النباتات الزاحفة ، وأنغام طائر (الوقواق) الصداح .. كل هذه معالم لا وجود لها فى (كلكتا) ، ومع ذلك فان (الحب) الساحر يأبى

أن ينسحب منهزماً من المدينة الحديثة الخالية من الخضرة والجمال : ومن ذا الذى يستطيع أن يتعقب هذا الإله — أصغر الآلهة وأقدمها معاً — فى جولاته ، وهو ينساب بقوسه وسط حركة المرور الزاخرة ، متسللا خلال مركبات الترام الفولاذية الجدران ، ومتوارياً عن عين رجل الشرطة ذى العمامة الحمراء ؟ ! .. فلقد كان (رامش) و (همنالينى) يسكنان بيتين من بين مجموعة من بيوت حى (كالوتولا) تواجه حانوت إسكافى ، وتجاور متجر بدال ، ومع ذلك انساب غرامهما فى سرعة ويسر ، وكأنهما كانا يقيمان فى خميلتين شاعريتين ! .. ولم يضر (رامش) فى شىء أن تقضى الظروف بأن تكون لقاءاتهما حول مائدة (أنادا بابو) العتيقة ، الصغيرة ، ذات الغطاء الملطخ ببقع الشاى ، بدلا من أن تكون حول بحيرة تتناثر على سطحها زهور اللوتس ! .. وما قدر لأى فتى ريفى — من العشاق الذين تصورهم الأساطير — أن يداعب الحمل الوديع الذى تعتز به حبيبته ، بمثل ذلك الوجد الفياض الذى كان (رامش) يبديه وهو يتحسس عنق القط الذى كانت (همنالينى) تعتز به ! .. وكان القط إذا ما قوس ظهره ، ونهض متمطياً ، بدا لعينى الشاب المفتون أجمل المخلوقات التى يكسوها الفراء !

كذلك كانت (همنالينى) قد أهملت الحياكة والتطريز ، عندما وقفت كل تفكيرها على الاستعداد للامتحان . ومن ثم قضت وقتاً فى تلقى بعض الدروس على يدى إحدى صديقاتها . على أن (رامش) كان يرى فى التطريز عملية غير لازمة ، وغير جديرة بأى اهتمام جدى ..

فقد كان فى وسعه أن يلتقى بهمنالينى فى ميدان الأدب وأحاديثه، أما فيما يتعلق بأشغال الإبرة ، فلم يكن له ثمة مجال لارتياد ميدانها ! .. وكان لا يفتأ يهتف بحبيبته فى شىء من العتاب : « فيم شغفك بالتطريز فى هذه الأيام ؟ .. إنه ملهاة أولئك اللائى لا يجدن عملا يفضله ! » .. فكانت (همنالينى) تبتسم فى صمت ، وهى منهمكة فى إيلاج الخيط فى ثقب إبرتها .

وخطر لأكشاى يوماً أن يقول فى سخرية لاذعة : « إن رامش بابو يزدرى كل شىء فى الدنيا له نفع ! .. إنه قد يتخذ من أى فيلسوف أو شاعر إلهاً معبوداً ، ولكن ما درج عليه من استهانة بكل شىء ذى قيمة ، لا يلبث أن يحيد به عن الاستغراق فى العبادة ! » .. وأثار هذا القول ثأرة (رامش) ، فتأهب لجدال حامى الوطيس ، بيد أن (همنالينى) اعترضته قائلة : « لماذا تحفل دائماً بالرد على ما يقال يا رامش بابو ؟ .. ما أكثر ما فى الدنيا من لغو لا قيمة له ! » .. وانحنت تحصى عدد الغرز التى صنعتها إبرتها ، ثم عادت تدس الإبرة بانتباه خلال الحرير ..

ودخل (رامش) ذات يوم حجرة مكتبه ، فإذا على مائدة الكتابة كراسة من ورق النشاف ، فى غلاف من حرير مزين بزهور مطرزة . وفى أحد الأركان ، نقش الحرف « ر » ، بينما نقشت زهرة « اللوتس » فى ركن آخر بخيط من القصب . ولم تساور (رامش) الحيرة طويلا ، فما لبث أن فطن إلى شخصية صاحبة الهدية ، وإلى الباعث الذى حملها على تقديمها ، فتسارعت دقات قلبه ، وتلاشى كل احتقاره لأشغال

الإبرة ، فانقلب فى لحظة إلى متحمس لهذه الأشغال ، متأهب للدفاع عنها أمام كل إنسان . وإذ ضم كراسة ورق النشاف إلى صدره ، بدا مستعداً لأن يعترف بخطأه ، ولو لأكشاى نفسه ! .. وفتح الكراسة ، فوضع فيها قطعة من الورق ، وراح يكتب : « لو أننى كنت شاعراً ، لأرسلت لك نسخة من أشعارى .. أما وأنا كما تعرفين ، فإنى عاجز عن أن أقدم لك ما يتكافأ مع هديتك . لقد حرمت نعمة البذل ، ولكن ثمة نعمة فى الأخذ .. إن ما تعنيه هذه الهدية غير المرتقبة ، لهو سر بين الإلـه العليم ونفسى ! .. والهدية ذاتها قد ترى وتلمس ، أما عرفانى للجميل فشىء لا يرى ولا يلمس ، وإنما يكفيك أن أذكر لك أننى سأظل إلى الأبد مديناً لك — رامش » .. وتلقت (همنالينى) الرسالة ، ولكنها و (رامش) لم يشيرا إليها بعد ذلك قط !

* * *

● وأقبل فصل الأمطار .. والأمطار تدخر فوائدها عادة للريف ، أما لأهل المدن ، فهى ليست نعمة مشتهاة ، إذ تتجه الجهود بأسرها إلى تفادى البلل ، وفى سبيل هذا يغلق أصحاب الدور نوافذهم ، ويعززون سقوفهم ، ويرفع عابرو الطرق المظلات فوق رؤوسهم ، وتسدل ستائر مركبات الترام .. ومع ذلك يظل الجميع يخوضون فى الماء والوحل طيلة الوقت . هذا ، بينما يستقبل النهر ، والجبل ، والغابة ، والحقل ، مقدم المطر ، بصيحات الترحاب ، وكأنه صديق حميم .. ولكم نرى المطر فى أبهى آياته ، فى بيئته الطبيعية ! .. فعندما تتحد أصوات السماء والأرض لتحية السحب المطيرة ، يغيب كل نغم ناشز ! .. والعشاق

الشبان يرحبون بالمطر كالجبال ! فإذا كان انهماره لم يزد (أنادا بابو) سوى نهم ؛ إلا أنه لم يقو على أن يغرق روحى (همنالينى) و (رامش) !.. وكثيراً ما كان المطر يحول دون ذهاب (رامش) إلى المحكمة ، إذ أخذ يهطل بغزارة يوماً بعد يوم ، إلى درجة كانت تدفع (همنالينى) إلى أن تقول لرامش وهو يتأهب للانصراف من دارهم بعد تناول الشاى : « كيف تستطيع أن تعود إلى دارك فى مثل هذا الجو يا رامش بابو؟ ». فيجيب رامش فى استحياء : « هذه مسألة بسيطة .. سأستطيع ذلك بطريقة ما ! » .. فتقول (همنالينى) مستحثة : « ما الجدوى من أن تبتل وتصاب ببرد ؟ .. من الأفضل أن تمكث لتتناول العشاء معنا » !

ولم يكن (رامش) بالذى يخشى على صحته ، فما لاحظ أصدقاؤه وأقاربه أنه عرضة للتأثر بالبرد بسهولة . ومع ذلك ، فقد أخذ ينصاع بسرعة مدهشة لما كانت تمليه عليه (همنالينى) فى الأيام الممطرة ، وأصبح السير تحت المطر — ولو الخطوات القلائل التى تفضى به إلى داره — يعتبر تهوراً آثماً ! .. وعندما كانت السماء تبدو أكثر اكفهراراً وإنذاراً بالسيل من المألوف ، كان (رامش) يدعى إلى غرفة (همنالينى) ليشترك فى الفطور أو العشاء ، حسب الوقت ! .. وكانت (همنالينى) لا تخشى على جهازه الهضمى من الأكل خشيتها على صدره من البرد !.. وهكذا ، راح الشابان يقضيان أيامهما — يوماً بعد آخر — متدثرين بعواطفهما ! .. ولم يفكر (رامش) مطلقاً فى نتيجة هذا كله ، ولكن (أنادا بابو) فكر فيه ، كما وجده أصدقاؤه وأقاربه مادة لأحاديثهم !.. فإن ما أوتيه (رامش) من وعى بالأمور الدنيوية ، لم يكن يعادل

ما أوتيه من لباقة وبلاغة . وقد أسدل افتتانه بهمنالينى ستاراً كثيفاً على نظرته إلى شئون الحياة الاجتماعية ، فلم يفطن إلى ما ينبغى أن يكون بعد هذا الانسياق للهوى ! .. وكان (أنادا بابو) يتفرس فى وجهه كل يوم ، مستطلعاً ، متسائلا ، فلا يتلقى الجواب المرتقب !

الفصل العاشر

● لم يكن صوت (أكشاى) بالرخيم ، ولكن أى ناقد ما كان ليتردد فى أن يسأله المزيد إذا ما غنى وهو يعزف على قيثارته ! .. ولم يكن (أنادا بابو) شديد الشغف بالموسيقى ، بل إنه ما كان ليزعم ذلك ولو على سبيل المجاملة ، إلا أنه أوتى وسائله الخاصة التى كان يلجأ إليها إذا ما رأى أن محبى الموسيقى قد أسرفوا فى إرضاء ميولهم على حسابه . فإذا سأل أحد (أكشاى) أن يمضى فى الغناء من جديد ، تدخل (أنادا بابو) قائلا : « ما ينبغى لك هذا فى الواقع .. إنكم لترهقون المسكين لمجرد أنه يجيد الغناء ! » .. وكان (أكشاى) يرد فى لباقة : « هذا صحيح يا أنادا بابو ، فلا تأبه لهم .. ولكن ، من الظالم ومن المظلوم فى هذا الإرهاق ؟ » .. فيقول الشخص الذى سأله أن يغنى : « هذا ما سنقرره بعد أن تجود علينا بأغنية أخرى ! » .

واكفهرت السماء بعد ظهر ذات يوم بسحب ثقال ، وأخذ الليل يقترب دون أن يكف المطر عن الانهمار . وحال السيل دون انصراف (أكشاى) ؛ فاقترحت (همنالينى) عليه أن يغنى ، وشرعت فى ضبط أوتار (بيانو) صغير (من ذلك النوع الذى يسهل نقله ، والذى نستخدمه فى البنغال) ، فضبط (أكشاى) بدوره أوتار قيثارته ،

ثم انطلق يغنى مقطوعة هندوكية . ولم تكن لغة الأغنية مألوفة للسامعين ، ولكن غموض الكلمات لم يضايقهم فى شيء .. فإن أتفه الإشارات ترضى النفوس ، إذا ما كانت المشاعر فى أوج جيشانها . وكان المعنى العام للأغنية واضحاً : كانت السحب المطيرة ترسل قطراتها ، والطواويس تصيح ، وثمة عاشق ينوح من أجل حبيبته ! .. وكان (أكشاى) يحاول أن يبث أغنيته ما كان يعتلج فى فؤاده من مشاعر لا يجسر على البوح بها ، ولكن محاولته لم تنجح إلا فى تحريك عواطف شخصين آخرين ، كانا على مقربة منه .. فإذا قلبان يخفقان فى تجاوب ، ويغوصان فى لجج اللحن ! .. ولم يعد فى الدنيا شيء يلوح لهما تافهاً أو قاتماً ، وإنما بدت الدنيا لهما ملتفة فى غلالة من ضباب وردى .. وكأنما اجتمع كل ما خفقت به قلوب البشر من وجد — منذ الخليقة — ثم أخذ ينهمر على هذين العاشقين ، ويتغلغل فى كيانيهما بكل ما كان يحتويه من لذة وعذاب ، ومن حنين وأسى !

ولم ينقطع المطر .. ولا الغناء ! .. ولم يكن على (همنالينى) سوى أن تقول : « لا تسكت يا أكشاى بابو ، بل أسمعنا أغنية ثانية » ، فينطلق (أكشاى) — دون أى تمنع — فى أغنية جديدة ! .. وعزف فيما عزف ، وهو يغنى ، لحناً كأفواج من سحب قاتمة مدلهمة ، يمرق البرق خلالها . لكن اللحن كان رغم ذلك يثير كوامن الشجن فى القلب البشرى ! .. وكان الليل قد اكتهل عندما انصرف (أكشاى) إلى داره فى تلك الليلة . وإذ تأهب (رامش) للانصراف ، رمق (همنالينى) لحظة ، وكأنه يتأملها خلال صدى أنغام الأغنية .. واستقبلت (همنالينى)

نظرته بنظرة حالمة ، إذ كان سحر اللحن قد استولى عليها ! .. وكان لمطرا قد كف لحظة عن التساقط ، ولكن ، ما أن عاد (رامش) إلى داره ، حتى عاد الماء ينصب انصباباً .

* * *

● ولم ينم (رامش) فى ليلته . وكذلك جلست (همنالينى) فى ظلام مخدعها طويلا ، تنصت بوعى شارد إلى وقع قطرات المطر ، وكلمات الأغنية الأولى تتردد فى أذنيها . حتى إذا كان الصباح التالى ، قال (رامش) لنفسه : « آه .. ليتنى أجيد الغناء ! .. ما كنت لأحجم عن النزول عن أية موهبة من مواهبى فى مقابل هذا ! » .. ولكنه كان يدرك أن أى لون من ألوان التدريب لايمكن أن يجعل منه مغنياً ، وإن كان فى وسعه أن يتعلم العزف على أية أداة موسيقية ، على الأقل ! .. وتذكر أنه فى إحدى المناسبات ، وجد نفسه وحيداً فى قاعة الجلوس فى دار (أنادا بابو) ، فأجرى القوس على أوتار القيثارة .. وكانت هذه الجرة الواحدة ، كافية لأن تجعله يهفو إلى تعلم الموسيقى ؟ .. على أن إله الموسيقى راح يلومه فى عنف — فى أحلامه — ويوحى إليه بأن الاتجاه إلى إجادة العزف على القيثارة أمر لاينبغى أن يطمع فيه ، ومن ثم خفف من غلوائه ، واشترى معزفاً (بيانو) صغيراً ، وضعه فى غرفته ، ثم أوصد الباب ، وشرع يجرى عليه إصبعه فى حذر . ولم يطل به الوقت حتى تبين أن (البيانو) الصغير أقل إجهاداً وتطلباً للبراعة من القيثارة !

وعندما ظهر فى دار (أنادا بابو) بعد ذلك ، بادرته (همنالينى)



مجاملة . « سمعنا بالأمس شخصاً يعزف على (البيانو) الصغير فى مسكنك ! » .. وكان (رامش) قد ظن أنه بإغلاق الباب يصبح بمنجى عن الأسماع ، ولكنه تبين أن ثمة شخصاً مرهف السمع ، التقط الأصوات التى انسابت خلال بابه المغلق ! .. واضطر إلى أن يعترف باستحياء ، فقالت (همنالينى) : « لا جدوى من أن تحبس نفسك ، لتقوم بمحاولات يائسة على أمل أن تعلم نفسك .. بل الأفضل أن تأتى فتتدرب هنا ، إذ أننى على دراية بأصول العزف بعض الشىء ، وسيكون فى وسعى أن أؤدى لك بعض العون ! » .. فقال رامش : « إننى ثقيل الفهم ، وسيكون تدريبى من أشق المهام عليك ! » .. قالت : « بل لسوف أعلمك كل ما أعرف ، مهما تكن خجولا ! » .

وسرعان ما ظهر أن (رامش) لم يكن مغالياً فى التواضع ، حين وصف نفسه بأنه ثقيل الفهم فى الموسيقى . فقد كان من العسير عليه أن يثير فى نفسه أى ميل إليها ، رغم معونة مدربته الحسناء ! .. أفرأيت رجلا لا يعرف السباحة ، يهوى فى بركة ، فيروح يضرب الماء بيديه وقدميه فى جنون ؟ .. هذا المثال يدلك على مدى تخبط (رامش) ، وإن كان الماء فى هذه الحال غير عميق ، إذ لم يتجاوز ركبتيه ! .. لم تكن لديه أضأل فكرة عن حركة أية أصبع ، وكان يدق نغماً ناشزاً فى أى مقطع دون أن يفطن ، إذ كان انسجام الأنغام وتنافرها سواء لديه ! .. وكان يخرق كل أصول العزف دون أن ينتبه قط ، فإذا صاحت (همنالينى) : « ما الذى تفعله ؟ .. هذا خطأ ! » ، أسرع إلى إصلاح خطأه بخطإ آخر ! .. على أن صاحبنا (رامش) الصلب الرأى ،

الدءوب ، لم يكن بالذى ينفض يديه من أية مهمة بسهولة . وكما تمضى آلة تمهيد الأرض (وابور الزلط) فى طريقها متثاقلة ، غير حافلة بما تهشم وتسحق تحتها ، كذلك راح (رامش) يدق — فى غير ترفق ، ولا انتباه — على مفاتيح آلته الموسيقية التعسة ! .. وكانت (همنالينى) تضحك من أخطائه ، بل كان هو الآخر يضحك منها .. وكانت مقدرته الفائقة على ارتكاب الأخطاء تروق للجانب الضاحك من إدراك (همنالينى) ! .. فللحب مقدرة على أن يستخلص المتعة والبهجة من الأخطاء ، ومن عدم التناسق ، ومن العجز ! .. وكما أن حب الأم ينساب فياضاً كلما أخطأ طفلها الخطو ، وهى تعلمه المشى .. كذلك كان انعدام أى ذوق أو ميل موسيقى لدى (رامش) مبعث متعة خفية لدى (همنالينى) ؟

ولقد قال (رامش) مرة ، أو اثنتين : « بديع جداً أن تضحكى منى هكذا ، ولكن .. ألم تكونى تخطئين بدورك عندما كنت تتعلمين العزف ؟ » .. فكانت تجيب : «كنت أخطئ بالتأكيد ، ولكننى أصارحك يا رامش بابو بأن أخطائى لم تكن لتقاس مطلقاً بأخطائك!».. ولم يعقه شىء من هذا ، بل كان يضحك ثم يبدأ من جديد . ولم يكن (أنادا بابو) — كما أسلفنا — بالذى يفقه شيئاً فى الموسيقى ، ولكنه كان يتكلف الإصغاء أحياناً، فيرهف السمع ، ثم يقول: « قولى ما شئت فى عزفه ، ولكن (رامش) أوشك أن يكون أستاذاً ! » .

همنالينى : « أستاذ فى النشاز ! » .

أنادا بابو : « لا ، لا .. لقد تحسن كثيراً عما كان حين سمعته لأول

مرة . وثق بأنه لن يلبث أن يغدو عازفاً لا بأس به ، إذا هو ثابر على المران ، فليس هناك من سبيل للإجادة سوى المران المتواصل .. وما أن يحفظ « النوتة » حتى يغدو الطريق ممهداً أمامه ! » .

ولم يكن ثمة وجه للاعتراض على مثل هذا القول .. فقد اعتادت الأسرة أن تتلقى فى احترام وصمت ، ما يضعه الشيخ الجليل من قواعد وقوانين !

الفصل الحادى عشر

● تشبه عطلة (البوجا) فى (البنغال) ، عطلة عيد الميلاد لدى الإنجليز ، فتعطل الأعمال لعشرة أيام أو ما يقرب من ذلك ، ويلتئم شمل الأسرات . وكان (أنادا بابو) — فى خريف كل عام تقريباً — ينتهز فرصة أجور السفر التى تخفض بمناسبة موسم العطلات هذا ، فيرحل إلى (جوبولبور) للاستجمام وتغيير الجو ، مصطحباً ابنته ، فيقيمان فى ضيافة شقيقة له ، كان زوجها من موظفى الحكومة هناك . وكان (أنادا بابو) ينظر إلى هذه الرحلة السنوية كفرصة لتقوية جهازه الهضمى !

وأقبل شهر سبتمبر ، فاقترب موعد العطلة ، وشغل (أنادا بابو) بالاستعداد للرحلة . وكان غياب (همنالينى) كفيلا بأن يعطل دروس العزف ، لذلك حرص (رامش) على أن يفيد من أكبر قسط من الوقت الباقى قبل سفرها . وفى ذات يوم ،قالت (همنالينى) فى سياق الحديث : « أعتقد أن فى تغيير الجو نفعاً كبيراً لك يا (رامش بابو) ، فإن الرحيل

عن (كلتكا) — ولو لأمد قصير — كفيل بأن يفيدك !.. ورأى (أنادا بابو) أن الاقتراح معقول ، فقد عانى (رامش) — كثيراً — من الحزن والحداد ، ومن شأن الترحال أن يشفيه من اكتئابه . وقال الشيخ : « من المؤكد أن تبديل الهواء الذى تعيش فيه لبضعة أيام شئ رائع .. أتعرف يا (رامش) أننى لاحظت أن الإنسان لا ينتفع من الذهاب إلى الريف أو إلى سواه ، إلا فى الأيام القلائل الأولى .. فإن شهية الإنسان تتفتح خلال الأسبوع الأول ، فيأكل برغبة ونهم ، ولكن الأمر لا يلبث بعد ذلك أن يعود إلى ما كان عليه ، بلا اختلاف ، فيعاوده شعوره القديم بمتاعب المعدة ، والحموضة ، وما إلى ذلك ، كلما أكل ! » :

همنالينى : « هل رأيت (تربودا) يا رامش بابو ؟ » .

رامش : « لا .. لم أرها قط » .

همنالينى : « خليق بك أن تراها .. أليس كذلك يا أبت ؟ » .

أنادا بابو : « اسمعى .. لماذا لا يأتى (رامش) معنا ؟ لسوف يبدل الجو ، ويشهد فى الوقت ذاته صخور الرخام ! » .

ورؤى أن هذا النفع المزدوج أمر ضرورى لشفاء (رامش) ، فلم يجد سبيلا إلى المعارضة ، وخيل إليه فى ذلك اليوم أن كيانه كله يسبح فى الهواء . ولكى يهدئ من خفقان قلبه الصاخب ، أغلق باب مسكنه خلفه ، وتحول إلى معزفه . وضاقت نفسه بالتزام الأصول والدقة ، فراحت أصابعه تتراقص — كالمجانين — على مفاتيح المعزف ، مرسلة عاصفة من الأنغام الثائرة ، غير المنسجمة !.. كان التفكير فى

قرب فراقه لهمنالينى قد أسلمه من قبل إلى الهموم ، أما الآن ، فإن الفرح الطاغى أخرجه عن طوره ، فلم يحفل بكل ما تعلم — بعد عناء — من أصول العزف !

* * *

● وقطع عليه استرساله ، طرق على بابه ، وصوت يصيح : « كف يا رامش بابو ، بحق السماء ! .. ماهذا الذى تفعله ؟ » .. واحتقن وجه (رامش) غيظاً ، وفتح الباب ، فولج (أكشاى) قائلا : « ألا ترى يا رامش بابو أنك بالإغراق فى رذيلتك الخفية هذه ، تعرض نفسك للعقاب إذا مثلت أمام نفس المحكمة التى تترافع فيها ؟ » .. فضحك (رامش) قائلا : « أقر بأننى مذنب ! » .. وعاد (أكشاى) إلى الحديث ، فقال : « لدى أمر أريد أن أحدثك فيه يا رامش بابو ، إذا لم تر مانعاً » . وارتقب (رامش) حديث (أكشاى) فى صمت ، وهو يعجب مما قد يكون عنده . وما لبث (أكشاى) أن قال : « لعلك قد عرفت بعد كل هذه المدة ، أن سعادة (همنالينى) ليست بالمسألة التى أستهين بها ؟ » .. ولم يجب (رامش) بنعم أو بلا ، وإنما ظل صامتاً ينتظر ما بعد هذه المقدمة . وما لبث (أكشاى) أن قال : « إننى كصديق لأنادا بابو أرى من حقى أن أسألك عن نواياك إزاء همنالينى ؟! » :

وأحس (رامش) بنفور من الكلمات ، ومن اللهجة التى قيلت بها ، بيد أنه لم يشأ — ولم يستطع — أن يجيب بجفاء ، وإنما رد فى هدوء قائلا : « هل هناك ما يوحى إليك بأن لدى نوايا سيئة ؟ » .. فقال (أكشاى) : « اسمع .. إنك تنتمى إلى أسرة هندوكية ، وقد كان أبوك

هندوكياً . وما صحبك إلى القرية ليزوجك ، إلا لأنه كان يخشى أن تتزوج هنا من إحدى بنات الأسرات البراهمية .. إننى أعرف ذلك ! » .. وكان (أكشاى) يعرف ذلك بالفعل ، وهو الذى وشى به إلى الشيخ الجليل ، والد (همنالينى) ! .. وظل (رامش) لحظات لا يقوى على التطلع إلى وجه (أكشاى) ، بينما استانف هذا حديثه : « أفتظن أن وفاة أبيك المفاجئة قد جعلتك حراً تفعل ما تشاء ؟ .. عندما كانت رغبته ... » .

وهناك قطع عليه (رامش) استرساله وقد نفد صبره : (اسمع يا أكشاى بابو .. إذا كان لديك أى موضوع آخر تتطوع فيه بنصحى ، فإلى بهذا النصح وسوف أنصت لك .. أما علاقتى بوالدى ، فليست من شأنك فى شىء !» .. فقال (أكشاى) : « حسن جداً .. لندع هذه الناحية .. إنما الذى أبغى معرفته هو : هل تعتزم الزواج من (همنالينى)؟ وهل أنت فى وضع يمكنك من هذا ؟ ! » .. وكانت هذه الطعنات المتتالية أكثر من أن يتحملها « رامش » ، رغم هدوء طبعه ، فقال : « اسمع ، يا أكشاى بابو .. قد تكون صديقاً لأنادا بابو ، ولكنى وإياك لم نبلغ من الود حداً يسمح لك بأن تتكلم بهذه الطريقة .. فهلا تكرمت وتحولت عن هذا الموضوع ؟ » .

أكشاى : « إذا كان تحولى عن الموضوع معناه إغفال المسألة كلها ، وتركك تمضى — إلى ما لا نهاية — فى الاستمتاع بالحياة التى تحياها ، دون ما حساب للعواقب ، لما ملكت أن أقول شيئاً .. ولكن المجتمع ليس مجرد ساحة صيد لمن هم على شاكلتك ممن لا يحفلون

بالعواقب . وربما كانت لديك أسمى الحوافز ، كما أنك قد لا تحفل مطلقاً بما تقوله الدنيا عنك ، ولكنك جدير بأن تدرك أنك معرض لأن تدعى إلى تقديم حساب عن تلاعبك — دون وازع — بفتاة فى مثل وضع (همنالينى) .. هناك من سوف يناقشونك الحساب ، وإذا كنت تعتزم أن تثير فضيحة حول قوم تحترمهم ، فامض فيما أنت ماض فيه من مسلك ! » .

رامش : « أشكر لك نصيحتك ، وسأقرر — حين يحلو لى — المسلك الذى ينبغى على أن أسلكه ، بمحض رغبتى ، فلا تشغلن بالك بالأمر .. ولا داعى لأن نمضى فى هذا الحديث ! » .

أكشاى : « يسرنى أن أسمع هذا يا رامش بابو ، فشد ما يريح بالى أن أعرف أنك ستفكر فى الأمر ، وتقرر مسلكاً تنتهجه ، وإن كان خليقاً بك أن تسرع فى هذا التفكير ! .. على أننى لن أمضى فى مناقشتك فى هذا الصدد ، فاغفر لى أن قطعت عليك تدريباتك الموسيقية ، وأرجو أن تعود إليها ، فإننى لن أثقل عليك ! » .. وأسرع (أكشاى) منصرفاً !

على أن (رامش) لم يعد يشعر بميل إلى العزف ، وإنما استلقى على حشية ، وقد عقد راحتيه تحت رأسه ، وغفل عن الزمن ، وعن الساعات وهى تنصرم تباعاً . ولا يعلم غير السماء أى قرار انتهى إليه ، ولكنه ولاشك رأى لزاماً عليه أن يسعى لفوره إلى بيت جاره ، وأن يحتسى قدحين من الشاى !

* * *

● وهتفت (همنالينى) حين رأته : « أمريض أنت يا رامش بابو ؟ » .. فأجاب رامش : « ليس هناك ما يستحق أن تشغلى به بالك ! » .. وهنا تدخل (أنادا بابو) قائلا : « لابد أن جهازك الهضمى يعانى بعض الاختلال .. إنه مجرد اضطراب فى الصفراء .. ألا جرب قرصاً واحداً من الأقراص التى أتناولها ! » .. فابتسمت (همنالينى) وقطعت عليه حديثه قائلة : « حسبك يا أبت ! .. إنك تريد من كل أصحابك أن يتناولوا هذه الأقراص ، مع أننى لم أر واحداً منهم قد أفاد منها ! »

أنادا : « بل الأرجح أن أحداً لم يضار منها .. لقد تبينت بالتجربة أن أى نوع آخر من الأقراص التى تعاطيتها لم يفدنى قدر ما أفادتنى هذه ! » .

همنالينى : « إنك ما شرعت مرة فى تناول نوع جديد من الأقراص إلا واعتبرته — خلال الأيام الأولى — خير الأنواع ! » .

أنادا : « أنكم لا تصدقون ما أقول .. على رسلكم إذن ! .. ألا اسألوا (أكشاى) عما إذا كان قد انتفع من علاجى أو لم ينتفع ! » .

وتحولت (همنالينى) عن الموضوع ، لمجرد ذكر (أكشاى) .. غير أن (الشاهد) أقبل فى تلك اللحظة ، وكأنما ساقه القدر ليؤدى الشهادة دون إيعاز ، إذ كان أول ما قاله ، مخاطباً (أنادا بابو) : « عليك اليوم أن تعطينى أحد تلك الأقراص ، فقد أفادتنى أعظم فائدة ، وإنى لأحس اليوم بأنى على خير ما يرام ! » .

فرمق (أنادا بابو) ابنته فى انتصار وزهو !

الفصل الثانى عشر

● كان (أنادا بابو) على استعداد لأن يحبذ انصراف (أكشاى) بمجرد تناوله القرص ، ولكن (أكشاى) — من ناحيته — لم يبد أية رغبة فى التعجيل بالانصراف ، بل ظل يرمق (رامش) من ركن عينه فى غير رضى . ولم يكن (رامش) حريصاً على أن يراقب نظراته ، ولكنه — مع ذلك — لم يتمالك أن لاحظ تلك النظرات غير الراضية ، فأحس بأنها تقض هناءته !

وكانت (همنالينى) تتحدث — طيلة الوقت — عن الرحلة المرتقبة إلى (جوبولبور) ، إذ كان موعدها قد اقترب . وكانت قد عقدت عزمها على أن تنتهز أول زيارة لرامش ، كى تحدثه عن المشروعات التى رسمتها لعطلة العيد ، ولتتشاور معه بصدد الكتب التى يحملانها معهما ليقرآها فى أوقات فراغهما ، ومن ثم فإنهما كانا قد اتفقا على أن يبكر (رامش) فى الحضور ، فإن تأخره حتى موعد الشاى ، يترك مجالا لأكشاى — أو أى زائر آخر تسوقه المصادفة — كى يعكر عليهما حديثهما الخاص ! .. ولكن الظروف شاءت أن يتأخر (رامش) فى الحضور .. بل لقد تأخر عن موعده المألوف فى كل يوم ، فلما وصل أخيراً ، بدا مشغول البال ، مهموماً . وأحست (همنالينى) باكتئاب لمنظره ، فتحينت الفرصة لتقول له بصوت خافت : « لقد تأخرت اليوم كثيراً ! » .. وبدا (رامش) شارد الفكر ، إذ مضت هنيهة قبل أن يجيب قائلا : « أجل .. أظننى كذلك » .

وكانت (همنالينى) قد بذلت عناية خاصة بمظهرها — فى ذلك

اليوم — مرتقبة تبكيره كما اتفقا . فنسقت شعرها ، وتأنقت فى ملبسها قبيل العصر ، ثم جلست تنتظره ، وعيناها لا تتحولان عن الساعة : وراحت تعلل نفسها بأن ساعة (رامش) متأخرة عن الوقت ، وأنه لن يلبث أن يفد . فلما خاب فألها ، انتقلت إلى جوار النافذة ، وانهمكت فى التطريز وهى تغالب القلق ، وزاد الطين بلة ، ذلك الوجوم الذى كان يلوح على (رامش) عند وصوله ، والذى شغلت به عن محاولة تبرير تأخره ، وخيل إليها أنه نسى تماماً وعده لها بالحضور مبكراً . ومن ثم كانت فترة تناول الشاى ، فى ذلك اليوم ، من أثقل الأوقات على نفس (همنالينى) . فلما قدر لها أن تنتهى أخيراً ، بذلت الفتاة جهداً فى تبديد الشرود عن بال (رامش) .. وكانت ثمة كتب على مائدة لصق الحائط ، فحملت هذه الكتب ، متظاهرة بنقلها إلى خارج الغرفة .. وأيقظت حركتها (رامش) من اكتئابه ووجومه ، فإذا هو إلى جوارها ، يتساءل : « إلى أين تنقلين هذه الكتب ؟ .. ألم نتفق على أن ننتقى اليوم ما سوف نأخذه معنا منها ؟ » .

وارتجفت شفتا (همنالينى) ، وقعت — بعناء — الدموع التى وثبت إلى عينيها ، ثم قالت فى صوت مرتجف : « لا بأس .. ليس بوسعنا أن نقوم الآن بالاختيار ! » .. وأسرعت صاعدة إلى مخدعها ، فألقت بالكتب على أرض الغرفة ! .. وزاد فرارها هذا من غم (رامش) وكربه . وقال (أكشاى) وهو مغتبط فى قرارة نفسه : « إنك لا تبدو فى حال طيبة يا رامش بابو » ، فغمغم (رامش) بكلمات لم يتبينها أحد .. ولكن (أنادا بابو) التقط ما ذكره (أكشاى) عن

صحة (رامش) ، وقال : « لقد حدست هذا — فى نفسى — حين رأيته ! » .. وهنا استطرد (أكشاى) قائلا ، وهو يضحك فى قرارة نفسه : « إن أمثال رامش بابو يرون من مظاهر الضعف أن يولوا صحتهم أى اهتمام .. أنهم يعيشون فى آفاق الفكر ، فإذا اختل جهازهم الهضمى ظنوا أن من المشين لهم أن يتحروا السبب ! » .

وشرع (أنادا بابو) فى إلقاء محاضرة عن انتظام الهضم ، وكيف أنه ضرورى للفيلسوف ، كما هو لأى إنسان آخر . وجلس (رامش) بين الرجلين ، متحملا المضض من حديثهما فى صمت . وما لبث (أكشاى) أن قال : « نصيحتى لك يا رامش بابو أن تتناول قرصاً من أقراص (أنادا بابو) ، وأن تأوى إلى الفراش مبكراً ! » ، فقال (رامش) باقتضاب : « بل أريد أن أتحدث إلى (أنادا بابو) فى أمر أنتظر الفرصة لمفاتحته فيه ! » .. وهنا نهض (أكشاى) عن مقعده ، واستأذن من رب الدار فى الانصراف ، قائلا : « عجباً لك ! .. كان خليقاً بك أن تنبئنى مبكراً أن (رامش بابو) يجلس الساعات وهو يكتم ما بنفسه ، ثم يلقيه على رأس المرء بعد فوات الأوان ! » .

وما أن خرج ، حتى ثبت (رامش) بصره على مقدمة حذائه ، وشرع يقول : « لقد كان من حظى يا (أنادا بابو) أن حظيت بالتردد على دارك ، وبأن أعامل كفرد من الأسرة .. وليس بوسعى أن أبين لك مدى اعتزازى بهذا ! » .. فأجاب (أنادا بابو) : « هـذا صحيح ، فأنت صديق ابنى (جوجن) ، ومن الطبيعى أن نعاملك كأخ له ! » .. وأحس (رامش) بشىء من الارتباك ، كراقص بدأ فى الرقص ثم

نسى الخطوة التالية ، فقال (أنادا بابو) يسرى عنه الحرج : « الواقع إننا المحظوظون ، إذ ظفرنا بشاب مثلك يا رامش نعتبره ابناً لنا ! » .. ولكن هذا لم يلهم (رامش) شيئاً ، فاستطرد (أنادا بابو) قائلا : « لعلك أدركت أن الأقاويل أصبحت تقرن اسمك باسم (همنالينى) .. والناس يقولون أن على الفتاة أن تختار أصدقاءها فى حذر فائق ، إذا ما أدركت سن الزواج . ولكننى أرد على ذلك قائلا : « إننى أثق برامش كل الثقة ، فهو رجل ، وما أحسبه يغرر بنا ! » .

رامش : « إنك تعرف كل شىء عنى يا أنادا بابو ، فإذا رأيتنى أهلا لهمنالينى ، ف ... » .

أنادا : « لا تزد .. الواقع أن ذهنى اتجه إلى هذا بالفعل ، ولولا أنك كنت فى حداد على أبيك ، لفاتحتك أنا فى الأمر .. أما الآن ، فلم يعد ثمة داع لإرجاء الموضوع يا بنى .. إن الناس يتقولون ، ولابد لنا من أن نقضى على مثل هذه التقولات فى أقرب وقت ممكن .. ألا ترى هذا ؟ » .

رامش : « الرأى رأيك .. على أن لابنتك القول الفصل فى هذا ، بطبيعة الأمر » .

أنادا : « هذا حق ، ولكنى أعتقد أننى أعرف ما سوف يتجه إليه رأيها .. ولسوف نبحث الأمر فى صباح غد ، على أية حال ، ونتخذ فيه قراراً حاسماً » .

رامش : « أخشى أن أكون قد استبقيتك طويلا ، فيحسن بى الآن أن أستأذن فى الانصراف » .

أنادا : « بل ابق لحظة .. ألا ترى من الخير أن يتم القران قبل رحيلنا إلى جوبولبور ؟ » .

رامش : « يخيل إلى أن المدة الباقية لا تتسع ! » .

أنادا : « صحيح أنه لم يبق أمامنا سوى عشرة أيام، ولـكن فى وسعكما أن تتزوجا فى يوم الأحد القادم ، فيظل لدينا يوم أو يومان لنستعد للرحيل . ولعلك تدرك يا رامش أننى لا أستحثك على العجلة استغلالا لموقفك ، ولكنى فى الواقع أتعجل الأمر ، حتى أتفرغ للاهتمام بصحتى ! »

وأقر (رامش) قوله ، وابتلع حبة من أقراص (أنادا بابو) ، ثم انصرف !

الفصل الثالث عشر

● كانت عطلة مدرسة (كمالا) قد اقتربت ، ولكن (رامش) اتفق مع الناظرة على أن تبقى الفتاة بالمدرسة خلال تلك العطلة . وفى الصباح التالى لحديثه مع (أنادا بابو) ، استيقظ مبكراً ، وذهب إلى المحكمة ، وما أن انتهى من قضاياه ، حتى سلك إحدى الطرق غير المأهولة ، المفضية إلى (الميدان) .. أهم ساحات (كلتكا) . وواصل تفكيره أثناء مشيه ، فانتهى إلى أن من الخير أن ينبئ (همنالينى) بكل شىء عن (كمالا) قبل الزواج ، على أن يشرح الموقف بأسره لكمالا فيما بعد . وبذلك يتسنى له تفادى أى سوء تفاهم . بل أن (كمالا) لن تلبث أن تجـد فى (همنالينى) صـديقة ، وأن توافق على الإقامة مع الزوجين الشابين . وتوقع أن تثير إقامة ثلاثتهم معاً بعض الأقاويل ، إذا استقروا بين من يعرفونهم ، ومن ثم قرر (رامش) أن ينزح مع

الشابتين إلى مدينة (حظر يباغ) ، وإن يمارس المحاماة هناك .

وما أن وصل (رامش) إلى الحى الذى يقيم فيه ، حتى اتجه إلى دار (أنادا بابو) ، فصادف (همنالينى) على السلم . وكان مثل هـذا اللقاء – فى الظروف العادية – فرصة ينتهزانها ليندمجا فى حديث ودى . أما فى هذه المرة ، فقد تضرج وجه (همنالينى) ، وأشرقت على وجهها بسمة خفية كأولى خيوط الفجر ، ثم أسرعت بالانسحاب وهى تغض بصرها ! .. ورجع (رامش) إلى مسكنه ، وراح يجرى أصابعه على معزفه الصغير ، محاولا أن يوقع اللحن الذى دربته (همنالينى) على عزفه . ولكنه مالبث أن مل العزف ، فتحول إلى أحد دواوين الشعر . ولكنه أحس بأن الشعر الذى يرقى إلى آفاق غرامه السامية لم يخلق بعد ! .. كذلك خيل لهمنالينى – فى ذلك النهار – أنها تطير غبطة . ولم يحن منتصف النهار ، حتى كانت قد فرغت من أعمالها المنزلية ، فاعتكفت فى مخدعها وانصرفت إلى التطريز والحياكة ، وقد تألق محياها الوادع بإشراقة من هناءة روحية شملت كل كيانها وكأنما اطمأنت إلى مصيرها فى الحياة !

وقبل موعد الشاى المعتاد بفترة طويلة ، طرح (رامش) عنه ديوان الشعر ، وتحول عن معزفه الصغير ، وأسرع إلى دار (أنادا بابو) . وكانت (همنالينى) – فى الظروف العادية – تخف إليه دون ما تلكؤ . ولكنه ألفى الغرفة خالية ، فى عصر ذلك اليوم ، إذ كانت (همنالينى) قد لزمت مخدعها . ومالبث (أنادا بابو) أن أقبل واستقر فى مجلسه المألوف من مائدة الشاى . وظل (رامش) يتلفت إلى الباب فى قلق ..



اتجه الى دار (أنادا بابو) ، فصادف (همنالينى) على السلم ، وكان مثل هذا اللقاء ـ فى الظروف العادية ـ فرصة ينتهزانها ليندمجا فى حديث ودى ..

وانبعث وقع قدمين ، ولكنهما كانا قدمى (أكشاى) الذى بادر يهنىء (رامش) فى ود بالغ ، هاتفاً : « أهلا يا رامش بابو .. لقد ذهبت إليك فى مسكنك ! » .. وخامر (رامش) شيء من القلق ، ولكن (أكشاى) ضحك قائلا : « ليس ثمة ما يزعج يا رامش بابو ، إذ لم أكن أنتوى سوى كل خير .. فليس من شك فى أن من حق أصدقائك أن يهنئوك بمناسبة النبأ الطيب .. وهذا ما دعانى لزيارتك » !

ونبه هذا القول (أنادا بابو) إلى غياب (همنالينى) ، فناداها ، ولكنه لم يتلق جواباً ، ومن ثم صعد إلى الطابق العلوى يبحث عنها .. وصاح بها : « ما هذا يا هيم (اسم التدليل لهمنالينى) ؟ ... ألا تزالين عاكفة على أعمال حياكتك ؟.. إن الشاى معد ، و (رامش) و (أكشاى) هنا » .. فقالت وقد تضرجت وجنتاها بحمرة خفيفة : « أرجو أن ترسل لى الشاى هنا يا أبت ، إذ لابد لى من أن أفرغ مما فى يدى ! » .

ـ هكذا أنت دائماً يا (هيم) !.. ما أن تبدى اهتماماً بشيء ، حتى تنسى كل ما عداه . فعندما كنت تتأهبين للامتحان ، لم تكونى ترفعين أنفك عن كتابك . وها أنتذى تنصرفين الآن إلى الحياكة ، فتأبين أن تفعلى أى شيء آخر . لا ، لا .. هذا لا يليق مطلقاً ! .. هيا ! .. لا بد أن تهبطى فتتناولى الشاى معنا ! » .

وأوشك أن يجرها جراً على درجات السلم ، حتى لانت أخيراً . واتجهت إلى مائدة الشاى مباشرة ، وتظاهرت بالانهماك فى صبه فى الأقداح ، دون أن ترفع بصرها لتحيى الضيفين ، فهتف بها (أنادا بابو) : « ما هذا الذى تفعلينه يا (هيم) ؟ لماذا تضعين سكراً فى قدحى

وأنت تعلمين أننى لا أتناوله إطلاقاً ؟ » . وضحك (أكشاى) وبدأ يمازحها قائلا : « إنها لا تستطيع أن تكبح سخاءها اليوم ، فهى توزع الحلوى على كل إنسان ! » .. ولم يطق (رامش) أن يسمع (أكشاى) يرضى روحه الساخرة على حساب (همنالينى) ، فقرر أن يحذف اسمه من قائمة أصدقائهما بمجرد زواجهما !

وبعد أيام قلائل ، كانت مائدة الشاى تجمعهم مرة أخرى ، حين قال (أكشاى) : « خليق بك أن تبادر إلى تغيير اسمك يارامش بابو » .. على أن تظرفه المتكلف لم يزد (رامش) إلا كراهية له ، فسأله فى جفاء : « ولماذا ؟ » ، فقال (أكشاى) وهو يبسط أمامه إحدى الصحف : « إليك النبأ .. لقد أوعز طالب يدعى (رامش) إلى طالب آخر بأن يؤدى عنه الامتحان ، منتحلا شخصيته ، وبذلك قدر له أن ينجح ، ولكن أمره افتضح فى النهاية ! » . وكانت (همنالينى) تدرك أن (رامش) ليس سريع البديهة فى الرد على الدعابات الواخزة ، فآلت على نفسها أن تتولى الرد . ومن ثم كظمت غيظها ، واصطنعت اللطف وهى تقول : « إذا كان هذا قياساً ، فخليق بكل (أكشاى) أن يكون نزيل السجون ! » .. وصاح (أكشاى) : « واهاً لك ! .. أحاول أن أقدم نصيحة ودية ، فإذا بك تعتبرينها إهانة . حسناً ، سأفضى إذن بما عندى .. إنكم لتعرفون أن أختى الصغرى (سارات) ، تتردد على المدرسة العليا للبنات . ولقد جاءتنى ليلة أمس قائلة : « أتعرف أن زوجة (رامش بابو) فى مدرستنا ؟ » ، فقلت لها : « يالك من غبية ! .. أو تظنين أن ليس فى الدنيا من (رامش) سوى صديقنا ! » . وإذ ذاك

قالت : « أيا كان ذلك الشخص ، فإنه غير حقى بزوجته .. إن كل الفتيات سيرحلن إلى أهلهن فى عطلة العيد ، ولكنه اعتزم أن يبقى زوجته بالمدرسة . يا للمسكينة ! .. إنها لا تكف عن البكاء ! » .. عندئذ قلت لنفسى : « هـذا لايصـح .. كم من أناس خليقون بأن يظنوا ما ظننته (سارات) بسبب الاسم ؟ » .

وقهقه (أنادا بابو) قائلا : « الحق أنك مجنون يا أكشاى ! .. كيف يغير (رامش) اسمه لمجرد أن (رامش) آخر ترك زوجته تبكى فى المدرسة ؟ » .. غير أن (رامش) امتقع فجأة ، وأسرع يغادر الغرفة ، فصاح (أكشاى) : « ماذا جرى يا رامش بابو ؟ .. إلى أين تذهب ؟ .. هل أسأت إليك ؟ ما أظنك تؤول قولى على أننى أرتاب فيك ! » .. وهتف (أنادا بابو) : « لماذا كل هذا ؟ » .. ولدهشته ، انبثقت الدموع من عينى (همنالينى) ، فصاح : « ما هذا يا (هيم) ؟ .. ما الذى يبكيك ؟ » .. قالت منهنهة : « ما كان يليق بأكشاى بابو أن يقول هذا يا أبت ! .. كيف يهين ضيفاً فى دارنا ؟ » .. فقال الشيخ : « إنما كان (أكشاى) يمزح ، فلماذا تحملان كلامه على هذا المحمل؟ » .. فقالت (همنالينى) وهى تندفع صاعدة إلى غرفتها : « إننى لا أطيق هذا اللون من المزاح ! » .

* * *

● وكان (رامش) قد حرص — منذ عودته إلى (كلكتا) — على أن لا يدخر وسعاً للبحث عن زوج (كمالا) ، فكتب إلى خالها ، المدعو (تاريني تشاران) ؛ وقد وافاه الجواب فى اليوم التالى للحادث

السالف ، إذ كتب إليه (تارينى تشاران) يقول إنه لم يسمع أى نبإ عن (نالينا كشا) — زوج (كمالا) — منذ النكبة التى حاقت بموكب العرس : وإذ كان (نالينا كشا) طبيباً يمارس مهنته فى (رانجبور) ، فإن (تارينى تشاران) تحرى عنه هناك ، ولكنه لم يعثر على أى نبأ عنه ، فضلا عن أنه لم يكن يدرى شيئاً عن موطن أسرته .. ومن ثم استبعد (رامش) أن يكون زوج (كمالا) على قيد الحياة !

وتلقى (رامش) فى اليوم ذاته عدداً من الخطابات . فقد سمع بعض أقاربه نبأ زواجه المرتقب ، فكتبوا يهنئونه . وطالبه بعضهم بأن يقيم وليمة حافلة ، بينما عتب عليه البعض الآخر — على سبيل المزاح — أن كتم عنهم أنباءه طوال هذه المدة . وفيما كان يطلع على هذه الرسائل ، أقبل خادم من لدن (أنادا بابو) ، يحمل إليه رسالة ، فخفق قلبه فى عنف ، إذ تبين الخط الذى كتبت به ! .. كان خط (همنالينى) . وقال لنفسه : « لم يكن يسعها سوى أن ترتاب فى أمرى ، بعد الذى قاله (أكشاى) .. وهاهى ذى قد كتبت إلى لتطمئن ! » .. وفض الخطاب ، فإذا به جد موجز : « كان أكشاى بابو سمجاً إلى درجة فظيعة بالأمس . لماذا لم تأت فى هذا الصباح ؟ لقد ارتقبتك . لماذا تحفل بما قال أكشاى بابو ؟ إنك لتعلم أننى لا أعير حماقته أذناً . لابد أن تبكر فى الحضور اليوم، ولن أتولى حياكة شىء ، فى انتظارك ! » .. ولمس (رامش) خلال هذه السطور القلائل مدى الألم الذى عاناه قلب (همنالينى) الرقيق ، فترقرقت الدموع فى عينيه . لقد كانت تصبو من صميم فؤادها إلى أن تريق من عواطفها بلسماً على جرحه ، ولابد أن هذه الرغبة لازمتها

طوال ليلها ، فلما لم يتح لها إرضاؤها فى الصباح ، لم تعد تقوى على كبح لهفتها ، فنفثتها فى هذه الرسالة .. كان الأمر جلياً !

* * *

● وكان قد رأى فى أمسه أن لابد له من أن يصارح (همنالينى) بحقيقة موقفه فوراً ، ولكن الحديث الذى صدر عن (أكشاى) جعل السبيل إلى المصارحة شاقاً ، لأنها ستبديه فى مظهر المجرم الذى ضبط متلبساً ، فحاول التماس المبررات ! .. فضلا عن أنها ستعزز موقف (أكشاى) ، وفى هذا هوان لرامش ! .. وخطر له أن (أكشاى) حدس — ولابد — أن زوج (كمالا) رجل آخر يحمل اسم (رامش) ، وإلا لما سكت كل هذه المدة ، ولما اقتصر على إثارة الشكوك ، بل لعمد إلى إعلان الأمر من فوق قمم البيوت ! .. ودعت هذه الخواطر كلها (رامش) إلى أن يسعى ليتجنب المتاعب مؤقتاً ، بدلا من أن يخوضها !

وإذ بلغ هذا القرار ، حمل إليه البريد رسالة جديدة ، ما أن فضها حتى ألفاها من ناظرة مدرسة البنات ، وقد كتبت تقول له أن (كمالا) حزنت أبلغ الحزن لما قرره من بقائها فى المدرسة خلال العطلة ، ومن ثم فإن إدارة المدرسة لا يسعها أن تتحمل مسئولية بقائها ، وسترسلها إليه ، فعليه أن يستقبلها فى داره ! .. وكان موعد هذه العودة يوم السبت ، فى حين أن زواجه كان مقرراً يوم الأحد ! .. وقطع عليه حبل تفكيره فى هذه الأزمة ، صوت (أكشاى) وقد أقبل يقول : « ألا اصفح عنى يا رامش بابو ! .. لو خطر لى أنك ستعتبر مثل هذه الدعابة العادية إهانة ، لآثرت الصمت . إن الناس لا يكرهون المزاح

إلا إذا انطوى على شيء من الحقيقة ، أما وهذه الدعابة لا تقوم على أى أساس ، فلست أدرى ما الذى ساءكم جميعاً .. إن (أنادا بابو) ينحى على باللوم منذ قلتها ، و(همنالينى) لا تخاطبنى .. وقد ذهبت لزيارتهما فى هذا الصباح فبارحت هى الحجرة بمجرد دخولى .. لماذا يتملككم كل هذا الغضب منى ؟ » .

— لست فى حل من أن أوضح لك الأمر فى الوقت الحاضر ، فأرجو أن تعفينى .. فضلا عن أن لدى بعض المشاغل .

— آه !.. تدابير العرس !.. لعل رجال الموسيقى يطلبون بعض أجرهم مقدماً .. أراك مشفقاً على وقتك من أن يتبدد ، لذلك لن أثقل عليك .. فى رعاية الله .

وما أن انصرف (أكشاى) ، حتى أسرع (رامش) إلى دار (أنادا بابو) فإذا (همنالينى) فى غرفة الجلوس تنتظر ، وقد توقعت أن يبادر إلى هذه الزيارة المبكرة . وكان القماش الذى تطرزه ملقى على المائدة ، بينما استقر المعزف الصغير على مقربة منها .. كانت تتطلع إلى أن تنعم ببعض الموسيقى ، ولكنها فى الواقع لم تكن تبغى النوع العادى من الموسيقى .. فهناك نوع آخر من الموسيقى لا تسمعه سوى الروح .. وقد تاقت إلى هذا النوع ! .. وتراقصت على شفتيها ابتسامة واهنة حين دخل (رامش) الحجرة ، ولكن هذه الابتسامة تلاشت حين بادرها قائلا : « أين أبوك ؟ » .

— فى حجرته . لماذا ؟ أتريده فى أمر ما ؟ لن يلبث أن يهبط لتناول الشاى .

رامش : « لابد لى من أن أراه فوراً ، لأمر هام لايحتمل إرجاء ! »

همنالينى : « حسن جداً .. ستجده فى غرفته » .

وخرج (رامش) . وساءلت الفتاة نفسها : أحقاً هو أمر هام ، عاجل ؟ .. أمر يرجأ من أجله كل ما عداه ؟ .. حتى الحب يضطر إلى الانتظار ، ريثما يفرغ من هذا الأمر ؟ ! .. وخيل لهمنالينى أن صباح الخريف المشرق يتنهد فى أسى ، وهو يرى الأبواب الذهبية توصد دون ذخيرته من الفرح والسرور ! .. ونحت مقعدها بعيداً عن المعزف الصغير ، وجلست إلى المائدة تطرز .. ولكن إبرة أخرى ، خفية ، راحت تخز قلبها .. واستغرق (رامش) فى مهمته أمداً طويلا ، فبدأ (الحب) يقلق ويتضرع !

الفصل الرابع عشر

● عندما دخل (رامش) غرفة (أنادا بابو) ، وجد رب البيت مستسلماً إلى إغفاءة فى مقعده ، وصحيفته على وجهه . على أنه سرعان ما استيقظ مجفلا حين سعل (رامش) ، فأشار إلى الصحيفة ، وشرع يحدث ضيفه عما ورد فيها من أنباء ازدياد الوفيات بسبب انتشار وباء الكوليرا فى المدينة .. ولكن (رامش) اتجه إلى هدفه مباشرة ، فقال : « إننى أرجو تأجيل عقد القرآن لبضعة أيام ، إذ لدى مهمة عظيمة الأهمية ! » .

وطارت أنباء الوفيات فى (كلتكا) من رأس (أنادا بابو) أمام هذا التصريح المثير للدهشة ، فحملق فى (رامش) متسائلا :

« ما الذى تعنيه يا رامش ؟ .. لقد أرسلت الدعوات ! » .

— تستطيع أن تكتب اليوم إلى المدعوين تنبئهم بأن الزواج أرجئ إلى يوم الأحد بعد التالى .

— إنك تذهلنى يا رامش ! .. إن إرجاء أمر كهذا ليس فى سهولة إرجاء أية قضية فى المحكمة .. فليس من الميسور أن تطلب التأجيل وتجاب إليه لمجرد أنه يروق لك . ثم ما هذا العمل العظيم الأهمية الذى يدعوك للتأجيل ؟ !

رامش : « إنه جد هام وعاجل ، وليس بوسعى إرجاؤه ! »

وتهالك (أنادا بابو) فى مقعده كشجرة أسقطها إعصار ، ثم قال : « ليس بوسعنا نحن إرجاء القران ! .. يالفكرتك من بديعة .. رائعة ! .. حسناً ، بوسعك أن تفعل ما يحلو لك ، وإنى أترك لك أن توضح الأمر لأولئك الذين دعوناهم . وإذا سألنى أحد ، فسأقول له : لا أدرى شيئاً عن الأمر . إن الزوج أدرى بشئونه ، وسيخبركم عن الموعد الذى يروق له أن يتزوج فيه ! » .

وظل (رامش) يحدق فى الأرض ، بينما استطرد (أنادا بابو) قائلا : « هل فاتحت (همنالينى) فى الأمر ؟ » .. فأجاب (رامش) : « لا .. إنها لم تعرف بعد شيئاً عنه ! » .

أنادا : « بل يجب أن تعرف فوراً .. فإن الزواج يعنيها كما يعنيك ! »

رامش : « رأيت أن أنبئك أولا » .

فصاح (أنادا بابو) منادياً : (هيم ! .. هيم !) . وأقبلت (همنالينى) قائلة : « نعم يا أبت ! ! » ، فقال لها : « إن رامش يقول إن لديه عملا

هاماً ، ووقته لا يتسع للزواج فى الآونة الحاضرة ! » .. وامتقع وجه (همنالينى) ، واتجهت عيناها إلى وجه (رامش) فى تساؤل . وما كان أى مجرم فوجئ ملطخ اليدين بالدم ، ليشعر ببعض ما خالج (رامش) إذ ذاك من شعور ! .. ما توقع أن يزجى النبأ إلى (همنالينى) بمثل هذا الأسلوب الجاف ، فحدثته مشاعره بمدى الصدمة التى ترتبت على مثل هذا الإعلان غير المتلطف . على أن السهم لا يرتد إلى قوسه إذا ما انطلق ! .. وقد أيقن (رامش) أن السهم أصاب قلب (همنالينى) . ولم يعد من سبيل إلى تخفيف الحقيقة القاسية ، إذ لم تكن هناك حيلة إزاء الواقع الذى يفرض تأجيل الزواج ! .. لقد كان لدى (رامش) عمل هام ، يأبى أن يفضى به .. هذه هى الحقيقة ، فكيف تصاغ فى قالب ألطف ؟ .. وما لبث (أنادا بابو) أن التفت إلى ابنته قائلا : « حسن .. الشأن شأنكما ، وعليكما أن تنظرا فيما ينبغى فعله ! » .

ورفعت (همنالينى) عينيها بنظرة تشبه شعاع الشمس الغاربة ، حين يترامى على صفحة سماء مكفهرة ، وقالت : « لست أدرى عن الأمر شيئاً يا أبت ! » ، وبادرت مغادرة الحجرة ، فالتقط (أنادا بابو) صحيفته ، وتظاهر بالانصراف إلى المطالعة ، ولكنه فى الواقع كان يقدح ذهنه . وظل (رامش) ساكناً ، دقيقة أو اثنتين ، ثم نهض فجأة وخرج . وما أن ولج قاعة الجلوس الكبيرة ، حتى ألفى (همنالينى) تقف عند النافذة ، وهى تحدق فى الطريق صامتة — كان ثمة سيل من الآدميين يتدفق فى كل شارع وحارة ، تدفق النهر إذا ما فاض ، وقد أشرقت وجوه الناس جميعاً ، ارتقاباً لعطلة العيد .

وتردد (رامش) إذ فكر فى الوقوف بجانبها . وجمد لحظة عند الباب وأخذ يتأمل الفتاة الواقفة بلا حراك ، يلفها ضوء الخريف المنساب من النافذة التى قامت كإطار أحاط بصورة قدر لها أن تلصق بذاكرته فلا تغيب عنها ! .. كانت أدق ملامحها واضحة : قوس خدها الرقيق ، وخصلات شعرها المعقوص ، والشعيرات الخفيفة المحيطة بعنقها ، وبريق القلادة الذهبية ، وانسدال ثوبها فى أناقة عن كتفها اليسرى .. كل هذه الدقائق طبعت على صفحة ذهنه السقيم آثاراً لا تمحى ! .. وما لبث أن سعى نحوها وئيداً .. ولكنها لم تفطن إلى حبيبها ، بل راحت تمعن فى تأمل المناظر التى كانت تتوالى على الطريق . وارتجف صوت (رامش) وهو يبدد الصمت قائلا : « أرى لزاماً على أن أسالك صنيعاً ! » .

وأحست (همنالينى) برنة الألم فى صوته ، فالتفت إليه ، وهتف (رامش) : « لا تفقدى إيمانك بى ! .. طمئنينى إلى أنك لن تفقدى الثقة فى .. إننى لأشهد السماء على أنى سأظل أهلا لثقتك ! » .. وكانت تلك هى المرة الأولى التى يغفل فيها كل تكلف فى الحديث تقتضيه المجاملة ! .. ولم يجسر على أن يضيف كلمة إلى ما قال ، وإنما نشر الدمع غلالة على مقلتيه ، فتأملته (همنالينى) فى إشفاق . وحين تفرست فى وجهه ، ذاب قلبها وانساب دمعها على وجنتيها . وهكذا التقت نظرات الحبيبين خلال الدمع ، وهما يقفان متجاورين لدى النافذة ، فى عزلة عما حولهما . ومع أنهما لم ينبسا بكلمة ، إلا أن سكينة مطمئنة هبطت على قلبيهما ، فتذوقا فى عذوبتها طعم النعيم !

وبدد (رامش) الصمت بزفرة حرى ، ثم قال : « أفتدرين لماذا

رجوت تأجيل الزواج ؟ » : فهزت (همنالينى) رأسها .. لم تشأ أن تعرف ! .. وعاد (رامش) يقول : « سأنبئك بالقصة كلها بعد زفافنا ! » .. وبعث ذكر الزفاف حمرة واهنة إلى وجنتى الفتاة ! .. كانت (همنالينى) — وهى تتأهب لاستقبال (رامش) ، فى باكورة الأصيل من ذلك اليوم — قد ارتقبت بقلب مغتبط أن تحظى بحديث زاخر .. حديث خافت يتناول مشروعات المستقبل ، ويعرض صوراً مصغرة للسعادة التى تنتظرهما .. وما كانت لتتصور مطلقاً أنهما سيتبادلان فى دقائق قلائل ، العهود الخالدة ، والدموع المراقة ، وأنهما لن يتحدثا ، بل سيقفان جنباً إلى جنب فى صمت ! .. ولا مر بخاطرها ما فى راحة البال ، والثقة المطلقة ، من نعيم للقلب !

وقالت (همنالينى) أخيراً : « يجب أن تذهب إلى أبى فوراً ، فهو ولابد مستاء ! » .. وخرج (رامش) مرتاح الخاطر ، متأهباً لأن يفتح صدره ، غير حافل بأية طعنة قد يحلو للدنيا أن توجهها إليه !

الفصل الخامس عشر

● تطلع (أنادا بابو) فى لهفة وقلق إلى (رامش) ، إذ عاد إلى الغرفة ، فقال الشاب : « إذا أسلمتنى قائمة المدعوين فسوف أكتب لهم جميعاً اليوم عن تعديل التاريخ » .

— إذن ، فأنت مصمم على التأجيل ؟

— أجل ، فليس من حيلة فى ذلك !

أنادا بابو : « حسناً ، اسمع يا بنى .. تذكر أننى أنفض يدى من



الأمر كله .. عليك أن ترتب كل شيء بنفسك . فإني أربأ بنفسي عن أن أجعلها أضحوكة . وإذا كنت تريد أن تجعل من موضوع الزواج لوناً من ألعاب الأطفال ، فليس لرجل فى مثل سنى أن يزج بنفسه فى الأمر . هاك قائمة بأسماء من دعوت . لقد أنفقت مبلغاً كبيراً من المال ، وسيذهب أكثره دون ما جدوى ، ولكنى لن أقبل أن أبدد نقودى هباء ! » .. فأكد (رامش) استعداده لأن يتحمل كافة النفقات ، وأن يقوم بكل التدابير . حتى إذا هم بالانصراف ، قال (أنادا بابو) : « هل استقر رأيك على المكان الذى ستمارس فيه المحاماة بعد الزواج يا رامش ؟ .. ما أظنك ستبقى فى (كلكتا) ؟ » .

رامش : « لا ، بل أرجو أن أوفق إلى مكان ملائم فى الشمال » .

أنادا بابو : « فى الشمال ؟ .. هذه فكرة طيبة .. فلا بأس بمدينة (ايتاواه) مثلا ، إذ أن جوها من أنسب الأجواء للجهاز الهضمى !.. لقد قضيت مرة شهراً فى ربوعها ، فوجدت أن بوسعى أن آكل هناك ضعف ما آكل هنا . ولعلك تدرك يا بنى أن الفتاة هى ابنتى الوحيدة ، وأن أحدنا لن يسعد بعيداً عن الآخر ، وهذا ما يحملنى على أن أسألك أن تختار مقراً يلائم الصحة ! » .

أما وقد أساء (رامش) إليه بالتأجيل ، فقد رأى (أنادا بابو) أن يستغل الفرصة ليملى بعض مطالب تروق له . وما كان (رامش) — فيما اعتراه فى اضطراب البال — ليتردد فى أن يوافق على النزوح إلى أبعد البقاع وأوعرها ، بل إلى أقصى قمة تغيب فى الضباب .. ومن ثم قال : « بديع جداً ، سأنضم إلى محامى إيتاواه ! » .. وخرج بعد أن أخذ قائمة

أسماء المدعوين . وما أن انصرف ، حتى أقبل (أكشاى) ، فعلم من (أنادا بابو) أن (رامش) قد أرجا زواجه أسبوعاً .

أكشاى : « أحق هذا ؟ .. ليس له أن يرجئ ! كيف يفعل والموعد بعد غد ؟ » .

أنادا : « ما كان له أن يفعل ذلك .. إن الناس العاديين لا يقدمون على مثل هذا التصرف ، ولكن كل شيء جائز لديكم يا رجال اليوم ! » .

وتظاهر (أكشاى) بالاستياء والوجوم ، بينما انطلق ذهنه يعمل فى سرعة . ثم قال أخيراً : « إنك تغمض عينيك عن كل الاحتمالات ، حين تخال أنك وجدت زوجاً صالحاً لهمنالينى . خليق بكل أب أن يستوثق من كل أمور الرجل الذى سيعهد إليه بابنته بقية عمرها . ما ينبغى أن تستغنى عن الحذر ، ولو إزاء ملاك يهبط من السماء ! » .

أنادا : « إذا لم يكن شاب — مثل رامش — بمنجى عن الريب ، فليس فى العالم شخص يمكن الركون إليه ! » .

أكشاى : « هل أدلى إليك بسبب للإرجاء ؟ » :

فقال (أنادا بابو) وهو يفرك يديه : « لا ، لم يدل إلينا بسبب . كل ما قاله ، حين سألته ، هو أن لديه عملا هاماً » .. فأشاح (أكشاى) ليخفى ابتسامة خبيثة ، وقال : « إذن ، فلعله كاشف ابنتك بالسبب ؟ » .

أنادا : « أظنه فعل » .

أكشاى : « ألا يحسن بك أن تدعوها وتستوثق منها ؟ » .

فقال (أنادا بابو) : « أجل ! » ، ثم صاح منادياً (همنالينى) ، فلما أقبلت ورأت الشخص الذى كان معه ، تعمدت أن تجلس خلف

أيبها ، بحيث لا يتاح لأكشاى أن يرى وجهها . وسألها (أنادا بابو) :
« هل أبدى لك رامش سبباً لإرجاء الزواج ؟ » .. فهزت (همنالينى) رأسها ، قائلة : « لا ! » .. وعاد يسألها : « أولم تسأليه ؟ » .. فقالت :
« لم أسأله ! » .

أنادا بابو : « ياله من أمر عجيب ! .. ويالكما من زوجين ! .. إنه يأتى فيقول : « إن وقتى لايتسع للزواج » ، فتبادرين قائلة : « لا بأس ، لنتزوج فى أى يوم آخر » .. ثم تهملان الموضوع ! » .

وتظاهر (أكشاى) بالانحياز إلى صف (همنالينى) ، فقال :
« لا تنس أن المرء ينبغى أن لا يلح على شخص يبين بوضوح أنه غير راغب فى إبداء أسبابه ! .. ولو كان السبب مما يمكن الإفضاء به ، لباح لكما به (رامش) من تلقاء نفسه ! » .. واحتقن وجه (همنالينى) غيظاً ، وقالت : « لا أحب أن أسمع رأى طرف ثالث فى هذا الموضوع ، فأنا شخصياً مقتنعة بالأمور فى أوضاعها الراهنة ! » . وأسرعت تغادر الحجرة .

واكفهر محيا (أكشاى) ، ولكنه اغتصب ابتسامة ، وقال :
« هكذا الدنيا .. إذا حاولت أن تؤدى لصديق خدمة ، كان التقريع جزاءك ! .. إن هذا يوضح لك أن الصداقة أمر لا قيمة له . على أننى أرى من واجبى كصديق أن أعرب عن ارتيابى فى (رامش) ، ولو كرهتمونى وأسأتم إلى من أجل هذا .. فليس لى أن أقف مكتوف اليدين إذا رأيت المتاعب تتهددكم .. إنها نقطة ضعف فى نفسى ! .. وعلى أية

حال ، فسوف يحضر (جوجندرا) غداً ، فإذا سمع القصة كلها ، ولم يجد ما يدعوه للقلق من أجل أخته ، فلن أنبس ببنت شفة ! » .

وأدرك (أنادا بابو) أن هذه كانت اللحظة المناسبة – من الناحية النفسية – ليسأل (أكشاى) عما يعرفه من مسلك (رامش) . ولكن الذى يحاول أن يخرق سراً غامضاً ، قد يفتح ثغرة لإعصار يجتاحه هو ! .. وكان الشيخ المسن يكره هذا بطبعه . ومع ذلك ، فإنه لم يتمالك أن قال : « إنك كثير الوساوس يا أكشاى ! .. إذا لم يكن لديك دليل . فلماذا ... ؟ » .. وكان (أكشاى) قديراً على كبح زمام نفسه ، ولكن هذا التعريض أثاره ، فانفجر قائلا : « اسمع يا (أنادا بابو) .. إنك تستفز كل حوافز الشر فى نفسى ! .. إنك توحى بأننى أكن للزوج المرشح لابنتك ضغينة ، وإننى أثير الريب حول رجل برىء . إننى لست من البراعة بحيث أحذق تعليم السيدات الفلسفة ، ولا أزعم لنفسى القدرة على الحديث معهن فى الشعر .. ما أنا إلا إنسان عادى ، ولكننى كنت دائماً محباً ومخلصاً لك ولأسرتك . وإذا لم أكن نداً لرامش بابو فى شىء ، إلا أننى أفخر بأنى ما كتمت عنك شيئاً ما . إننى قادر على أن أتملقك ، وأنال منك ما أطمع فيه ، ولكننى لا أجسر على أن أسرق بيتك .. ولسوف تعرف غداً ما أرمى إليه ! » .

الفصل السادس عشر

● أقبل الليل قبل أن يفرغ (رامش) من إرسال جميع الخطابات . وما لبث أخيراً أن أوى إلى مضجعه ، ولكنه لم يستطع أن ينام . فقد أخذ تياران من الأفكار يتدفقان على ذهنه : أحدهما صاف ، والآخر

عكر .. تماماً كنهرى (الجانجز) و (الجومنا) ! .. واختلط التياران
فأقضا مضجعه ، ومن ثم راح يتقلب يمنة ويسرة لفترة من الزمن . ولم
يلبث أن طرح عنه الغطاء وهب واقفاً ، ثم سار إلى النافذة وأطل خلالها .
كانت المنازل القائمة على أحد جانبي الطريق منزوية فى الظلال ، بينما
كانت زميلاتها القائمة على الجانب الآخر تسبح فى فيض من أشعة القمر
الزاهية . وظل (رامش) واقفاً ، مستسلماً لأفكاره . ونضا عنه أوشاب
الوسط المادى المحيط به ، وما يسود هذا الوسط من كفاح وعدم
استقرار ، فخيل إليه أن نفسه تنطلق محلقة فى عوالم لا نهاية لها
ولا حدود ، حيث الخلود ، والطمأنينة الشاملة ! .. وتمثل فى خياله
رؤى : الميلاد والموت ، العناء والراحة ، البداية والنهاية ، وهى تتوالى
دون انقطاع على مسرح اللانهاية ، على أنغام الموسيقى السحرية اللادنيوية ،
المنبعثة من جوف الصمت والسكون ، دون أن يبدو لموكبها نهاية وراء
أستار هذا المسرح ! .. ومن هذه اللانهاية التى لا نور فيها ولا ظلام ،
أبصر (رامش) بتوأمين عاشقين — رجل وامرأة — يبرزان إلى هذه
الدنيا التى كانت تبدو لعينيه تحت أضواء النجوم ! .. وكان التوأمان :
هو ، و (همالينى) ؟

وصعد الهوينا إلى سطح الدار ، فاتجهت عيناه إلى بيت (أنادا بابو)
لم يكن يعكر السكون أى صوت ، وكان ضوء القمر والظلال يؤلفان
نسيجاً نشراه على جدران البيت ، وتحت الأجزاء البارزة منه ، وفى
زوايا الأبواب والنوافذ وعلى حافة السطح .. ما كان أبهاه من منظر ! ..
كان يقيم فى هذا البيت غير الشامخ — فى قلب المدينة الهاجعة — كائن

رائع ، تقمص فى تواضع جسد طالبة ! .. ولقد كانت المدينة الكبيرة
تزخر بأفواج من أمثال (رامش) .. من محامين ، وطلبة ، وأجانب ،
ومواطنين ، فلماذا اختير هو بالذات ، من بين هذه الأفواج ، ليؤثر
دون الآخرين بالسر القدسى ؟ .. لماذا اختير هو بالذات — دون
سواه — ليقف فى النافذة مع هذه الفتاة ، جنباً إلى جنب ، وفى أشعة
شمس الخريف المحتضرة ، يشهدان معاً الخلائق تطفو فى بحر لا نهاية
له من الأسرار الخفية ، البهجية ؟! .. كانت معجزة ، وأية معجزة ! ..
معجزة غيرت أعمق أغوار نفسه ، كما أبدلت الكون المحيط به !

ومضى يذرع سطح داره ، حتى اكتهل الليل ، وتوارى القمر
خلف البيت المقابل جانحاً إلى المغيب . وجثمت الظلمة على الأرض ،
وإن ظلت القبة الزرقاء تتألق بوهج الضياء الذى عانقها مودعاً ! ..
وارتعشت أوصال (رامش) لفرط البرد ، وداهمه خوف مباغت
اعتصر قلبه .. كان عليه أن يخوض المعركة فى غده .. فى ميدان الحياة ! ..
ولم يتغضن فى وجه السماء خط واحد ينم عن هم ، ولا تثنت غلالة ضوء
القمر تحت أية حركة تشى بالقلق ، ولا عكرت سكون الليل نامة ،
بل إن الحركة الأزلية الدائبة ، التى تنتظم الكون بكواكبه التى لا عداد
لها ، لم تنل من السبات الشامل الذى ران على الوجود ، فإذا كل شىء
قد أخلد إلى راحة مطمئنة ، عدا الإنسان فى كفاحه القلق ! .. فإن
الحياة الإنسانية تمضى فى صراع لا يهن مع الطوارئ غير المرتقبة !
كانت الطمأنينة الأبدية — طمأنينة اللانهاية السرمدية — تقف فى
جانب ، والصراع الأبدى الدنيوى يقف فى الجانب الآخر .. فكيف

تظل الحالان على قيد البقاء ، جنباً إلى جنب ؟! .. وعلى الرغم من العقبات والمتاعب التى كانت تشغل بال (رامش) ، فإنه راح يفكر ويستنتج ، محاولا أن يفسر هذا اللغز الذى استعصى على كل حال ! .. لقد كان من حظه ، أن آثره القدر بلمحة رأى فيها طيف (الحب) فى السكينة السرمدية التى لا حد لها .. السكينة التى تشمل أحشاء الخليقة والكون ! .. وها هو ذا فى جوف الليل يشهد (الحب) فى ارتباطه بالدنيا ، يمضى متعثراً ، ويداس بالأقدام فى زحمة الحياة وتدافعها .. فأى الصورتين تمثل الحقيقة ، وأيهما من نسج الوهم والخيال ؟!

الفصل السابع عشر

● عاد (جوجندرا) — شقيق (همنالينى) — من الريف بقطار الصباح فى اليوم التالى .. يوم السبت السابق على الأحد الذى كان محدداً لزواج (همنالينى) . ومع ذلك ، فإنه لم يلمح — وهو يقترب من البيت — أية إشارة تنم عن الاحتفال المقبل ، فلا عقود من الأوراق الخضراء معلقة فى الشرفة .. بل ولا شىء على الإطلاق يميز البيت عن غيره من البيوت الكئيبة ، المغبرة ، التى كانت تجاوره . وحدس — وهو موجس — أنه لن يلبث أن يسمع عن مرض مفاجئ ، بيد أنه حين اندفع إلى داخل الدار ، لم يلمح ما يشى بشىء من هذا القبيل ، بل وجد طعاماً مهيأ له ، بينما جلس أبوه إلى المائدة يقرأ صحيفته ، وأمامه قدح من الشاى ، احتسى حوالى نصفه . وهتف (جوجندار) وهو يلج الغرفة : « هل هيم بخير ؟ » .

أنادا بابو : « إنها فى خير حال » .

جوجندرا : « وما أنباء الزواج ؟ »

أنادا بابو : « سيعقد فى يوم الأحد بعد القادم » :

جوجندرا : « ولماذا أرجئ ؟ »

أنادا بابو : « يحسن بك أن تسأل صديقك . كل ما قاله لنا (رامش) ، هو أن لديه عملا هاماً ، وأن الزواج لا يمكن أن يعقد يوم الأحد ! » .

وسخط (جوجندرا) — فى نفسه — على ما أبداه أبوه من تساهل ، وقال : « أرى أنكم تهملون كل شىء يا أبت ، عندما لا أكون هنا .. أى عمل هام هذا الذى تعلل به ؟ .. إنه يمارس مهنة حرة ، كما أنه لم يعد ذا أقارب يتقيد بهم .. وإذا كان قد تورط فى مأزق أو عمل ، فلست أرى ثمة ما يمنعه من أن يفضى إليك بالأمر . فلماذا سكت عن مناقشته ؟ » .

— إنه لم يهرب من المدينة ، على أية حال ! .. فخليق بك أن تذهب وتناقشه بنفسك .

وأفرغ (جوجندرا) فى جوفه كوب شاى ، ثم اندفع خارجاً ، فصاح (أنادا بابو) : « انتظر يا جوجن .. فيم هذا التعجل منك ؟ إنك لم تأكل شيئاً ! » .. ولكن (جوجندرا) كان قد غادر الدار ، واندفع إلى البيت المجاور ، ووثب مجتازاً درجات السلم ، منادياً : « رامش !.. رامش ! » . ولكنه لم يعثر على أثر لرامش ، رغم أنه بحث عنه فى غرفة النوم ، وحجرة الجلوس ، وعلى سطح الدار ، وفى الطابق الأرضى .

وبعد أن طاف بأعلى البيت وأسفله ، عثر على الحارس فسأله عن مخدومه . وكان الجواب : « لقد رحل مبكراً ! » . وعاد يسأله : « ومتى يعود ؟ » .. فأخبره الحارس بأن (رامش) حمل معه قدراً من الثياب ، وقال : إنه قد لا يعود قبل أربعة أيام أو خمسة .. أما أين ذهب فهذا ما لم يكن الحارس يعرفه !

وعاد (جوجندرا) إلى مجلسه من المائدة فى داره ، وهو عابس مهموم ، فسأله (أنادا بابو) : « أى حظ أصبت ؟ » .. وقال الابن محنقاً : « ما الذى تتوقعه ؟ .. ها هو ذا رجل يوشك أن يتزوج من ابنتك ، ومع ذلك فإنك لا تهتم بتصرفاته وتنقلاته ، رغم أنه يسكن المنزل المجاور ! » .. فقال (أنادا بابو) : « لقد كان فى داره ليلة أمس » . فصاح جوجندرا : « ومع ذلك فإنك لم تكن تعلم بأنه راحل ، ولا حارس داره يعلم أين ذهب ! .. إن فى الأمر ما يريب . لست مرتاحاً يا أبت لهذه الظواهر ، فكيف تقبل الأمر بمثل هذا الهدوء » ؟.. وإزاء هذا اللوم ، بدأ (أنادا بابو) يفطن إلى الموقف ، فتساءل وهو يبدى المظهر الجدى الذى يتطلبه الظرف : « ترى ما معنى هذا ؟ » .

* * *

● والواقع أن (أنادا بابو) تساهل فى الليلة السابقة مع (رامش) ، فتركه ينصرف دون أن يناقشه الحساب . ولكن الشاب — من ناحيته — لم يفطن إلى هذا التساهل لجهله بمثل هذه الأمور ، فظن أن مجرد الاعتذار بأن لديه عملا هاماً يضطره إلى إرجاء الزواج ، كان كافياً .. كان عذراً يتيح له كامل الحرية فى التصرف !

وتساءل (جوجندرا) : « أين همنالينى ؟ » ، فأجاب (أنادا بابو) : « لقد تناولت الشاى فى هذا الصباح مبكرة عن الموعد المعتاد ، ثم صعدت إلى غرفتها » .. وهتف (جوجندرا) : « يا للمسكينة ! .. ما أراها إلا فى خزى بالغ من مسلك (رامش) الغريب ، وهذا هو السر فى أنها تتفادى مقابلتى ! » .. وصعد إلى الطابق العلوى ليسرى عن أخته خجلها وهمها . وكانت (همنالينى) وحيدة فى حجرة الجلوس ، فلما سمعت وقع قدمى (جوجندرا) ، أسرعت فالتقطت كتاباً وتظاهرت بالقراءة ، حتى إذا دخل ، طرحت الكتاب جانباً ونهضت تحييه فى بشر هاتفة : « أهلا بك ، متى جئت ؟.. إنك لا تبدو على ما يرام ! » .. فصاح (جوجندرا) وهو يلقى بنفسه على مقعد : « وكيف أكون على ما يرام ؟ .. لقد بلغنى كل شىء يا هيم ! .. ولكن ، لا تبتئسى ، فما جرى الذى جرى إلا لأننى لم أكن هنا ، على أننى سأعيد كل شىء إلى مجراه .. وبهذه المناسبة ، هل أبدى لك (رامش) أية أسباب ؟ » .

وألقت (همنالينى) نفسها فى موقف حرج .. وضايقها الشك الذى بدا من (أكشاى) ومن (جوجندرا) ، وأوجست من أن تصارح أخاها بأن (رامش) لم يدل إليها بسبب يبرر إرجاء الزواج . على أنها فى الوقت ذاته أبت أن تكذب ؟.. لذلك ما لبثت أن أجابت : « لقد كان على استعداد لأن يبدى الأسباب ، ولكننى لم أر داعياً لذلك ! » .. فقال (جوجندرا) فى نفسه : « محض كبرياء ! .. هذه شيمة النساء ! » .. ثم قال بصوت مرتفع : « حسناً ، لا تبتئسى ! .. سأحمله على أن يجهر بأسبابه قبل أن ينتهى هذا اليوم ! » .. فقالت فى غير

اكتراث ، وهى تقلب صفحات الكتاب الذى كان فى حجرها :
« ولكنى غير مبتئسة ! .. ولا أريد أن أضايقه بالإلحاح فى طلب
الأسباب » . وعاد (جوجندرا) يقول لنفسه : « الكبرياء مرة
أخرى ! » .. ثم قال لها : « حسناً ، لا داعى لأن تشغلى بالك بهذا
الأمر » . وهم أن ينصرف ، فنهضت (همنالينى) عن مقعدها ، وقالت :
« أرجو أن لا تقول له شيئاً بهذا الصدد . لتظنوا جميعاً ما شاءت لكم
الظنون ، ولكننى — شخصياً — لا أرتاب فيه مطلقاً ! » .

وبدا لجوجندرا أن الأمر ليس مجرد مظهر تمليه الكبرياء . ولكن
حبه لأخته سيطر عليه ، فابتسم وهو يقول لنفسه : « إن هؤلاء المتعلمات
لا يفقهن شيئاً من أمور الدنيا .. فهى قد تعرف الكثير مما تعلمته فى
الكتب ، ولكنها فى المواقف التى تثير الريب تبدو ساذجة كالطفلة ! » ..
وقارن بين ما كانت تظهر من ثقة خالصة ، وبين ما بدا أنه خداع من
(رامش) ، فإذا قلبه يقسو على الشاب ، وإذا عزمه على أنه يضطره إلى
إعلان « أسبابه » يشتد . ونهض مرة أخرى متأهباً للانصراف ، ولكن
(همنالينى) أسرعت تمسك بذراعه قائلة : « عدنى بأن لا تنبس بكلمة
لرامش فى هذا الصدد ! » ، فأجابها : « سأفكر فى الأمر » .

— إن الأمر لا يحتاج إلى التفكير .. عدنى قبل أن تنصرف . أؤكد
لك أن ليس ثمة ما يدعو للقلق : لست أسألك أكثر من هذا الرجاء !

وأقنعه إصرارها بأن (رامش) ولابد قد أوضح لها موقفه تماماً ،
ولكن هذا لا يعنى أن الإيضاح كان صادقاً ، فما كان من العسير
خداعها بأية قصة مفتراة . ومن ثم تحول (جوجندرا) إليها قائلا :

« اسمعى يا هيم .. ليست المسألة مسألة ارتياب فى شخص ، وإنما هى
واجب لابد من أن يؤديه أولياء أمر الفتاة المقدمة على الزواج . ربما
كان (رامش) قد أفضى إليك بإيضاح تؤثرين أن تكتميه . ولكن
هذا لا يكفى .. بل عليه أن يبرر الموقف لنا . وإذا شئت الحق يا (هيم) ،
فإن الإصرار على طلب الإيضاح أصبح من شأننا ، فى هذه المرحلة ،
وليس من شأنك أنت . على أننا لن نملك أن نتدخل فى شئونكما إذا
ما تزوجتما ! » .

وأسرع مغادراً المكان . لم يتبق خيط من القناع الذى يلتمس
العشاق أن يستروا وراءه شئونهم عادة ! .. وغدت الرابطة بين (رامش)
و (همنالينى) عرضة لقذائف من « دخلاء » غير مشفقين .. تلك
الرابطة التى كانا يأملان — فى غمرة الوجد — أن تنمو حتى تخلق لهما عالماً
خاصاً بهما ! .. وأقلقت (همنالينى) بوادر العاصفة التى خيمت على
حياتها ، حتى أنها أصبحت تعاف مقابلة الأهل والأصحاب . وما أن
بارحها (جوجندرا) ، حتى تهالكت فى مقعد ، وقضت فيه بقية
نهارها مختلية بنفسها فى غرفتها .

أما (جوجندرا) ، ففيما كان يغادر المنزل ، التقى بأكشاى الذى
حياه قائلا : « أهلا بك يا جوجن .. هل وصلت أخيراً ؟ .. هل سمعت
بالنبأ ؟ .. ما رأيك فى الأمر كله » . فقال (جوجندرا) : « لقد فكرت
فيه طويلا . ولكنى لن أقنع بالكلام وبالقيام بحركات لا نفع من
ورائها . إن الوقت لا يتسع للجلوس إلى مائدة الشاى . ومناقشة
افتراضات وعقد نفسية ! » . فقال (أكشاى) : « وأنا أيضا لا أستسيغ

هذا المسلك كما تعلم ، فلست ممن يؤمنون بعلم النفس ، ولا بالفلسفة والشعر . إننى رجل عملى .. وهذا ما جئتك بصدده ! » .. وعقب (جوجندرا) فى تحمس نزق ، بقوله : « حسناً ، أنا الآخر أفضل العمل .. فهل تستطيع أن تعرف أين ذهب رامش ؟ » .

— أجل . — أين ؟

قال (أكشاى) : « لن أقول لك ، ولكننى سأجمعك به فى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم » .. فسأله (جوجندرا) : « ولماذا لا تنبئنى بجلية الأمر ؟ .. إنكم جميعاً تكتمون ما لديكم بدرجة مثيرة .. لقد غبت أياماً لأستجم ، فما أن أوليتكم ظهرى ، حتى بدأت الألغاز الرهيبة تقفز فى كل مكان . قل يا أكشاى ، فلا داعى للتكتم !.. تكلم يا رجل ! » .

أكشاى : « يسرنى أن أسمعك تتكلم بهذه اللهجة ، فما أغضب القوم منى إلا أننى كنت صريحاً ، فإذا أختك تأبى أن ترانى ، وإذا أبوك يتهمنى بأننى فطرت على التشكك والاسترابة ، وإذا (رامش بابو) لا يطرب للقائى .. لم يبق سواك ، وأخشى أن يصيبك ما أصابهم ! .. على أنك لست ممن يحبون الحجاج فى الجدل ، وإنما أنت ممن يؤثرون العمل . ولكننى لم أوت البنيان الجسدى الذى يرشحنى لأن أكون صنواً لك » .

جوجندرا : « دعك من هذا الأسلوب الملتوى يا أكشاى .. إننى لأوقن بأن لديك ما يهمنى ، فلماذا تتكتمه وتحيرنى ؟ .. إلى بالحقيقة .. هيا ! » .

أكشاى : « حسناً ، سأروى لك القصة من البداية ، فسوف تجد أن معظمها جديد عليك ! » .

الفصل الثامن عشر

● لم يكن أجل العقد الذى استأجر به (رامش) مسكنه فى حى (داردجبارا) قد انتهى ، لا ولا خطر للشاب أن يؤجر المسكن من الباطن . فقد كان — فى الأشهر الأخيرة — يعيش فى دنيا لا تثقله فيها الاعتبارات المالية . وكان لابد لكمالا من مأوى إذا ما غادرت المدرسة ، ومن ثم فقد ذهب إلى ذلك المسكن عندما طلع نهار يوم السبت ، فأشرف على تنظيفه ، وجهزه بالحصائر ، والحشيات والأغطية ، وملأ مطبخه الخالى . وانقضت بضع ساعات بين استكمال هذه الاستعدادات ، وبين وصول (كمالا) ، قضاها (رامش) مضطجعاً على أريكة خشبية ، يفكر فيما يدخره له المستقبل . ولم يكن قد زار مدينة (ايتاواه) من قبل ، ولكن مدن الشمال الغربى كانت متشابهة ، ومن ثم لم يكن من العسير عليه أن يستعرض بعين الخيال صورة للبيت الذى سيتخذه فيها : (فيلا) فى أحد أطراف المدينة ، على حافة طريق برية تحف بها الأشجار ، وتمتد أمامها — على الجانب الآخر للطريق — مساحة شاسعة من الأرض المحروثة ، تتناثر فى أرجائها الآبار ، والمنصات التى يجلس عليها الحراس ليطردوا الطيور والحيوان عن المحصولات الناضجة .. ويتردد فى الجو بلا انقطاع أزيز السواقى ، والثيران الصبورة عاكفة طيلة النهار على إدارتها لترفع المياه اللازمة لرى الحقول .. وبين القرية والقرية .. يندفع

فى الطريق جواد يثير سحباً من الغبار ، ويبدد صليل عنانه السكون الذى يرين على الجو القائظ ! .. وأشفق إذ تصور أوقات الأصيل الوادعة التى ستقضيها (همنالينى) وحدها ، فى (الفيلا) المنعزلة — المحوطة بكل ما يقيها من الحر اللافح — منهمكة فى رعاية منزلها .. لا ، ما كان ليقضى على زوجته بالحياة فى مثل هذا الوسط إلا إذا كانت (كمالا) إلى جوارها !

واستقر رأيه على أن لا ينبئ (كمالا) بشىء إلا بعد الزواج .. فإذا ذاك ستسعى (همنالينى) إلى اكتساب ود (كمالا) ، ولن تلبث أن تكشف لها — فى حنان — عن حقيقة حياتها ، وأن تبصرها بالشباك التى نسجها القدر ليربطها إلى حياتهما ! .. ولسوف ترى (كمالا) نفسها بمنأى عن موطنها ، وقد حرمت من الأهل والمعارف ، فلا تلبث أن تستقر فى المكان المخصص لها من الأسرة ، دون ما أسى ولا صدمة مضعضعة !

* * *

● وسادت الحارة سكينة الظهيرة ، إذ كان العمال قد غادروا أعمالهم ، وتأهب (أصحاب الفراغ) للقيلولة ، ولاح أن نسمات مبكرة من الشتاء المقبل قد تسربت لتخفف من وقدة الحر . ولم يكن ثمة ما يشغل (رامش) عن الاستغراق فى رسم صورة السعادة التى تنتظره ، فأخذ يضفى عليها الألوان فى سخاء ! .. ولم يلبث أن بدد صفو أحلامه ضجيج عجلات . فإذا بمركبة كبيرة تتجه إلى باب داره فتقف عنده . وأدرك أنها ولابد عربة المدرسة تقل (كمالا) ، فتسارعت دقات قلبه . ترى كيف

يستقبل (كمالا) ؟ وأية موضوعات مشتركة تصلح للحديث بينهما ؟ وكيف سيكون مسلكها نحوه ؟.. كانت هذه الأسئلة كفيلة بأن تثير اضطرابه ، فأحس بأنه لا يقوى على مواجهة الموقف وهو متمالك نفسه ! .. وكان خادماه ينتظران أمام باب البيت ، فأقبلا أولا ، وقد حملا حقيبة (كمالا) الضخمة فوضعاها فى الشرفة . وجاءت (كمالا) فى أعقابهما ، حتى إذا بلغت مدخل الغرفة ، توقفت . فهتف بها (رامش) : « تعالى يا كمالا ! » .

وغالبت شعوراً طارئاً من التردد ، ثم ولجت الغرفة . كان (رامش) قد اعتزم أن يتركها فى المدرسة خلال العطلة ، وقد كلفها هذا الإهمال الجلى منه لشأنها ، دموعاً غالية .. واختلطت هذه الذكرى بما كان بينهما من فراق طويل ، فخلفا فى نفسها شيئاً من الوحشة . ومن ثم فقد تحاشت أن تتطلع إلى (رامش) بعد دخولها الحجرة ، وظل بصرها عالقاً بالباب المفتوح . وبدا له شكلها غريباً عنه بدرجة أذهلته .. فلقد اعتراها تغير عجيب خلال هذه الأشهر القلائل ، فإذا بها قد نمت كالغصن الصغير .. ولكنه كان غصناً ضعيفاً ، إذ غابت عنها نضرة الصحة التى كانت تتجلى على أعضاء جسمها .. الجسم اليافع الذى لم يستكمل تناسقه . وفقد وجهها استدارته الطافحة بالشباب ، وبرزت عظام وجهها ، وغارت وجنتاها وعيناها ، وانحسر التورد عن خديها فكستهما صفرة واهنة ، وغاب مرحها وخفة حركاتها !

وظلت — بعد دخولها — واقفة ، منتصبة القامة ، وضوء أصيل الخريف يترامى من النافذة المفتوحة على محياها ، وكان رأسها عارياً ،

وجدائل شعرها المضفورة بشريط أحمر تتدلى على ظهرها .. وقد التف
بإحكام حول جيدها الذى لم يستكمل نموه ، ثوب من الصوف ذو لون
مائل إلى الصفرة . ولبث (رامش) يحدق فيها بضع لحظات ، وهو
صامت . لم يكن قد تبقى فى ذاكرته من جمالها — خلال الأشهر القلائل
الماضية — سوى صورة باهتة . أما الآن ، فقد أضفى التغير الذى طرأ
عليها ، رونقاً على هذا الجمال ، مما أحدث أثراً عميقاً فى نفس (رامش)،
فألفى نفسه عاجزاً عن مقاومة فتنتها .. وقال لها : « اجلسى يا كمالا »،
فجلست دون أن تنبس ببنت شفة . وعاد يقول : « كيف حالك فى
المدرسة ؟ » ، فأجابت باقتضاب : « بخير ! » .

وأخذ (رامش) يعصر ذهنه ، بحثاً عن شىء يقوله . وأخيراً ،
خطرت بباله فكرة ، فقال : « أظنك لم تتناولى طعاماً منذ ساعات :
هناك طعام مهيأ لك ، فهل آمر بإعداد المائدة ؟ » .. فأجابت : « لا ،
شكراً لك .. لقد أكلت قبل أن أبدأ الرحلة ! » .. وعاد يسألها :
« أولا تأكلين شيئاً ؟ .. هناك بعض الفاكهة .. تفاح ، ورمان ، وبعض
الحلوى » .. ولكن (كمالا) اكتفت بأن هزت رأسها رافضة . وعاد
(رامش) يتأمل وجهها .. كانت تحدق فى بعض صور كتاب المطالعة
الإنجليزية — الذى كانت تحمله — وقد مالت برأسها إلى الأمام قليلا .
والوجه الجميل ، كالمغناطيس ، يجتذب كل جمال فى الوسط الذى
يحيط به ! فقد لاح ضوء الشمس الجانحة إلى المغيب ، وكأنه استحال
— حين مس وجه الفتاة — إلى كائن حساس ! .. بل كان نهار الخريف
تبلور — لوجودها — فاتخذ شكلا وقالباً . فقد خيل لرامش أن الفتاة

تشد إلى فلكها السماء ، والهواء ، والنور ، وكل ما يحيط بها — كما تشد
الشمس الكواكب التى تدور فى فلكها — فإذا كل هذه الأشياء
تتشكل بشكلها وهى جالسة صامتة ، تحملق فى صور كتاب المطالعة ،
دون أن تفطن إلى جاذبيتها هذه !

* * *

● وغادر (رامش) الحجرة ليعود حاملا (صينية) مليئة بالتفاح
والكمثرى والرمان، وقال : « يبدو أنك تأبين أن تتناولى شيئاً يا كمالا،
ولكننى جائع ، ولا أستطيع صبراً » . فابتسمت (كمالا) وإذا ضوء
ابتسامتها يبدد الضباب الذى كان ينتشر بينهما . وتناول (رامش) سكيناً
وشرع يقشر تفاحة ، ولكن المهارة كانت تنقصه . ولم تطق (كمالا)
صبراً على تسرعه المجرد من البراعة ، وعلى محاولاته الفاشلة لتقطيع
الفاكهة ، فانطلقت ضاحكة !.. وأثلج صدر (رامش) ما انتابها من
سرور لم تستطع أن تكبحه ، فقال : « لعلك تضحكين لأننى لا أحذق
تقشير التفاح ، إذن ، أرينى مهارتك ! » .. فقالت (كمالا) : « بوسعى
أن أريك لو أننى حصلت على سكين للفاكهة ، ولكنى لا أتقن العمل
بسكين المطبخ ! » .. فقال : « أتظنين أن ليست لدينا سكين للفاكهة ! ».
ونادى الخادم ، وسأله إن كانت توجد سكين للفاكهة ، فكان جوابه :
« أجل يا سيدى . فقد ابتعنا كل ما يلزم » .. وإذ ذاك قال (رامش):
« إذن نظفها جيداً ، وأحضرها ! » .

وعندما أحضر الخادم السكين ، خلعت (كمالا) حذاويها ،
وجلست ، ثم راحت — فى خفة بارعة — تقشر التفاحة . وتحولت بعد



وغادر (رامش) الحجرة ليعود حاملا (صينية) مليئة بالتفاح والكمثرى والرمان ..

ذلك تقطعها إلى شرائح . وجلس (رامش) أمامها يتلقى الشرائح فى طبق ، وهو يقول : « لابد أن تأكلى نصيباً منها ! » ، فقالت : « لا .. شكراً » . قال : « إذن ، فلن أتناول منها شيئاً ! » .. وتطلعت إليه ، ثم قالت : « حسناً .. كل أنت أولا ، وسآكل بعدك ! » ، فقال : « أتراك تعتزمين أن تغررى بى ؟ » .. فأجابت وهى تهز رأسها : « لا .. لن أخادعك حقاً ! » .. واقتنع بتأكيدها ، فتناول من الطبق شريحة دسها فى فمه . وفى تلك اللحظة ، رأى ما جعل فكيه يجمدان .. رأى (جوجندرا) و (أكشاى) ينتصبان أمامه ، لدى الباب !

وكان (أكشاى) أول من تكلم ، فقال : « معذرة يا رامش بابو . ظننت أننا سنجدك وحيداً . ما كان ينبغى يا (جوجن) أن نفاجئه هكذا دون ما إنذار . هيا بنا ، لننتظره فى الطابق الأرضى ! » .. وتركت (كمالا) السكين تفلت من يدها وقفزت مستوية على قدميها . وكان الرجلان يسدان الطريق إلى خارج الغرفة ، فتنحى (جوجندرا) جانباً ليفسح لها الطريق ، دون أن يحول بصره عن وجهها ، بل ظل يحدق فيها . ولاذت (كمالا) بالغرفة المجاورة ، وقد تملكها الاستياء !

الفصل التاسع عشر

● قال (جوجندرا) متسائلا : « من هذه الفتاة يا رامش ؟ » .. فأجاب هذا : « إنها إحدى قريباتى » . وسأله (جوجندرا) : « وما صلة قرابتها بك ؟ ما أظنها من ذوى النسب الأقربين إليك .. لقد حدثتنى عن كل أقاربك ، فلم أسمع قط عن هـذه ! » . وإزاء ذلك ، أهاب به

(أكشاى) قائلا : « اهدأ يا جوجن . من المؤكد أن ثمة أموراً يحب أى رجل أن يكتمها حتى عن أصدقائه ! » .. فقال (جوجندرا) : « أفهذه من الأسرار الدفينة يا رامش ؟ » .. فتضرج وجه (رامش) وقال : « أجل ، إنها سر ، وإنى لأوثر أن لا أتناول أمر هذه الفتاة فى حديثنا ! » . غير أن (جوجندرا) بادره فى جفاء : « ولكننى – لسوء الطالع – أريد أن أتحدث معك بصددها بالذات ! .. فلو لم تكن مرتبطاً بهمنالينى ، لما كانت ثمة حاجة إلى التنقيب عن فروع شجرة النسب الخاصة بأسرتك ، ولجاز لك أن تستبقى أسرارك لنفسك ! » .. فقال رامش : « كل ما أملك أن أقوله هو أنه ليس فى الدنيا شخص تربطنى به علاقة من نوع يقف دون زواجى من همنالينى وأنا مرتاح الضمير ! » .

جوجندرا : « أن الذى لا يبدو لك حائلا ، قد يكون حائلا فى رأى أهل همنالينى .. ولست أريد أكثر من أن تجيب عن هذا السؤال : سواء أكنت قريباً لهذه الفتاة أو لم تكن ، فلماذا تتستر على مقامها هنا ؟ » :

رامش : « لو أننى ذكرت لك السبب ، لأفشيت السر . ألا تثق بقولى دون أن تسألنى الأسباب ؟ » .

جوجندرا : « ألا تدعى هذه الفتاة (كمالا) ؟ » .

رامش : « بلى ! » .

جوجندرا : « هل وصفتها بأنها زوجتك ، حين ألحقتها بالمدرسة ، أو لم تصفها ؟ » .

رامش : « بل وصفتها » .

جوجندرا : « أفتريد منى بعد هذا أن أصدقك ؟ .. أتريد أن

تقول إنها ليست زوجتك ، فى حين أنك أنبأت كل مخلوق بأنها زوجتك ! .. إنك لا تضرب مثالا طيباً فى الصدق والحقيقة ! » .

أكشاى : « أعتقد أنك تقصد أن هذا لا يكاد يكون مثالا يجوز للمرء أن يسوقه فى محاضرة عملية عن الصدق !.. ولكنك تنسى يا عزيزى (جوجن) أن الضرورة قد تدعو المرء إلى أن يروى قصتين مختلفتين ، لفريقين مختلفين من الناس ، فى بعض الظروف غير العادية . وغالباً ما تكون إحدى القصتين صادقة . فلعل تلك التى رواها لك (رامش بابو) هى القصة الحقيقية ! » .

رامش : « لن أقول لكما شيئاً على الإطلاق ، ولن أزيد على ما قلته من أننى لا أرتكب وزراً بزواجى من (همنالينى) . ولدى سبب جد قوى يجعلنى أرفض أن أبحث معكما موضوع (كمالا) . بل من الخطأ أن أفعل ، مهما رأيتما فى مسلكى ما يريبكما . ولو أن الأمر كان متعلقاً بسعادتى أو سمعتى وحدى ، لما أخفيت عنكما شيئاً ، ولكننى أرفض أن أقول شيئاً ، إذا كنت بهذا القول أقيم عقبات فى طريق مستقبل شخص آخر ! » .

جوجندرا : « هل صارحت (همنالينى) بكل شىء ؟ » .

رامش : « لا ، وإنما سأنبئها بعد زواجنا ، ولو أنها شاءت ، فإنى على استعداد لأن أنبئها الآن ! » .

جوجندرا : « حسناً ، هل أستطيع أن أوجه إلى (كمالا) بعض أسئلة فى هذا الصدد ؟ » .

رامش : « كلا بكل تأكيد ! .. إذا اعتبرتنى مذنباً ، فاحكم على بما تراه ، أما (كمالا) فبريئة كل البراءة ، ولن أعرضها للتحقيق الذى تريد إجراءه ! » .

جوجندرا : « لا داعى لسؤال أحد على الإطلاق ، فقد تبينت كل ما ينبغى أن يعرف . لقد زودتنى بالدليل الكافى ، وأحب أن أقول لك بكل وضوح ، أنك ستتعرض للإهانة إذا أنت وطأت أرض دارنا بقدمك ! » .

وشحب وجه (رامش) . بيد أنه لم ينبس ببنت شفة .. بينما استطرد (جوجندرا) قائلا : (وهناك شىء آخر أود أن أقوله .. ليس لك أن تكتب إلى همنالينى ، أو أن تحاول أن تتصل بها ، أبسط اتصال ، فى العلن أو فى السر . ولو كتبت إليها ، فسأعلن للملأ سرك الذى تحرص على التستر عليه ، مع الأدلة المثبتة له . وإذا سألنا أحد عن سبب فصم خطبتك لهمنالينى ، فسأقول إن السبب يرجع إلى أننى رفضت الموافقة على الزواج ، ولن أذكر السبب الحقيقى . أما إذا لم تلزم جانب الحذر ، فسأذيع القصة كلها . وقد يدهشك أن أبدى كل هذا التسامح إزاء تصرفك الجاحد .. ولكن لا تظن أن أتفـه عطف عليك يحدونى إلى ذلك ، وإنما أتساهل لأن هذه المسألة تمس أختى همنالينى ؛ وكلمتى الأخيرة إليك هى أنه ليس لك أن تبين بالقول أو الإشارة أنك قد عرفت يوماً همنالينى أقل معرفة . ولا قيمة لأن أنتزع منك وعداً ، فلست أتوقع منك أى وفاء بعد هذه الخدعة ، ولكن .. إذا كانت

لديك بقية من الحياء ، أو من خشية الفضيحة ، فلا ينبغى أن تستهين بهذا الإنذار ! » .

أكشاى : « حقاً يا جوجن ! .. ألست آسفاً من أجل رامش بابو ، بعد كل هذا ؟ .. ألا انظر كيف يتلقى الأمر بهدوء ! .. خليق بنا أن ننصرف الآن ! . . لا تبتئس يا رامش بابو ، فنحن خارجان ! » .

* * *

● وانصرف (جوجندرا) و (أكشاى) تاركين (رامش) فى حالة من الذهول ، أفقدته القدرة على التحرك ! وعندما بدأت حواسه تفيق من الصدمة ، كان أول ما خالجه ، شعور بالرغبة فى أن ينطلق على قدميه ، وأن يسير طويلا ، ليستعرض الموقف فى الهواء الطلق . بيد أنه تذكر أن ليس بوسعه أن يترك ، (كمالا) وحيدة فى مكان غريب بالنسبة لها . وما لبث أن سعى إلى الغرفة المجاورة ، فإذا الفتاة جالسة إلى جوار النافذة ، تطل على الطريق ، خلال مصراع مفتوح من المصراعين الخشبيين . وأغلقت المصراع حين سمعت خطوات (رامش) والتفتت إليه ، فجلس القرفصاء على الأرض .

وسألته كمالا : « من يكون هذان الرجلان ؟ .. لقد وفدا على مدرستنا فى هذا الصباح ! » ، فهتف فى دهشة : « ذهبا إلى المدرسة ؟ » .. قالت : « أجل .. ما الذى قالاه لك ؟ » .

— سألانى عن صلة القربى التى تربطك بى !

ومع أنه لم يقدر لكمالا قط أن تجلس عند قدمى حماة تتلقى عنها درساً فى المناسبات التى يجدر بالزوجة الشابة فيها أن تخجل أمام زوجها ،

إلا أن غريزتها دفعت حمرة الخجل إلى وجنتيها عندما سمعت كلمات (رامش) ، بينما كان يمضى فى حديثه قائلا : « وقد أخبرتهما بأن ليست بيننا أية صلة ! » . وبدا قوله — فى رأيها — دعاية ممجوجة ، فأشاحت فى غضب قائلة : « لا تكن سخيفاً ! » .. وساءل (رامش) نفسه عما إذا كان يجسر على أن يروى لها الحقيقة بحذافيرها !

وقفزت (كمالا) فجأة وهى تصيح جزعة : « أنظر .. ها هو ذا غراب يختطف فاكهتك ! » ، وهوعت إلى الغرفة الأخرى ، فطردت الغراب ، ثم عادت بصفحة الفواكه ، وسألته وهى تضع أمامه طبقاً : « ألن تتناول شيئاً منها ؟ » .. وهزته هذه الرعاية .. ورغم أن شهيته كانت قد ولت ، إلا أنه سألها : « وأنت ، ألن تتناولى شيئاً يا كمالا ؟ ».. فأجابت فى لهجة الزوجة التى تأبى أن تأكل شيئاً قبل أن يشبع زوجها جوعه : « بل كل أنت أولا ! » .. وكان الأمر بسيطاً ، ولكن أعصاب (رامش) كانت مرهفة ، فكادت رعاية الفتاة الساذجة أن تدفع الدمع إلى عينيه . وعجز عن أن يجد قولا مناسباً ، ولكنه سيطر على نفسه ، وتناول بعض الفاكهة ، ثم قال عندما فرغ : « يجب أن نرحل الليلة إلى بلدتنا يا كمالا ! » .. وإذا الأسى يتبدى على وجه الفتاة ، وهى تبادر قائلة : « لا أريد أن أذهب إلى هناك ! » . فسألها : « وهل تحبين أن تواصلى الدراسة ؟ » .

كمالا : « لا ، لا ترسلنى إلى المدرسة ثانية ، فإن الفتيات لا يفتأن يسألننى عنك ، ويثرن خجلى ! » .

رامش : « وما الذى تقولينه لهن ؟ » .

كمالا : « لا أقول شيئاً .. لقد رحن يسألننى عن سر رغبتك فى أن تتركنى فى المدرسة أثناء العطلة ، و... » ، ولم تقو على إتمام عبارتها ، فإن الذكرى نكأت جرح فؤادها ، فقال (رامش) : « لم لم تقولى لهن أننى لا أمت إليك بصلة ؟ » . فرمقته (كمالا) بنظرة لوم ونفاد صبر ، وعادت تكرر : (لاتكن سخيفاً !) .

● وساءل (رامش) نفسه : « ترى ما الذى أفعله ؟ » . كان سره كالدودة التى تنخر حيويته ونشاطه ! .. وكانت هذه الدودة — فى دأبها — موجعة مؤلمة . وراحت الأسئلة تعذبه وتضنى باله : « ترى ما الذى يحتمل أن يكون (جوجندرا) قد قاله لهمنالينى فى هذه الأثناء؟.. وكيف تلقت (همنالينى) النبأ ؟ .. وكيف يستطيع أن يشرح لها حقيقة الأمر ؟ .. وكيف يطيق أن يعيش العمر بعيداً عن (همنالينى) ؟ » .. ولكن فكره المشتت عجز عن أن يوافيه بإجابات لهذه الأسئلة .. كل ما كان يدركه هو أن علاقته بكمالا غدت موضع اهتمام أصدقائه وأعدائه فى (كلكتا) ، ولن يؤدى زعمه بأن (كمالا) زوجته إلا إلى استفحال الشائعات حوله . ومن ثم فلا سبيل للبقاء معها يوماً آخر فى هذه المدينة !

ولم يغب انشغال باله عن (كمالا) ، فرمقته فى تساؤل ، وقالت : « ما الذى يشغلك ؟ .. إذا شئت أن تعود إلى بلدتك وتقيم فيها ، فسوف أرافقك ! » .. ووخز فؤاده مرة أخرى هذا الانصياع من الفتاة لرغباته . وراح يسائل نفسه من جديد عن خير مسلك يسلكه . وتاه فكره وهو يتأمل (كمالا) دون أن يعقب على قولها بشيء . وشعرت هى بأن الأمر

أخطر من أن تسكت عليه ، فقالت : « أرجو أن لا يكون قد أغضبك عدم انصياعى للبقاء فى المدرسة خلال العطلة .. صارحنى ، هل غضبت ؟ » .. فقال (رامش) : « الحق أنى غضبت من نفسى ، وليس منك ! » .

وحرر نفسه فى جهد من أفكاره المتداخلة ، المضطربة ، وتحول يجاذب (كمالا) الحديث . فقال لها بغتة : « ألا حدثينى يا كمالا عما تعلمته فى المدرسة طيلة هذه الفترة » .. فشرعت تعرض عليه ما تعلمت ، وهى مغتبطة . وحاولت أن تثير دهشته بما حصلته من معرفة عن الأرض وكرويتها ! وتظاهر (رامش) من ناحيته بأنه يجهل هذا الموضوع ولا يصدقه ، فراح يتساءل : كيف يمكن أن تكون الأرض كروية : وحملقت فيه (كمالا) فى دهشة ، وهى تقول : « إن هذا موجود فى كتابنا ، وقد درسناه ! » .. فقال (رامش) متظاهراً بالعجب : « ما أراك جادة فى قولك . أيوجد هذا فى كتاب حقاً ؟ .. أى كتاب هذا ؟ » .. وخدعت (كمالا) بتظاهره ، فقالت : « إنه كتاب غير ضخم ، ولكنه مطبوع .. ويتضمن صوراً أيضاً ! » .. وكأنما كان هذا دليلا كافياً أفحم (رامش) ! .

وإذ فرغت (كمالا) من سرد ما تعلمته ، استطردت متحدثة عن زميلاتها ، ومدرساتها ، والمدرسة ونظمها . وشرد ذهن (رامش) مرة أخرى ، بيد أنه ظل يتمتم ببضع كلمات من آن لآخر ، ليوحى إليها بأنه يتتبع حديثها . وكان أحياناً يفطن إلى بعض عباراتها ، فيكررها فى تساؤل ، وكأنه يستزيدها إيضاحاً . على أن (كمالا) لم تلبث أن

أن هتفت : « إنك لا تصغى إلى ! » .. ونهضت واقفة فى استياء ، فبادر قائلا : « مهلا يا كمالا ، لا تغضبى .. إننى لا أكاد أتمالك نفسى اليوم ! » ، فسألته وهى ترتد إليه : « أتشعر بتوعك ؟ .. ماذا بك ؟ » .

— لست متوعكاً بما فى الكلمة من معنى .. بل إننى لا أشعر بألم ذى بال ، وإنما هى حال تعاودنى فى بعض الأحيان . هلا استرسلت فى حديثك من جديد ؟

فقالت (كمالا) وقد عادت تحاول أن تدهشه بمعرفتها : « أتحب أن ترى الصور التى فى كتاب مبادئ الجغرافيا ؟ » .. فتصنع اللهفة فى طلب الكتاب . وإذا ذاك أسرعت (كمالا) إلى إحضاره ، وفتحته أمامه ، قائلة : « هاتان الكرتان اللتان تراهما ، ليستا سوى كرة واحدة فى الحقيقة . إذ أن المرء لا يستطيع — كما تعرف — أن يرى جانبى أية كرة ، فى وقت واحد ! » .. وتظاهر (رامش) بأنه يتأمل الصورة فى إمعان ، ثم قال : « وهكذا الأمر أيضاً فى أى جسم مسطح » .. وقالت كمالا وهى ماضية فى حديثها : « ولهذا السبب رسم شقا الكرة الأرضية منفصلين فى هذه الصورة ! » .

.. وعلى هذا النسق قضيا أول أيام العطلة !

الفصل العشرون

● كان (أنادا بابو) يتمنى من صميم فؤاده أن يعود إليه (جوجندرا) بأنباء طيبة ، وأن يتبدد سوء التفاهم كله . فلما دخل عليه (جوجندرا) و (أكشاى) الحجرة ، تطلع إليهما فى قلق . وشرع ابنه يقول :

« ما كنت لأصدق قط يا أبت أنك تسمح لرامش بأن يتمادى إلى هذا الحد ، ولو أننى كنت أحدس أنه يفعل ما فعل ، لما قدمته إليك ولا عرفتك به ! » .

أنادا بابو : « ما أكثر ما عبرت لى بنفسك عما يتولاك من سعادة لو أن (رامش) تزوج من (همنالينى) .. فإذا كان قد خطر لك أن تحول دون ذلك ... » .

جوجندرا : « ما كنت لأفكر قط – فى الواقع – فى أن أقف ضد هذا الزواج ، لولا ... » .

أنادا بابو : « لست أرى مجالا للاستدراك هنا .. فإما أن يدع المرء الأمر يمضى إلى نهايته ، وإما أن يوقفه ، ولا سبيل لمسلك وسط فى هذا الموضوع ! » .

جوجندرا : « ومع ذلك ، فإن ترك (رامش) يتمادى ... » .

وهنا تدخل (أكشاى) فى الحديث ، قائلا فى خبث : « هناك أمور تسير من تلقاء نفسها إلى أقصى مداها ، دون أن يكون للمرء يد فى تطورها . ومع ذلك ، فلا جدوى من البكاء على ما فات ، بل يحسن بنا أن نقرر ما ينبغى أن نفعل الآن ! » .. فتساءل (أنادا بابو) فى لهفة : « وهل رأيتما رامش ؟ » .

جوجندرا : « رأيناه حقاً .. رأيناه فى أسرته ، وتعرفنا إلى زوجته» .

وصعق (أنادا بابو) ! .. وعندما استطاع أن يتكلم أخيراً ، راح ردد : « تعرفتما إلى زوجته ؟ » .. فقال جوجندرا : « أجل .. زوجة رامش ! » .

أنادا بابو : « لست أفقه ما تقول .. أية (زوجة رامش) هذه ؟ » .

جوجندرا : « زوجة رامش .. صديقنا العزيز ! .. فهو لم يعد إلى بلدته عقب الامتحان إلا ليتزوج ! » .

أنادا بابو : « ظننت أن موت أبيه قضى على مشروع الزواج ! » .

جوجندرا : « لقد تزوج قبيل وفاة أبيه » .

وجلس (أنادا بابو) يتحسس رأسه ، مبهوتاً . ثم قال بعد هنيهة : « إذن ، فلن يكون له أن يتزوج من عزيزتنا هيم ؟ » .. فأجاب جوجندرا : « هذا ما أردنا قوله ! » ، فصاح (أنادا بابو) : « قولا ما شئتما ، فإن قولكما لن يمنع الأمر الواقع .. إن الاستعدادات للزواج قد استكملت تقريباً ، وقد كتبنا لجميع أقاربنا قائلين أن الزواج لن يتم فى يوم الأحد من هذا الأسبوع ، وأنه أرجئ إلى يوم الأحد التالى . وما أرى إلا أننا مضطرون إلى أن نكتب إليهم ثانية لنقول أن الزواج قد ألغى تماماً ! » .

فقال جوجندرا : « لا داعى للإلغاء .. كل ما نحتاج إليه هو إجراء تعديل واحد ، لتبقى كل تدابيرنا كما هى ! » .. فسأله « أنادا بابو» فى دهشة : « وأى تعديل هذا ؟ » .

جوجندرا : « إنه واضح جلى . يجب أن نحل رجلا آخر محل (رامش) ، ونمضى فى الاحتفال يوم الأحد المقبل ، وإلا فلن يكون بوسعنا أن نظهر أمام الناس ! » .. وألقى (جوجندرا) نظرة نحو (أكشاى) ، فغض هذا بصره استحياء ، بينما قال (أنادا بابو) : « وكيف نعثر على رجل آخر نرشحه للزواج من (هيم) بهذه السرعة؟» .

فأجاب جوجندرا : « لا داعى للقلق » .

أنادا بابو : « سيكون عليك أن تحصل على موافقة (هيم) أولا ! ».

جوجندرا : « إنها ستوافق حتماً ، إذا ما عرفت مسلك رامش ! ».

أنادا بابو : « حسناً ، افعل ما تراه صالحاً ، ولكن هذا لا يمنع أسفى على (رامش) ، فقد كان ميسور الحال ، عاقلا ، متعلماً .. ولقد اتفقنا بالأمس فقط على أن ينزح إلى (إيتاواه) لممارسة المحاماة هناك ، بعد أن يتم الزواج .. فانظر إلى ما جرى ! » .

جوجندرا : « ما ينبغى لك أن تأسى على ما فات يا أبت ، ليذهب (رامش) فيمارس المحاماة فى (إيتاواه) إذا شاء .. أما الآن ، فيحسن بى أن أدعو (هيم) فوراً .. فليس لدينا وقت نبدده » .

* * *

● وخرج ، ثم عاد بهمنالينى بعد دقيقة أو اثنتين . وتوارى (أكشاى) خلف صوان للكتب فى أحد الأركان ، وقال جوجندرا : « اجلسى يا هيم ، فإن لدينا حديثاً يهمك » .. فجلست (هيم) دون أن تنبس ببنت شفة ، وقد تأهبت لكل ما يرتقب سماعه . وشرع (جوجندرا) يتحايل على مفاتحتها فى الأمر برفق ، فقال : « ألم تلاحظى فى مسلك رامش ما يريب ؟ » .. فاكتفت بأن هزت رأسها نافية .. وإذ ذاك قال : « لقد أرجأ الزواج أسبوعاً ، فأى سبب يمكن أن يحمله على ذلك ، ولا يملك أن يصارحنا به ؟ » .. فأجابت دون أن ترفع بصرها نحوه : « لابد أن لديه سبباً » .

— أصبت .. هناك سبب بالفعل ، ولكن ألا ترين فى هذا ما يريب ؟

وهزت (همنالينى) رأسها إشارة إلى أنها لم تكن ترى داعياً

للشك ! .. وضاق (جوجندرا) بما ألفى لدى أبيه وأخته من ثقة لاتهن برامش ، ومن ثم لم يحاول المضى فى التلطف ، بل أنهى إلى همنالينى النبأ فى قسوة ، قائلا : « هل تذكرين عودة رامش مع أبيه إلى بلدتهما ؟ لقد ظللنا مدة طويلة — بعد ذلك — لم نتلق خلالها نبأ منه ، فكان من الطبيعى أن نستغرب تصرفه . كذلك تعرفين أنه كان فيما مضى يقيم فى البيت المجاور ، ويتردد على دارنا مرتين فى اليوم ، فى حين أنه عندما عاد إلى (كلكتا) حرص على أن يقطن فى مكان يبعد عنا أميالا ، ولم يزرنا قط . ومع ذلك ، فقد لبثت وأبوك تؤمنان به ، وتثقان فيه ، ومن ثم دعوتماه ، وعاملتماه كما كنتما تعاملانه فى الماضى . وما كان هذا ليحدث لو أننى كنت هنا ! » .. وأنصتت (همنالينى) ، ولكنها لم تنبس ببنت شفة .

جوجندرا : « هل عمد أحدكما إلى أية محاولة ليتبين ما وراء هـذا المسلك الشاذ منه ؟ .. ألم تشعرا قط بأن فيه ما يثير فضولكما ؟ .. يبدو أنكما كنتما شديدى الثقة به ! » .

ومع ذلك ، فلم تنبس (همنالينى) ببنت شفة !

جوجندرا : « جميل جداً .. إن المرء ليجد نفسه مسوقاً إلى أن يعتقد أنكما لا تميلان بطبعكما إلى الارتياب فى الناس ! .. على أننى أرجو أن تصدقا ما سوف أنبئكما به الآن . لقد ذهبت بنفسى إلى مدرسة البنات ، فوجدت أن لرامش زوجة ألحقها بالقسم الداخلى منها ، وكان قد رغب فى أن يتركها هناك إبان العطلة ، لولا أن أشفقت عليها السماء ، فهبط عليه — منذ يومين أو ثلاثة — خطاب من ناظرة المدرسة تقول

له فيه إنها لا تستطيع أن تستبقى (كمالا) — زوجة رامش — فى المدرسة أثناء العطلة . ولقد أغلقت المدرسة أبوابها اليوم ، فحملت عربتها (كمالا) إلى المسكن الذى كان لرامش فى (داردجيبارا) .. وقد ذهبت إلى هناك بنفسى ، فرأيت (كمالا) تقشر تفاحة ، بينما جلس (رامش) على الأرض أمامها ، يتلقى الشرائح منها ، ويضعها فى فمه . وسألت (رامش) أن يشرح لى الموقف ، فقال إنه لا يود أن يفضى بشيء . ولو أنه حاول — أقل محاولة — أن ينكر أن (كمالا) زوجته ، لصدقناه ، ولعملنا على أن نبدد وساوسنا . ولكنه أبى أن ينكر أو يؤكد ، فهل فى وسعكما بعد هذا أن تمضيا فى الثقة به ؟ ! » .

* * *

● وانتظر (جوجندرا) الجواب ، وعيناه لا تتحولان عن وجه أخته . فإذا بلونه يمتقع إلى درجة غريبة ، وإذا يداها تشدان على مسندى المقعد بكل ما كان فيهما من قوة . وفى اللحظة التالية ، انحنى رأسها على صدرها ، ثم هوت إلى الأرض مغشياً عليها ! .. وكان جزع (أنادا بابو) مثيراً للإشفاق . ورفع رأس ابنته عن الأرض ، فأسندها إلى صدره وهو يصيح : « ماذا جرى يا عزيزتى ؟ .. ماذا جرى ؟ .. لا تصدقى كلمة مما يقولان ؟ .. إنهما يكذبان ! » ، فبادر (جوجندرا) ونحى أباه جانباً ، ثم رفع (همنالينى) إلى الأريكة . وألقى بجواره إناء ماء ، فنثر منه قطرات على وجه الفتاة ، بينما أخذ (أكشاى) يستجلب الهواء إلى وجهها بمروحة مضى يحركها جاهداً . وما لبثت (همنالينى) أن فتحت عينيها ، فاستوت جالسة فى إعياء والتفتت إلى أبيها باكية :

« يا أبت .. ألا سل أكشاى بابو أن يخرج ! » .. وترك (أكشاى) المروحة لفوره ، وخرج إلى البهو .. وجلس (أنادا بابو) على الأريكة بجوار ابنته ، يربت رأسها ، ويتحسس عنقها ، دون أن يقوى على شيء سوى التنهد وترديد : يا حبيبتى ! يا عزيزتى ! » .

وفجأة ، فاضت عينا (همنالينى) بالدموع ، وبدأ صدرها يتهدج . ومالت بصدرها على ركبتى أبيها ، تحاول أن تكتم أساها . فغمغم (أنادا بابو) بصوت متهدج : « لابأس ياعزيزتى لا تحفلى .. إننى أعرف (رامش) معرفة وثيقة ، وأوقن أنه لا يمكن أن يغرر بنا البتة . لابد أن جوجن أخطأ ! » .. ونفد صبر (جوجندرا) فصاح : « لا تمنيها بآمال زائفة يا أبت .. لو أنك حاولت أن تشفق عليها الآن بالأكاذيب ، فسوف تكون العاقبة وخيمة . دع لها فرصة كى تفكر فى الأمر كله ! » .. فرفعت (همنالينى) رأسها عن ركبتى أبيها ، واستوت جالسة ثم تفرست فى وجه (جوجندرا) قائلة : « أصارحك بأننى لن أصدق قط شيئاً ، مالم أسمعه من فم رامش نفسه ! » .. ونهضت على قدميها مترنحة ، فقفز (أنادا بابو) صائحاً فى إشفاق ، وأنقذها من السقوط . وتشبثت همنالينى بذراعه ، فأعانها على بلوغ غرفتها . وهناك ، قالت وهى تستلقى على فراشها : « أرجو أن تدعنى أخلو قليلا إلى نفسى يا أبت ، ولن ألبث أن أنام » .. فسألها : « أأرسل إليك مربيتك العجوز لتروح لك استجلاباً للهواء ؟ » .

— لا ، شكراً لك ، بل أوثر أن أنفرد بنفسى !

وانتقل (أنادا بابو) إلى الغرفة المجاورة لمخدعها ، وقد عادت

إليه ذكريات أم (هيم) التى ماتت والفتاة فى الثالثة من عمرها ، فذكر وفاءها ، وصبرها ، وبشاشتها التى لم تكن تفارقها : وشعر كأن قلبه يتمزق لوعة من أجل الابنة التى كرس لها مافات من السنين ، كيما يعدها لتحل محل أمها من حياته .. الابنة التى كبرت فصارت صورة حية للمرأة الغالية التى ماتت ! .. واخترقت أفكاره الجدار الذى كان يفصل بينه وبين الفتاة فألقى نفسه يخاطبها فى وحدته :

« أرجو أن تزيل السماء من طريقك كل عقبة يا حبيبتى ، وأن تسعدى ما حييت .. أرجو أن أراك — قبل أن ألحق بأمك — هانئة ، ناعمة ، مستقرة فى أمان إلى جوار رجل يحبك وتحبينه ! » .. ومسح بطرف سترته الدموع التى ترقرقت فى عينيه !

* * *

● كان (جوجندرا) يؤمن دائماً بأن عقول النساء ناقصة ، وقد عززت أحداث ذلك اليوم رأيه وتقديره . كيف يتفاهم المرء مع جنس يغض النظر عن الحقيقة الواقعة ، الواضحة ؟! .. إن المرأة لتنكر بكل بساطة أن اثنين واثنين يصيران أربعة ، إذا ما تمشى ذلك الإنكار لحقيقة مع سعادتها الفردية ! .. وإذا قال لها العقل إن الأسود أسود ، ثم جاء الحب فقال إن الأسود أبيض ، فلن تصغى للعقل المسكين ! . ولم يستطع (جوجندرا) أن يفقه كيف تسير الدنيا فى طريقها ، وتلك هى آراء المرأة ! .. ونادى (أكشاى) ، فأقبل هذا إلى الغرفة متسللا . وسأله (جوجندرا) : « أما وقد سمعت كل شىء ، فما العمل الآن ؟ » .

— لماذا تزج بى فى الأمر يا صديقى ؟ إنه ليس من شأنى : لقد

ظللت طيلة الأيام الماضية صامتاً فى أمان ، فلم يكن من الإنصاف أن تزج بى فى هذا المأزق !

جوجندرا : « حسناً ، سننظر فى احتجاجك هذا فيما بعد . أما الآن فلست أجد حيلة إلا إذا استطعنا أن نقنع (رامش) بأن يعترف بنفسه لهمنالينى اعترافاً كاملا ! » .

أكشاى : « أمجنون أنت ؟ وهل تتوقع من رجل ... ؟ »

جوجندرا : « ربما كان من الأفضل أن نحمله على الكتابة إليها . وهذه مهمتك .. فعليك أن تشرع فى العمل فوراً ! » .

أكشاى : « سأرى ما الذى أستطيع أن أفعله » .

الفصل الحادى والعشرون

● اصطحب (رامش) كمالا فى الساعة التاسعة من ذلك المساء إلى محطة (سيلداه) ، فى عربة أمر حوذيها بأن يسلك طريقاً دائرياً خلال حارات (كالوتولا) . وإذ مرت العربة بدار معينة فى ذلك الحى ، أطل (رامش) من نافذة العربة فى لهفة ، فلم يتبين ما ينم عن أى تغير طرأ على المعالم المألوفة للدار . وأرسل زفرة حرى ، نبهت (كمالا) من إغفاءة كانت قد استغرقت فيها ، فسألته عما به ، ولكنه قال وهو يتهالك فى مقعده : « لاشىء ! » . وظل جالساً فى مكانه بلا حراك ، حتى بلغت العربة غايتها . وكانت (كمالا) طيلة الوقت مستسلمة للإغفاء فى الركن الذى جلست فيه . ولم يتمالك (رامش) نفسه من الشعور بإحساس طارئ جعله يكره مجرد وجودها !

ووصلا إلى المحطة مبكرين ، فما لبثا أن استقرا فى المقصورة التى كان (رامش) قد احتجزها فى الدرجة الثانية . وأعد (رامش) فراشاً لكمالا فى أحد الأسرة المنخفضة فى المقصورة ، وخفف الضوء ، وأغلق المصاريع الخشبية للنوافذ ، ثم قال : « لقد فاتت ساعة نومك ، فخير لك أن تأوى إلى الفراش ! » . ولكنها قالت : « ألا أستطيع أن أجلس هنا ، فأنظر خلال النافذة حتى يتحرك القطار ، وبعد ذلك أتهيأ للنوم ! » . ووافق (رامش) ، فجلست كمالا على حافة السرير ، ورفعت نقابها ، وخفضت مصراع النافذة القريبة ، ثم مضت تراقب الناس ، بينما جلس (رامش) فى منتصف مقعده مسرحاً بصره وهو تائه الفكر . وعندما بدأ القطار يتحرك ، وقع بصره فجأة على مسافر وصل متأخراً ، فانطلق يجرى على الرصيف .. وخيل إليه أن ملامح الرجل مألوفة لديه .

وقهقهت (كمالا) فجأة فى اللحظة التالية ، فأطل (رامش) من النافذة ، ورأى المسافر المتأخر يناضل ليتخلص من قبضة موظف من موظفى المحطة كان يحاول أن يبقيه بعيداً عن القطار الذى تحرك . وأفلح الرجل أخيراً فى القفز إلى القطار ، وإن بقيت الملفعة — التى كان يلفها حول وجهه — فى يد الموظف ! .. وإذ مال الرجل خلال إحدى النوافذ ليتناول الملفعة من الموظف ، استطاع (رامش) أن يعرفه ، فإذا هو .. (أكشاى) ! .. وتمالكت (كمالا) نفسها بعد قليل ، فكفت عن الضحك من هذا الموقف . فقال لها رامش : « لقد تجاوزت الساعة النصف بعد العاشرة ، وها قد انطلق القطار ، فخير لك أن تنامى الآن ! » .

فاندست الفتاة فى سريرها منصاعة ، ولكنها ظلت لا تقوى على كبت الضحك بين آن وآخر ، حتى غلبها النعاس . أما (رامش) ، فلم ير فى الحادث الذى وقع على رصيف المحطة ما يدعو للضحك .. كان يعرف أن ليس لأكشاى علاقة بالريف ، إذ أن أسرته كانت تقيم فى (كلكتا) منذ أجيال . فلم إذن كان مستميتاً فى محاولة اللحاق بهذا القطار بالذات ؟ .. كان التفسير الوحيد لذلك ، هو أنه كان يتعقب رامش وكمالا !

* * *

● وأحس (رامش) بأن اتجاه (أكشاى) إلى القيام ببعض تحريات عنه فى بلدته ، أمر من أبغض الأمور ، إذ أنه يجعل سيرته وسمعته مضغة فى أفواه قومه . وكان هذا من شأنه أن يزيد الأمر بشاعة . ولم يتمالك أن راح يصور لنفسه انتشار الفضيحة فى البلدة . والمرء فى مدينة كبيرة مثل (كلكتا) يستطيع أن يجد مكاناً مغموراً يتوارى فيه ، فى مثل هذه الظروف . أما فى بلدة ريفية صغيرة ، فإن أتفه الأمور كفيل بأن يثير ضجة لا مهرب منها ! .. وأخذ (رامش) يرتجف إشفاقاً من العاقبة كلما ازداد استرسالا فى تصور الموقف !

وعندما وقف القطار فى (باراكبور) ، أطل (رامش) ، فلم ير (أكشاى) يغادر القطار . وفى (نايهاتى) صعد إلى القطار عدد من الركاب ، وهبط عدد آخر ، ولكن (أكشاى) لم يكن بينهم . وعاد (رامش) يطل فى (باجولا) ، ولكنه لم يلمح لأكشاى أثراً ، ولم يبرح الرجل القطار فى أى من المحطات التى تلت ذلك ، وعلى الرغم

مما كان قد حل برامش من تعب ، فإنه لم يستسلم للنعاس إلا فى ساعة متأخرة .

وفى باكورة الصباح التالى ، بلغ القطار محطة (جوالوندو) حيث يهبط الذاهبون إلى شرق البنغال ، ليجتازوا النهر . ولمح (رامش) أكشاى يسرع نحو البواخر النهرية ، وقد لف وجهه فى الملفعة ، وأمسك بحقيبة صغيرة . ولم تكن الباخرة الراحلة إلى بلدة (رامش) لتغادر الميناء قبل ساعات ، ولكن كانت ثمة باخرة أخرى على وشك الإقلاع وقد تصاعد البخار منها ، وأخذت ترسل صفيراً قلقاً ، متعجلا .. فسأل رامش أحد رجالها : « إلى أين تذهب هذه الباخرة ؟ » .. فكان الجواب : « إلى الغرب » .. وعاد يسأل : « وأين تنتهى رحلتها ؟ » ، فقيل له : « فى بنارس ، إذا كانت المياه على ارتفاع كاف فى النهر » .

وعمد (رامش) فى الحال إلى حجز قمرة ، حتى إذا استقرت (كمالا) بها ، هبط إلى البر ، فابتاع كميات من الأرز ، والقطانى (البقول) ، وطلح الموز ، واللبن ، كمؤونة للرحلة . أما (أكشاى) فكان فى تلك الأثناء قد سبق غيره إلى الباخرة الأخرى ، وجثم فى مكان على سطحها يمكنه من أن يرى كل صاعد وكل هابط . ولم يكن يبدو على المسافرين على تلك الباخرة أى تعجل ، إذ لم يكن موعدها قد حان بعد ، فراحوا يقضون وقتهم فى غسل ثيابهم ، أو الاستحمام .. بل إن بعضاً منهم راحوا يطهون طعامهم ويتناولونه على ضفة النهر . وظن (أكشاى) أن (رامش) قد اصطحب (كمالا) إلى أحد المطاعم المجاورة ليتناولا الفطور . ولما لم يكن على دراية بالمدينة ، فقد رأى من الأسلم

أن يبقى على الباخرة . وأخيراً ، انبعث صفير الباخرة ، ولما يبد أثر لرامش ! وشرع المسافرون يتقاطرون إلى سطح الباخرة ، على ألواح من الخشب استخدمت كمعبرة . وإذ اشتد الصفير وتتابع ، أسرع المتلكئون من المسافرين ، ولكن (رامش) لم يظهر بين المتأخرين ، ولا بين المتقدمين !.. ورفعت المعبرة ، وأمر ربان السفينة برفع المرساة ، إذ ذاك صاح (أكشاى) : « مهلا ، أريد أن أهبط ! » ولكن الملاحين لم يعبأوا به ، فلم يسعه سوى أن يقفز إلى الرصيف ..

ولم يلح لرامش أثر فى المرفأ ! .. ولمح (أكشاى) قطار الصباح الذاهب إلى (كلكتا) ، وقد بارح المحطة ، فانتهى به تفكيره إلى أن (رامش) ولابد قد فطن إليه — أثناء محاولته اللحاق بالقطار — وحدس نواياه ، فعدل عن رحلته إلى بلدته ، وارتد عائداً إلى (كلكتا) فى قطار الصباح . ومن الصعوبة بمكان أن تعثر على شخص فى مدينة كبيرة مثل (كلكتا) !

الفصل الثانى والعشرون

● قضى (أكشاى) يومه كله متسكعاً فى (جوالوندو) . حتى إذا حل المساء ، استقل القطار الذاهب إلى (كلكتا) . وما أن وصل إليها — فى الصباح الباكر من النهار التالى — حتى يمم أولا شطر مسكن (رامش) فى حى (داردجيبارا) ، ولكنه ألفى الباب مغلقاً ، وقيل له إن الدار خالية ، فتحول متجهاً إلى حى (كالوتولا) . فإذا مسكن

(رامش) هناك خال ، ومن ثم أوى إلى دار (أنادا بابو) المجاورة ، وقال لجوجندرا : « لقد أفلت منى ! لم أستطع العثور عليه ! » ، فهتف (جوجندرا) : « ماذا تعنى ؟ » . وانطلق (أكشاى) يروى له ما حدث بالتفصيل ، فإذا شكوك (جوجندرا) فى أمر (رامش) تتحول إلى يقين ، لا سيما حين علم أن (رامش) بادر إلى الفرار مع (كمالا) عندما رأى (أكشاى) . على أنه قال : « ومع ذلك ، فإن هذه القرينة لن تجدينا فى بلوغ غرضنا ، لأن الأمر لم يعد يقتصر على (همنالينى) ، بل إن والدى أصبح هو الآخر يردد عين اللغو الفارغ عن عدم فقدان الثقة برامش ، حتى يسمع القصة بحذافيرها من (رامش) نفسه !.. لقد تطورت الأمور إلى درجة تجعلنى أعتقد أن (رامش) لو جاء اليوم وقال : « ليس فى وسعى بعد أن أذكر لكم شيئاً » ، لما تردد أبى فى أن يسمح له بالزواج من (همنالينى) . ومع ذلك ، فالمرء مضطر إلى أن يتعامل مع أهل كهؤلاء ! .. إن أبى لا يحتمل أن يرى (همنالينى) حزينة من أجل أى شىء ، ولو أنها سعت إليه اليوم وقالت باكية : إنها تريد الزواج من (رامش) برغم أنه متزوج من امرأة أخرى ، لوافق على ذلك ! .. لابد من أن ننتزع اعترافاً مفصلا من (رامش) بأية وسيلة ، وكلما أسرعنا كان هـذا أفضل ، فلا تدعنا نفقد الأمل . سوف أعالج الأمر بنفسى ، وإن كنت لا أدرى كيف أتصرف ! .. بل من المحتمل ألا أجد وسيلة مع (رامش) سوى أن أنهال عليه لكماً ! .. حسناً .. أعتقد أنك الآن فى حاجة إلى الاغتسال ، وإلى تناول بعض الشاى ! » .

واغتسل (أكشاى) ، ثم جلس لتناول الشاى ، وذهنه لا يكف عن العمل ، حتى قطع عليه أفكاره مقدم (أنادا بابو) ، ممسكاً بيد ابنته . فما إن رأت (همنالينى) أكشاى ، حتى نكصت على عقبيها وغادرت الغرفة . وإذ ذاك صاح (جوجندرا) محنقاً : « هذا تصرف سيىء منك يا هيم ! .. يجب ألا تشجعها على مثل هـذا المسلك النابى يا أبت ، بل ينبغى أن تجبرها على العودة إجباراً ! .. تعالى يا هيم ! .. هيم ! » .. ولكن الفتاة كانت قد اندفعت صاعدة السلم . وتدخل (أكشاى) قائلا : « أعتقد أنك تفسد قضيتى يا جوجن . من الخير أن لا تذكر لها شيئاً عنى ، بل دع الزمن يسوى كل شىء . إنك إذا أجبرتها الآن على أمر ، فلن تكون النتيجة سوى ضرر لا سبيل إلى إصلاحه!» .. ثم غادر (أكشاى) الدار ، بعد أن فرغ من تنـاول الشاى .

* * *

● كان معين هذا الشاب من الصبر لا ينضب : وكان ، حين تبدو الظواهر ضده ، يدرك أن ليس ثمة ما هو أفضل من القعود والانتظار . كما كان طبعه غاية فى الهدوء والبرود ، فلو أنه أهين لما نظر فى ترفع إلى من أهانه ، ولا أشاح عنه فى اشمئزاز ، بل إن الإهانات وأنواع الازدراء لم تكن لتنال منه ! .. كان على قدر كبير من الصفاقة ! ومن ناحية أخرى ، لم تكن تهتز فى بدنه جارحة إذا عامله أصدقاؤه بكل لطف وشهامة !

وما إن انصرف الشاب ، حتى أعاد (أنادا بابو) ابنته إلى مائدة الشاى . وكانت الحمرة قد غاضت من وجهها ، وطوقت عينيها هالات

سمراء . ولم ترفع بصرها إلى أخيها حين ولجت الغرفة ، إذ كانت تعرف أن صبره قد نفد إزاء (رامش) وإزاءها ، وأنه قد أصدر حكمه بقسوة فى أمرهما ، ومن ثم كانت تجفل من أن يلتقى بصرها ببصره !..
ومع أن (الحب) صان إيمان همنالينى برامش من أى فتور ، إلا أنه لم يقو على كتم صوت العقل . وإذا كانت الفتاة قد أكدت لجوجندرا — وهى تبرح الغرفة منذ يومين — أنها لن تفقد ثقتها فى (رامش) ، إلا أنها — فى وحدتها فى جوف الليل — شعرت بهذه الثقة تتململ فى أعماقها ! .. فالواقع أنها لم تر أى تفسير معقول يبرر المسلك الشاذ الذى أقدم عليه (رامش) . ولقد ناضلت جاهدة لتصد الشك عن حصن إيمانها ، بيد أن الريب راحت تتساقط كالمطر على ذلك الإيمان . وكما تضم الأم طفلها إلى صدرها لتحميه ، فإن (همنالينى) راحت تضم ثقتها فى (رامش) إلى فؤادها ، كلما هاجمتها قرينة من القرائن الباعثة للشك . ولكن .. ترى هل ستظل من القوة دائماً ، بحيث تذود عن تلك الثقة ؟!

وفى تلك الليلة ، اتخذ (أنادا بابو) مخدعه فى الغرفة المجاورة لغرفة (همنالينى) ، فعرف كيف قضت ليلتها مؤرقة . وكثيراً ما سعى إلى مخدعها ، فوجدها مسهدة . وكان الجواب الدائم الذى ترد به على أسئلته القلقة : « ولماذا لم تنم أنت يا أبت ؟ .. إننى أشعر بالنوم يراود عينى .. بل ها قد بدأت أغفو ! » .

واستيقظت مبكرة ، فصعدت تتمشى على سطح الدار . كانت جميع الأبواب والنوافذ فى مسكن (رامش) موصدة ، ومحكمة الرتاج .

ولم تلبث الشمس أن بزغت رويداً من وراء السقوف القائمة فى الناحية الشرقية . ولكن اليوم الوليد بدأ فى عينى (همنالينى) كئيباً ، راكداً ، خالياً من البهجة ، بل باعثاً للانقباض . فلم تتمالك أن ركعت فى ركن من السطح ، ودفنت وجهها فى راحتيها ، ثم طفقت تبكى ! .. ومر اليوم دون أن تحظى بزيارة من حبيبها . وحانت ساعة الشاى فى الأصيل فلم يكن مقدمه مرتقباً لتنعم بلذة انتظاره .. والأنكى من هذا ، أنها حرمت من تلك السلوى التى كانت تنشأ عن شعورها بأنه قريب منها ، فى البيت المجاور !

* * *

● وأجفلت إذ انبعث صوت أبيها يناديها : « هيم ! .. هيم ! » ، فأسرعت تمسح آثار حزنها ، وأجابت : « نعم يا أبت ؟ » .. وقال (أنادا بابو) وهو يظهر على السطح ويقبل عليها يربت منكبيها : « لقد استيقظت اليوم متأخراً » .. كان قلقه على ابنته قد أقض مضجعه ، فلم يواته النعاس إلا عند اقتراب الفجر ، ولم يستيقظ إلا حين داعبت أشعة الشمس عينيه ، فاغتسل فى عجلة ، وأسرع ليطمئن على ابنته ، ولكنه وجد غرفتها خالية .. وذاب قلبه أسى وهو يراها فى لوعتها ، فقال : « هيا انزلى وتناولى الشاى يا عزيزتى » . وكرهت (همنالينى) أن تواجه (جوجندرا) حول مائدة الشاى ، ولكنها أيقنت أن أى تحول عن عاداتها المألوفة كفيل بأن يضاعف من كدر أبيها ، لا سيما وقد اعتادت أن تصب له الشاى بنفسها ، فلم تشأ أن تهمل هذه الرعاية البسيطة .

وحين اقتربا من باب الغرفة ، سمعت (همناليني) صوت (جوجندرا) وهو يتحدث مع شخص ما ، فخفق قلبها إذ خطر لها أن (رامش) قد يكون فى الغرفة ، فما كان سواه يرتقب فى مثل هذه الساعة المبكرة . ودخلت الحجرة وكل جارحة فى جسمها تختلج ، ولكنها صدمت إذ رأت .. (أكشاى) ! ولم تعد تقوى على تمالك نفسها ، فلاذت بالفرار . فلما أعادها أبوها ثانية إلى الغرفة ، جلست لصق مقعده ، وانصرفت بكليتها إلى إعداد الشاى . واشتد حنق (جوجندرا) لتصرفها ، فما كان تعلق (هيم) برامش إلى هذا الحد بالأمر الذى يطيقه . وزاد من امتعاضه ما رآه من مشاطرة (أنادا بابو) لأساها ، ومن محاولتها اتخاذ حب أبيها لها حجاباً بينها وبين الدنيا ؛ وراح يقول لنفسه : « إننا جميعاً مذنبون ! .. عندما يحملنا حبنا لها على أن نؤدى واجبنا وأن نعمل لسعادتها الحقيقية ، فإننا لا نحظى منها بكلمة شكر .. بل إنها تعتبرنا فى قرارة نفسها مذنبين ! إن أبى لا يعرف مطلقاً كيف يعالج هذا الموقف ، فخليق به فى هذه المرحلة أن يعمد إلى الشدة بدلا من أن يدللها . إنه يؤخر مواجهتها بالحقيقة القاسية خوفاً من إيلامها ، ومن ثم فسوف تكون صدمتها أعنف ! » .

وقال أخيراً بصوت مرتفع : « أتعرف ما الذى حدث يا أبى ؟ » ..

فأجاب (أنادا بابو) فى لهفة : « لا .. ماذا جرى ؟ »

— لقد رحل (رامش) فى طريقه إلى بلدته بقطار (جوالوندو) فى الليلة السالفة ، مصطحباً زوجته . فلما رأى (أكشاى) يستقل القطار ، عدل عن خطته ، وعاد إلى (كلكتا) .

وارتعشت يد (همناليني) ، فتناثر الشاى وهى تصبه . وأسرعت تتهالك فى مقعدها . بينما رمقها (جوجندرا) من ركن عينه وهو يمضى قائلا : « لست أفقه الحافز الذى دفعه إلى الفرار ، مع أن (أكشاى) عرف كل شىء عنه . لقد كان مسلكه السابق وضيعاً فى حد ذاته ، ولكن الأنكى منه أن يتولاه الخوف وأن يبادر هكذا إلى الفرار ! .. إن مسلكه فى رأيى لا يستحق سوى الاشمئزاز . لست أعرف رأى (هيم) فى ذلك ، ولكنى أعتبر فراره دليلا كافياً على جرمه ! » ..

فنهضت (همناليني) وكل جسمها يرتجف ، وقالت لأخيها : « لست راغبة فى دليلك هذا ، فشكراً لك .. بوسعك أن تدينه كما تشاء ، أما أنا فلا أجد من حقى أن أحكم عليه ! » .

جوجندرا : « أليس هناك ما يجعل من حقنا أن نهتم بالرجل الذى كان موشكاً أن يتزوج منك ؟ »

همناليني : « لم أقل شيئاً عن الزواج . افصم الخطبة أو لا تفصمها ، كما يحلو لك .. ولكن ، لا تحاول أن تحطم إصرارى على موقفى ! » ..

واختنق صوتها بالبكاء ، فلم تقو على المضى فى الحديث . ونهض (أنادا بابو) فضم وجهها المندى بالدموع إلى صدره ، واكتفى بأن قال : « هيا يا عزيزتى .. لنصعد إلى الطابق العلوى » .

الفصل الثالث والعشرون

● أقلعت الباخرة التى استقلها (رامش) و (كمالا) — من ميناء (جوالوندو) — فى الموعد المحدد لها . ولم يكن ثمة ركاب فى الدرجتين الأولى والثانية غيرهما ، ومن ثم استأجر (رامش) قمرة أخرى متصلة

بالقمرة التى احتجزها من قبل . واحتست (كمالا) قدحاً من اللبن ، ثم جلست تتأمل مناظر النهر خلال باب القمرة المفتوح ، وقد تملكها الإعجاب . فسألها رامش : « أوتدرين إلى أين نحن ذاهبان يا كمالا ؟ » .. قالت : « إلى البلدة » .

رامش : « إنك لم تكونى راغبة فى الذهاب إليها ، ولذلك فلن نذهب ! » .

كمالا : « هل عدلت من أجلى ؟ »

رامش : « نعم .. من أجلك ! »

فعضت شفتها وقالت : « لم فعلت هذا ؟ ما كان لك أن تعنى بكلمة عابرة لم أكن أعنيها .. إنك سريع الاستياء ! » . فابتسم رامش وقال : « بل إننى لم أستأ مطلقاً ، ولكننى لم أكن راغباً أنا الآخر فى الرحيل إلى البلدة ! » . وهنا سألته (كمالا) فى لهفة : « إذن ، فإلى أين نذهب ؟ » .. فقال : « إننا ذاهبان إلى ريف الغرب » . وفتحت (كمالا) إذ ذاك عينيها على سعتهما .. أى معنى حافل يتمثل فى كلمة (الغرب)، فيخلب ألباب أولئك الذين لم يغادروا من قبل مواطنهم !.. معنى حافل بصور الأضرحة المقدسة ، والجو المنعش ، والأماكن غير المألوفة ، والمناظر الجديدة ، والأمجاد الغابرة للملوك والأباطرة ، والمعابد الرائعة ، وأساطير الماضى ، وحكايات عصر البطولة !

وتساءلت (كمالا) وقد استخفها الطرب : « وإلى أى مكان من الغرب نذهب ؟ » . فقال: « إننى لم أقرر بعد . سنمر بمونغير ، وباتنا، ودينابور ، وبوكسار ، وغازيبور ، وبنارس .. وسنهبط فى أحد هذه

الأماكن » . وكان بعض هذه الأسماء مألوفاً لدى (كمالا) ، والبعض غريباً عنها ، ولكن ذكرها أذكى خيالها ، فصفقت هاتفة : « ما أبدع هذا ! » ، فقال رامش : « وما بعد ذلك أبدع ! .. على أننا يجب أن ندبر الآن أمر غذائنا أثناء الرحلة ، فما أحسبك راغبة فى أن تتناولى وجباتك من مطبخ الملاحين ! » ، فابتسمت صائحة : « لتحفظنا السماء! لا ، بالطبع ! » .

رامش : « إذن ، فماذا نفعل ؟ »

كمالا : « سأتولى طهو وجباتنا بنفسى ! »

رامش : « وهل لك دراية بالطهو ؟ »

فقهقهت (كمالا) قائلة : « لست أدرى ما الذى تظنه بى ؟.. هل لى دراية بالطهو ! أو تظننى بلهاء ؟ لقد كنت أقوم بالطهو دائماً فى بيت خالى » . وإذ ذاك قال (رامش) معتذراً : « ما كان ينبغى أن أوجه إليك هذا السؤال . ولكن ، يحسن بنا أن نبدأ استعدادنا من الآن أليس كذلك ؟ » .. وأسرع فغاب عنها برهة ، ثم عاد يحمل موقداً حديدياً (من النوع المعروف بالكانون) . على أن هذا لم يكن كل ما فى الأمر من تدبير .. إذ كان على الباخرة غلام يدعى (أومش) ، ينتمى إلى طائفة (الكاياستا) أو (الكتاب) — (وهى طبقة لا يعلو عليها فى البنغال سوى البراهمة) — فاستأجره (رامش) ليساعد (كمالا) مقابل تكفله بأجر سفره إلى (بنارس) ومبلغ زهيد يدفعه إليه كل يوم . ثم سأل (كمالا) : « ما الذى نتناوله فى الفطور يا كمالا ؟ »

— وماذا ترجو إذا كنت لم تحضر لى سوى أرز وعدس ؟ .. سنأكل (كشرى) اليوم !

وحصل (رامش) على بعض التوابل من بحارة السفينة ، بتوجيه من (كمالا) ، فسألته وقد استخفها جهله بشئون المطبخ : « ما الذى تتوقع أن أفعله بهذه التوابل الآن ؟ ليس بوسعى أن أسحنها بغير هاون ومدق كما تعلم ! » . وابتلع (رامش) هذا التأنيب ، وأسرع باحثاً عن مطلبها . ولم يجد ما أرادته تماماً ، ولكنه استطاع أن يستعير من البحارة مدقاً حديدياً ، وجرنا . ومع أن (كمالا) كانت قد اعتادت سحن التوابل والبهارات فى الهاون الخاص بها ، إلا أنها كانت مضطرة لمسايرة الظروف . واقترح (رامش) أن يكل هذه المهمة إلى شخص آخر ، ولكنها استبعدت هذا الرأى ، وأقبلت على العمل بنشاط وتحمس . ووجدت فى العمل بأداة لم تألفها متعة ، فكانت تضحك إذا ما تطايرت التوابل وتناثرت فى كل صوب . وسرت عدوى الطرب والمرح منها إلى (رامش) ، فحذا حذوها . ولما انتهت مرحلة سحن البهارات ، شمرت (كمالا) ذيل ثوبها ، واختارت ركناً أحاطته بسياج ليكون مطبخاً لها . وكان ثمة وعاء كبير من الفخار ، لاختزان الحلوى ، فاستخدمته كآنية للطهو . وإذ وضعت فيه ماء وتركته يغلى على النار ، اقترحت على (رامش) أن يذهب فيغتسل ، بينما تعد له فطوره ، فاستجاب لها ؛ ووجد الطعام قد طهى بالفعل عندما عاد . وإذ ذاك ، كان السؤال : ما الذى يمكن استخدامه كطبق ؟ .. وأبدى (رامش) اقتراحاً وهو موجس .. اقترح أن يستعير طبقاً من أحد الملاحين المسلمين ، بيد أن

(كمالا) ارتاعت لهذه الفكرة ، وإن اعترف لها (رامش) — بصوت خفيض — بأن هذه لن تكون المرة الأولى التى يخرق فيها تقاليد الديانة الهندوكية فيما تعتقده طهراً ؟ .. وقالت (كمالا) معقبة : « ليس لك أن تتحلل من هذه التعاليم الآن ، كما ينبغى ألا تعود إلى ذلك ، فإنى لا أتسامح فى تلك الأمور ! » .. ثم تناولت الغطاء المسطح الذى كان يعلو الوعاء ، فنظفته بعناية ، ثم وضعته أمامه قائلة : « استعمل اليوم هذا ، على أن نستبدله متى استطعنا بشىء أفضل منه ! »

وجلب (رامش) ماء فغسل بقعة من سطح المركب ، وجلس يتناول طعامه ، وهو مرتاح إلى أنه لم يتجاوز التزاماته الدينية . وما أن تناول حفنة أو اثنتين ، حتى هتف : « لعمرى ! .. ما أبدع طهوك ! » .. فصاحت مستاءة : « لا داعى لأن تسخر ! » .. قال : « لست أسخر ، بل سترين بنفسك عندما تتناولى نصيبك من هذا الطعام » .. وسرعان ما أتى على ما كان فى الطبق ، وطلب مزيداً ، فأعطته (كمالا) أكثر من النصيب الأول .. وهتف بها : « ما هذا الذى تفعلين ؟ .. هل أبقيت لنفسك ؟ » .. قالت وقد سرها أن ترى (رامش) يستطيب الطعام : « آه .. لا بأس ! .. لا يزال فى الآنية كثير ! » .. فسألها : « وفيم ستأكلين ؟ » ، وأجابت ، وهى لا تجد بأساً فى أن تستعمل طبقه ما دامت زوجة له : « سأستعمل غطاء الآنية طبعاً ! » . واستنكر (رامش) هذا ، فمن تقاليد الهندوكيين ألا يستعمل امرؤ متاع امرىء آخر ، ولكن (كمالا) صاحت : « ولماذا ؟ » .. قال : « لأنه لا يجوز » .

— بل يجوز .. إننى أدرك صحته .. ولكن فيم تأكل يا أومش ؟

قال الصبي : « هناك رجل يبيع الحلوى فى السفينة ، وسأحصل منه على بعض أوراق الشجر فأستخدمها كطبق ! »

وقال (رامش) لكمالا : « إذا كنت ستستخدمين هذا الغطاء ، فهاته أغسله لك غسيلا جيداً ! » .. ولكنها أجابته فى استهجان : « فيم اهتمامك بأمر لا يستحق كل هذا العناء ؟ » .. وما لبثت بعد دقائق أن هتفت : « لقد نسيت أن تحضر لى بعض نبات الفوفل ، ومن ثم فلن أملك أن أقدم لك ما تمضغه منه ! » ، فأجاب : « فى السطح الأسفل من الباخرة رجل يبيعه » . وسرعان ما جاءها بعدد من هذه الأوراق .

على أن (رامش) كان مضطرب البال ، لا يفتأ يسائل نفسه : « كيف يمكن أن أنتزع من ذهنها ما تعتقده من أننا زوجان ؟ » .. كانت (كمالا) منساقة إلى أن تقوم بأعباء الزوجة ، دون ما معونة أو تدريب ، إذ كانت حياتها فى دار خالها — من قبل — سلسلة من الطهو ، وتربية الأطفال ، والتدبير المنزلى . ولقد بهرت (رامش) بعنايتها ، ومهارتها والنشاط المرح الذى راحت تؤدى به أعمالها . ولكنه كان لا يلبث أن يرتد إلى السؤال الذى كان يضنيه : ما الذى ستصير إليه علاقتهما فى المستقبل ؟.. لم يكن ليتصور أن يستبقيها معه ، لا ولا أن يقصيها عنه !. ثم أين يجب أن يقوم الحد الفاصل بين ما ينبغى وما لا ينبغى فى اتصالاتهما اليومية ؟ .. وتمنى لو أن (همنالينى) كانت معهما !.. ولكن هذه غدت أمنية مستحيلة ، لا ينبغى أن يفكر فيها وهو يتدبر حلا للموقف الراهن ! .. وأخيراً ، انتهى تفكيره إلى أن التكتم لا ينبغى أن يمضى إلى أبعد من هذا الحد ، بل لابد من أن تعرف (كمالا) الحقيقة كلها !

الفصل الرابع والعشرون

بلغت الباخرة — بعد الظهر — منطقة ضحلة من النهر ، أخفقت كل الجهود فى تعويمها فيها ، وما لبث أن اقترب الليل وهى ما تزال معطلة عن السير . وفوق الحافة العليا للضفة — وكانت بارتفاع أعلى منسوب تصل إليه مياه النهر إذا ما حان موسم الفيضان — بدت الأرض مسطحاً من الرمال ينحدر إلى حافة الماء ، تظهر عليه آثار أقدام الطيور المائية ، كما لو كانت نقوشاً دقيقة . وأقبلت القرويات يحملن الجرار يملأنها للمرة الأخيرة قبل هبوط الظلام ، فتطلعن بأعين فضولية إلى الباخرة .. وكانت المتمسكات بالحياء منهن يرسلن النظرات من وراء أقنعتهن المسدلة على وجوههن .. أما ذوات النفوس الجريئة ، فقد تخلصن من هذه الحجب ! .. وراح الصبية يرقصون ويصيحون على الضفة ، ساخرين من الباخرة وهى فى مأزقها ، بعد أن كانت تمر بهم من قبل ، شامخة بأنفها فى الهواء ! .

وانحدرت الشمس للمغيب وراء الرمال . وكان (رامش) يقف عند حاجز السفينة ، مسرحاً بصره عبر النهر إلى سماء الغرب وهى تتوهج بآخر أشعة الشمس الآفلة ، حين خطت (كمالا) من وراء سياج المطبخ ووقفت لدى باب القمرة ، ثم سعلت فى صوت خافت لتنبه (رامش) . فلما لم يلتفت ، تناولت حزمة المفاتيح ، وأخذت تهزها وتتعمد ارتطامها بالباب ! .. واضطرت إلى أن تعنف فى الهز ، قبل أن يلتفت (رامش) ، حتى إذا رآها ، اجتاز سطح السفينة إليها ، وقال : « إذن فهذه طريقتك فى ندائى ؟ » .



فلما لم يلتفت ، تناولت حزمة المفاتيح ، وأخذت تهزها وتتعمد ارتطامها بالباب !..

— لم تخطر ببالى طريقة أخرى !

— وكيف ؟ .. لماذا تظنين أن أهلى أطلقوا علىّ اسماً ، إذا لم يكن هذا الاسم للنداء ؟ .. لم لا تصيحين عالياً : (يا رامش بابو !) ، إذا أردتنى لأى أمر ؟ .

واستنكرت منه — مرة أخرى — هذا اللون غير المستساغ من الدعابة .. أفيليق بالزوجة الهندوكية أن تخاطب زوجها باسمه ؟ .. وضارعت حمرة خدى (كمالا) حمرة الشمس الآفلة ، وصاحت وهى تشيح بوجهها : « لست أفقه ما تقول .. ألا اسمع ، إن عشاءك معد ، فيحسن بك أن تقبل لتناوله ، فإنك لم تحظ بفطور طيب اليوم ! » .. وكانت نسمات النهر قد أيقظت شهية (رامش) ، وإن لم يقل لكمالا شيئاً بهذا الصدد ، خشية أن تظلم نفسها بإيثاره بالقسط الأوفر من الطعام . على أن رضاءه تضاعف حين دعته للعشاء دون أن ينبهها إلى جوعه . ومن الصحيح أن هذا الرضى كان راجعاً — فى أحد عناصره — إلى توقع إشباع الجوع المادى ، ولكن كان هناك عنصر آخر ، تمثل فى لذة الشعور بأن ثمة من كانت تفكر فيه ، وتعمل من أجله ! .. ولم يستطع أن يخفى عن نفسه إدراك هذا العنصر ، ولكنه برغم ذلك كان مضطراً إلى أن يواجه الحقيقة الممضة ، التى كانت تذكره بأنه لم يكن صاحب الحق الشرعى فى هذه الرعاية التى قدرها أعظم تقدير ، والتى قامت على أساس من وهم زائف ! .. وتنهد فى أسى ، وهو يلج القمرة مثقل القلب . وما كان وجومه ليخفى على (كمالا) ، فقالت فى دهشة : « لايبدو عليك أنك راغب فى العشاء .. لقد توقعت أن تكون جائعاً .. إنى آسفة إذا كنت

قد تعجلتك دون رغبة منك ! » . فسارع (رامش) إلى التظاهر بالسرور ، وقال : « ما تعجلتني أنت ، وإنما جوعي هو الذي جاءني » : ثم تلفت حوله هاتفاً : « عجباً ! .. ولكني لا أرى شيئاً يؤكل : صحيح أنني جائع ، ولكني لا أحسب معدتي تقوى على هضم شيء كهذا ! » .. وأشار إلى أغطية الفراش وأثاث القمرة ، وهو مسترسل في القول : « لم أتعود منذ نشأتي مثل هذا الغذاء ! » .

وانفجرت (كمالا) ضاحكة ، حتى إذا تمالكت نفسها ، قالت : « عجيب منك ألا تصبر الآن قليلا ، في حين أنك كنت في شغل عن الأكل والشرب وأنت تسرح بصرك نحو الشمس الغاربة ! .. فهل استيقظت شهيتك فجأة عندما ناديتك ؟ .. حسناً .. انتظر دقيقة واحدة ، ريثما أحضر لك الطعام » .. فقال : « ألا فأسرعي ، وإلا فلا تلومي غير نفسك إذا أنا التهمت أغطية الفراش ! » .. ولم يخفف التكرار من تأثير النكتة ، فانطلقت (كمالا) مقهقهة ، وأخذ جرس ضحكتها الفضي يجلجل في القمرة بعد أن بارحتها لتحضر الطعام .. بينما غاض مرح (رامش) بمجرد أن أولته ظهرها ! .. وسرعان ما عادت (كمالا) تحمل الطعام ، فمسحت الأرض بطرف ثوبها ، ووضعته عليها . وهتف رامش : « ماذا تفعلين ؟ » . فقالت وهي تكشف عن بعض الكعك المقلو ، والخضر : « لا بأس ، فإنني سأغير الثوب حالا » .. وصاح (رامش) : « مرحى ! .. من أين حصلت على الكعك المقلو ؟ » .. ولم تبد رغبة في أن تطلعه على السر في الحال ، إذ أجابت في تكتم : (احدس !) .. واندفع (رامش) يذكر عدداً من الافتراضات الخيالية

التي كانت (كمالا) ترفضها في استنكار ، وما لبث في النهاية أن قال : « لابد أن علاء الدين - صاحب المصباح السحري في (ألف ليلة وليلة) - قد أرسل مارده فأحضرها لك ساخنة من بلوخستان ! » .. وإذ ذاك نفد صبرها ، فتحولت مستاءة منه ، قائلة أنها لن تصارحه بالحقيقة حتى يكف عن هذا المزاح . وهنا قال في رجاء : « لقد عجزت عن التخمين ، فأنبئيني .. الحق أنني لا أدري كيف استطعت أن تحصلي على كعك مقلو ، ونحن في عرض النهر .. على أنه كعك لذيذ ، على أية حال ؟ » .. وأبدى عملياً مدى إعجابه الذي جعل شهيته تتغلب على فضوله !

* * *

● وكانت الحقيقة تتمثل في أن (كمالا) انتهزت فرصة وقوف السفينة لانخفاض مياه النهر ، فأوفدت (رامش) إلى أقرب قرية ليبتاع مايعوض القدر الذي استهلك من المؤونة . إذ كان قد تبقى معها عدد من الروبيات التي نالتها - كمصروف لها - من (رامش) ، حين ذهبت إلى المدرسة : ومن ثم طلبت بعض الدقيق والمسلي ، ثم سألت (رامش) ، عندما جاءها بما طلبت : « وماذا تبتغي لنفسك ؟ » .. فقال : « لقد لمحت بعض اللبن الخثر (الرايب) عند لبان في القرية ، ولدينا كثير من الموز الأخضر في القمرة ، فإذا ابتعت مع اللبن بعض الأرز المسحوق ، صنعت لنفسي عصيدة رائعة ! » .. وأشفقت (كمالا) على الصغير ، فسألته : « هل تبقت معك نقود ؟ » .. ولكنه أجاب : « لم يبق شيء ! » . وكانت هذه هي المشكلة !.. فقد كانت (كمالا) تأبى أن تطلب من

(رامش) نقوداً . وما لبثت بعد قليل من التفكير أن قالت : « حسناً ، إذا لم تستطع أن تنال عصيدتك اليوم ، فعليك بالكعك المقلو . هيا وساعدنى فى إعداد العجيبة » . ولكنه عاد يسألها : « واللبن الخثر يا أماه ؟ » ، فقالت : « اسمع يا أوش .. انتظر حتى يتناول سيدك العشاء ، فأنبئه بأنك تريد نقوداً لشراء بعض لوازم لنا » .

وفيما كان (رامش) فى منتصف وجبته ، ظهر (أومش) ، ووقف يحك رأسه فى ذلة ، فلما تطلع إليه (رامش) ، تمتم : « جئت بشأن نقود لشراء اللوازم يا أماه » .. وفطن رامش فجأة إلى أن المرء لن يجد قوتاً ما لم ينفق من ماله ، وأنه لا يملك (مصباح علاء الدين) حتى يغنيه عن الإنفاق ، فهتف : « حقاً يا كمالا .. ما أظن أن لديك نقوداً ! » .. فتعللت (كمالا) بأنها نسيت أن تطلب . وحين فرغ (رامش) من عشائه ، أسلمها خزانة صغيرة بها نقود ، وقال : « يحسن بك أن تحفظى نقودنا ونفائسنا فى هذه الخزانة إبان رحلتنا » .

وإذ تبين (رامش) أن منطق الظروف أصبح يقتضى إلقاء أعباء تدبير حاجات الأسرة على (كمالا) ، عاد إلى موقفه لدى سياج السفينة ، ووقف يتأمل آخر فلول النور وهو يخبو فى الناحية الغربية من السماء ، بينما أسرع (أومش) إلى القرية ، وعاد فقام بإعداد (العصيدة) التى كان يشتهيها ، وانكب عليها يلتهمها . وفى خلال ذلك ، وقفت (كمالا) تستدرجه حتى ألمت بطرف عن حياته .. كان ابناً غير مرغوب فيه ، فى بيت تسيطر عليه زوجة أب ، فهرب من الدار ، وكان فى طريقه إلى (بنارس) حيث يقيم أحد أقارب أمه .. وقال الغلام : « لو سمحت

لى بالمقام معك يا أماه ، فلن أفكر فى الذهاب إلى أى مكان آخر ! » .

وحرك قوله — فى نفس (كمالا) — غريزة الأمومة الكامنة فى أعماق قلب كل فتاة ، لاسيما حين راح يخاطبها بلقب (أماه) فى سذاجة بريئة ، فقالت تطمئنه : « حسناً يا أومش .. ستصحبنا ! » .

الفصل الخامس والعشرون

● لاحت الشجيرات التى كانت متناثرة على ضفة النهر كسياج معتم أحاط بالسماء التى اصطبغت بألوان الشفق . وأقبل البط — فى أسراب تحلق خلال الظلمة التى كانت تجمع أطرافها — عائداً من رحلته اليومية فى موارد قوته ، إلى مواطنه الليلية فى البرك والبحيرات المنعزلة وسط الضفاف الرملية ، كما عادت الغربان إلى أوكارها ، وهى ترسل صياحها فى الجو . وجنحت كل القوارب إلى البر ، عدا مركب كبيرة شدت إلى الشاطئ فى صمت ، فبدت كلطخة سمراء على صفحة الخضرة الذهبية التى استحال إليها النهر الساكن . وسحب (رامش) مقعداً من الخيزران إلى مقدمة الباخرة ، وجلس فى الضوء الخافت المنساب من الهلال الجديد . وابتلعت ظلال الليل آخر خيوط الشفق فى الغرب ، وبدا وجه الأرض وكأنه يذوب فى ضباب شفاف ينيره ضوء القمر الواهن . وغمغم رامش : « هيم ! .. هيم ! » ، فإذا الاسم الحبيب يلتف حول قلبه فى حنان ناعم . وتجسم لفظ الاسم فى صورة لعينى الحبيبة المفقودة وقد تألقتا بحنان ملائكى ، وأخذتا ترمقانه خلال ضباب حالم ، وهما تسكبان ما كان يكمن فيهما من أسى ، فسرت رجفة فى جسد (رامش) وترقرق الدمع فى عينيه .

وانبسطت حياته خلال العامين الماضيين أمام عينيه . تذكر أول لقاء له بهمنالينى .. ما خطر له ببال فى تلك المناسبة ، أن ذلك اليوم سيكون من الأيام الحاسمة فى حياته ! .. كان (جوجندرا) قد اصطحبه إلى داره ، فارتبك الشاب الخجول حين رأى (همنالينى) على رأس مائدة الشاى . وما لبث الحياء أن فارقه رويداً ، فبدأ يرتاح إلى صحبتها : وعندما أخذت الألفة بينهما تزداد وتنمو ، خيل إليه أن كل ما قرأ من أشعار الحب والهوى ، إنما نظم من أجل (همنالينى) وحدها . وبدأ يزهو — فى قرارة نفسه — حين أحس بأنه صريع الغرام ، وراح يرثى لزملائه الذين كانوا مضطرين إلى استذكار قصائد الحب ليؤدوا امتحاناتهم ، فى حين أن الحب غدا بالنسبة له حقيقة واقعة ، حية !

وتبين إذ ذكر هذا ، أنه كان فى تلك الأيام يقف على عتبات « الحب » ! .. ولم يتخذ غرامه بهمنالينى شكلا حقيقياً ، ولا غدا نابضاً حياً ، إلا عندما ظهرت (كمالا) فجأة على مسرح حياته ، فجعلت هذه الحياة لغزاً لا سبيل إلى حله ! .. وأسند (رامش) رأسه إلى يده ، وهو مستغرق فى التفكير . وامتدت صفحة الحياة أمامه .. حياة حافلة بجوع القلب .. جوع لم يحظ قط بالشبع ! .. حياة مخلوق هوى فى شباك يحاول جاهداً أن يحرر نفسه منها ! .. أليس بوسعه أن يمزق هذه الشباك، إذا هو استجمع قواه ؟ .. ورفع رأسه فى أوج الحماس ، وإذ ذاك لمح (كمالا) تقف جد قريبة منه ، وقد استندت بذراعيها إلى ظهر مقعد آخر . وأجفلت إذ رفع رأسه ، وهتفت : « لابد أنك كنت نائماً ، وها أنت ذا قد استيقظت ! » .. وهمت بأن تتحول عنه وقد نفد صبرها ،

لولا أن ناداها : « لا بأس يا كمالا ، لم أكن نائماً .. تعالى فاجلسى ، وسأورى لك قصة ! » .. واستهواها ذكر القصة ، فقربت مقعدها من مقعده ، واستقرت إلى جواره . وكان (رامش) قد عقد العزم على أن ينبئها بالحقيقة كلها ، ولكنه خشى أن تكون الصدمة أقسى من أن تحتملها إذا ما أزجى إليها باعترافه دون تمهيد .. ومن ثم كانت فكرة القصة التى مناها بها !

* * *

● شرع (رامش) يروى القصة قائلا : «كانت هناك ذات مرة قبيلة تسمى قبيلة الراجبوت .. » ، وهنا سألته كمالا : «متى كان ذلك ؟. فى سالف الأوان ؟ » . قال : « أجل ، منذ زمن بعيد .. لم تكونى قد ولدت بعد ! » .. فقالت ساخرة : « أما أنت فكنت قد ولدت طبعاً ، فأنت كهل كبير . أليس كذلك ؟ .. وبعد ؟ » .. فاستأنف الحديث : « وكان لهؤلاء الراجبوت عادة خاصة .. فعندما يقدم أحدهم على الزواج ، لا يذهب بنفسه إلى دار عروسه ، وإنما يرسل إليها سيفه . وكانت العروس تمضى فى طقوس الزفاف مع السيف ، ثم تنتقل إلى بيت الزوج وتزف إليه شخصياً ! » .

كمالا : « آه ! .. لعمرى ! .. ما أغربها من طريقة للزواج ! » .

رامش : « إننى شخصياً لا أكاد أتصورها ، ولكن هذا ما كان يحدث ! .. هكذا جاء فى القصة .. والظاهر أن أولئك (الراجبوت) كانوا يرون أن الذهاب بأنفسهم إلى العروس أمر لا يليق بهم ! .. وكان الملك الذى تدور حوله هذه القصة ينتمى إلى هذه القبيلة ، فى ذات يوم .. » .

كمالا : « ولكنك لم تذكر لى فى أى بلد كان هذا الملك ؟ » .

رامش : « كان ملك (مادورا) .. فى ذات يوم ... » .

قالت (كمالا) ، فى إصرار على أن تعرف كل شىء بدقة وإيضاح : « يجب أن تذكر اسمه أولا ! » .. ولو أن (رامش) فطن إلى هذا الاتجاه منها ، لاستعد للأمر قبل أن يقدم عليه . وأدرك أنها رغم تلهفها على سماع القصة ، لن تفلت أية صغيرة ولا كبيرة ، ما لم تكن واضحة . وعاد يواصل رواية القصة بعد تردد وجيز : « كان اسمه رانجيت سينغ » .. فرددت (كمالا) : « رانجيت سينغ ، ملك مادورا .. وبعد ؟ » .

رامش : « فى ذات يوم ، سمع الملك من شاعر رحالة ، أن لملك آخر من نفس جنسه ، ابنة رائعة الجمال ... » .

كمالا : « وفى أى بلد كان ذلك الملك ؟ ! » .

رامش : « لنفترض أنه كان ملك كونجفرام ! » .

كمالا : « ولماذا نفترض ؟ .. ألم يكن ملك كونجفرام بالفعل ؟ » .

رامش : « بلاشك ! .. أتحبين أن تعرفى اسمه أيضاً ؟ .. كان اسمه آمار سينغ ! .

كمالا : « ولكنك لم تنبئنى باسم الفتاة .. الابنة الرائعة الجمال » .

رامش : « آسف ، إذ نسيت ذلك .. كان اسمها .. كان اسمها .. آه ، أجل .. كان اسمها تشاندرا ! » .

كمالا : « إن نسيانك للأمور عجيب ! .. ولكن ، ألم تنس اسمى من قبل ؟ ! » .

رامش : « حسناً .. عندما سمع ملك (أود) هذا من الشاعر ... » .

كمالا : « أى ملك (أود) هذا ؟ .. ألم تقل أنه كان ملك مادورا ؟ » .

رامش : « ما أظنك تحسبين أنه كان ملكاً لبلد واحد ! .. كان ملك (أود) و (مادورا) معاً ! » .

كمالا : « لعلهما كانا متجاورين ، إذن ! » .

رامش : « أجل . كانا متلاصقين ! » .. وراحت (كمالا) — خلال القصة — تلتقط النقاط المتعارضة ، وتكشف نواحى النقص . على أنه ما لبث فى النهاية أن استكمل كل شىء ، فمضى يروى لها هذه الخرافة : « أوفد رانجيت سينغ ، ملك مادورا ، رسولا إلى ملك كونجفرام يطلب إليه يد ابنته الأميرة . فبادر آمار سينغ إلى الموافقة .. وإذ ذاك ، سار (أندراجيت سينغ) — شقيق رانجيت الأصغر — على رأس جنوده إلى مملكة آمار سينغ ، رافعاً الأعلام ، محوطاً بضجة الطبول والمزامير ، وضرب خيامه فى ساحة قصر الملك . وأقامت مدينة كونجفرام الأفراح احتفالا بهذه المناسبة السعيدة . ورصد الفلكيون التابعون للملك كواكبهم ، وحددوا يوماً وساعة محفوفين بالسعد ، ليتم فيهما الزواج . وكان الموعد هو الساعة الثانية بعد منتصف الليلة الثانية عشرة من النصف المظلم من الشهر . وفى تلك الليلة ، ازدانت كل الدور بأكاليل الزهور ، وتلألأت الأنوار فى المدينة ، احتفالا بزواج الأميرة (تشاندرا) ..

« ومع ذلك ، فإن الأميرة لم تعرف من هو الزوج الذى قدر لها ، إذ كان الحكيم (برامنندا سوامى) قد أعلن لأبيها عند مولدها نبوءة قال فيها : « إن أحد الكواكب ينذر بشر يحيق بابنتك . فعندما يحين لها أن

تتزوج ، حذار من أن تكشف لها عن اسم الرجل الذى ستقترن به ! » ..
ومن ثم ، تمت مراسم الزفاف مع السيف ، وقدم (أندراجيت سينغ) الهدايا التقليدية نيابة عن الزوج ، وقدم آيات الولاء لزوجة أخيه . وكان (أندراجيت) عظيم الوفاء لأخيه ، فلم يرفع طرفه إلى وجه الحسناء النبيلة التى كانت حمرة الخجل تكسو أساريرها وراء قناعها ، وإنما ثبت عينيه على قدميها البديعتين المخضبتين بالحناء ! .. حتى إذا كان اليوم التالى للاحتفال ، رفع (أندراجيت) الأميرة إلى محفة وثيرة مرصعة باللآلئ ، وانطلق بها إلى بلده . ووضع ملك كونجفرام يده على رأسها يباركها مودعاً ، وقلبه منقبض إذ تذكر كوكب النحس الذى يتهدد طالع ابنته . ولم تتمالك الملكة دموعها وهى تقبل شفتى ابنتها . واجتمع ألف كاهن فى المعابد ، يرددون الصلوات لدفع المصير المنحوس عن العروس ..

« وكانت كونجفرام جد بعيدة عن مادورا .. كانت الرحلة بينهما تستغرق شهراً تقريباً . فلما كانت الليلة الثانية ، ضرب (الراجبوت) خيامهم على ضفاف نهر (فيتشا) . وكانوا يتأهبون للنوم ، عندما بدت أضواء مشاعل فى غابة مجاورة ، فأوفد (أندراجيت) أحد حراسه يستطلع الخبر ، فعاد الرجل يقول : « مولاى ، إن الأنوار لجماعة مثلنا عائدة من زفاف ، وهم من أبناء قبيلتنا الراجبوت ، يرافقون عروساً يقلونها إلى بيت زوجها ، ويصطحبون حراساً مسلحين . ولما كانت الطريق غير مأمونة ، فإنهم يلتمسون من سموكم أن تبسطوا عليهم حمايتكم ، ويرجون أن تسمحوا لهم بمرافقتنا فى جزء من الطريق » .. فأجاب الأمير :

« إن الشهامة تجعل نجدة أولئك الذين ينشدون الحماية واجباً مقدساً . فلنذافع عنهم بكل ما أوتينا من قوة » :: وهكذا ، اتحد الفريقان ..

« وكانت الليلة الثالثة هى آخر ليالى النصف المظلم من الشهر . وبلغ الفريقان بقعة تحف بها سلسلة من التلال — من الأمام — وغابة كثيفة من الخلف . وما أن ضربت الخيام ، حتى استغرق الجنود المنهوكو القوى فى النعاس ، بين زقزقة العصافير الصداحة ، وخرير المياه . وفجأة ، انبعثت جلبة أيقظت الجميع من سباتهم ، واندفعت الجياد تجرى وهى جامحة ، خلال معسكر مادورا ، إذ سرحتها أيد خفية من عقالها . وشبت النيران فى بعض الخيام ، فارتفعت ألسنتها تضىء صفحة السماء المعتمة . وسرعان ما أدرك الجنود أن عصابة من الأشقياء هاجمتهم . ودار قتال مستميت . وكان من المتعذر فى الظلام أن يميز أحد عدوه من صديقه ، الأمر الذى مكن للفوضى من أن تضرب أطنابها . وفى غمرة الاضطراب والفوضى ، حمل قطاع الطريق كل ما كان فى المعسكر ، وانطلقوا فاختفوا بأسلابهم فى التلال ::

« وعندما انتهى القتال ، لم يعثر أحد للأميرة على أثر ، فقد هربت فى ذعرها من المعسكر ، وانضمت إلى جماعة من الهاربين ظنتهم قومها . ولكنهم كانوا فى الواقع من الجماعة التى كانت ترافق العروس الأخرى . وكان قطاع الطريق قد اختطفوا هذه العروس فى غمرة الفوضى ، فظنت الجماعة أن الأميرة (تشاندرا) هى عروسهم ، وانطلقوا بها إلى بلدهم بأقصى سرعة فى وسعهم . وكانوا ينتمون إلى عشيرة مغمورة من قبيلة الراجبوت ، تقيم على ساحل (كارناتيك) . ولما لبثت الأميرة أن

التقت بزعيم العشيرة ، وكان اسمه (تشيت سينغ) :: وهو الزوج الذى كان يرتقب العروس الأخرى . ورحبت أم (تشيت سينغ) بالفتاة ، ورافقتها إلى مخدعها ، بينما كان القوم يرددون فيما بينهم : « ما رأينا قط مثل هذا الحسن ! » .

« ووجد (تشيت سينغ) أن عروسه كانت منحة من السماء ، فأحبها من أعماق قلبه ، وتدله فى هواها . وكانت الأميرة من ناحيتها تعرف ما يجب على الزوجة الفاضلة ، فعزمت على أن تكرس حياتها لخدمة (تشيت سينغ) ظناً منها أنه زوجها . وإن هى إلا أيام ، حتى ارتفع عنهما الحياء والخجل والكلفة .. وإذا (تشيت سينغ) يستبين خلال أحاديثهما أن الفتاة التى أخذها فى داره كزوجة ، لم تكن سوى الأميرة (تشاندرا) ! .

الفصل السادس والعشرون

● قالت (كمالا) ملهوفة : « وبعد ؟ » ، كانت القصة قد ملكت عليها حواسها . وأجاب رامش : « الواقع إنى أجهل نهاية القصة ، فلست أعرف منها شيئاً بعد . نبئينى أنت ، ما الذى تظنينه حدث فى النهاية ؟ » .. قالت : « لا ، لا .. ليس هذا من الإنصاف فى شىء .. لابد لك من أن تروى لى ما بقى » .. فهتف : « عجباً يا كمالا ! .. إنما أصدقك القول ! .. لم ينشر من الكتاب الذى أخذت عنه القصة ، سوى جزئه الأول ، ولا أدرى متى ينشر الجزء الثانى ! » :: فصاحت فى استياء : « ما أشد لؤمك ! :: ما كان أسوأ هذا ! » .

رامش : « خليق بك أن تحنقى على المؤلف :: على أننى لا أريد سوى أن أوجه إليك هذا السؤال : ما الذى يجدر بتشيت سينغ أن يفعله بتشاندرا ؟ » :

وفكرت (كمالا) طويلا ، وقد سرحت بصرها فى النهر ، ثم قالت فى النهاية : « لست أدرى ما الذى يخلق به أن يفعله .. لا أستطيع أن أهتدى إلى رأى » :: فتردد (رامش) لحظة ، ثم قال : « هل يصارع تشيت سينغ الأميرة بكل شىء ؟ » .

— ما أعجب ما تقول ! .: إذا لم ينبئها ، فسوف تترتب على الصمت ورطة فظيعة .. ستكون العاقبة بشعة ! :. لذلك فمن الخير أن يخبرها بالحقيقة !

وردد (رامش) عبارتها وقد شرد ذهنه : « من الخير ! » .:
وصمت برهة ، ثم قال : « حسناً يا كمالا :: لنفترض ... » :
كمالا : « ما الذى نفترضه ؟ » .
رامش : « هب أننى كنت تشيت سينغ ، وأنك تشاندرا ! » .
كمالا : « أرجو أن لا تقول لى مثل هذا الكلام ، فلست أحبه ! » .
رامش : « ولكن ، لابد لى من قوله ! :: ما واجبى فى هذه الحال ، وما واجبك ؟ » .

ولم تجبه (كمالا) ، بل نهضت بغتة عن مقعدها وغادرته . وألفت (أومش) جالساً لدى باب القمرة ، يتأمل النهر فى صمت ، فسألته : « هل قدر لك يوماً يا أومش أن ترى شبحاً ؟ » .. قال : « أجل يا أماه ، رأيت شبحاً ! » :: فقالت وهى تجر مقعداً منخفضاً من الخيزران

وتجلس إلى جواره : « وماذا كان شكل هذا الشبح ؟ .. حدثنى عنه » :

* * *

● وإذ خلا (رامش) إلى نفسه ، قرر أن لا يدعو (كمالا) لتعود ، إذ لم يخامره شك فى أنها غضبت أشد الغضب ، فأيقن أنه لن يستطيع استرضاءها فى اللحظة الراهنة !

وما لبثت الرقعة الضئيلة من الهلال الوليد أن توارت خلف عيدان من الغاب على البر : وكانت أضواء الباخرة قد أطفئت ، وأوى الملاحون إلى مخادعهم ، ولم يكن ثمة ركاب آخرون فى القمرات . أما ركاب الدرجة الثالثة ، فقد هبطوا إلى الشاطئ ليطهوا عشاءهم . وعلى بعد ، كانت أضواء شارع القرية تبدو هنا وهناك ، خلال الشجيرات والعيدان . وأخذ تيار الماء يداعب سلسلة المرساة (الهلب) ، وكان يعنف — بين وقت وآخر — فيهز السفينة بأسرها . ومضى (رامش) فى هذا الوسط الغريب — تحت قبة الليل المترامية — يجاهد فى عناء ، ليحل عقدة المشكلة العويصة التى واجهه بها ضميره . كان من الواضح أن لابد له من أن يتخلى عن إحدى الفتاتين : إما كمالا ، وإما همنالينى ، فما كان ثمة حل ممكن يستبقيهما معاً فى حياته .. لا ، وما كان ثمة شك فى الطريق التى يدعو الواجب إلى اتباعها : وكان لهمنالينى الخيار : فلها أن تقصيه عن ذهنها وتمنح يدها لخطيب آخر .. أما أن يتخلى عن (كمالا) ، فقد كان معنى هذا أن يلقى بها فى الدنيا وهى عارية ، عزلاء ! :: ومع ذلك ، فما أشد أنانية الرجل ! :: فإن (رامش) لم يجد عزاء فى احتمال نسيان (همنالينى) إياه ، وفى أن لها من الموارد

ما لا يجعل حياتها متوقفة عليه !.: بل إن هذه الفكرة أهاجت حنينه إليها . وخيل إليه أن طيفها راح يحوم أمام بصره ، ولكن غير بعيد عن متناوله ، بحيث لم يكن عليه سوى أن يميل إلى الأمام ، باسطاً ذراعيه ، يمسك بصاحبته !

وأسلم رأسه إلى راحتيه وهو مستغرق فى التفكير : وانبعث على البعد عواء ذئب أيقظ كلاب القرية ، فارتفع نباحها بغير انقطاع : وإذ ذاك رفع (رامش) رأسه ، فإذا (كمالا) تقف على مقربة منه ، مستندة إلى سياج الباخرة فى جنح الظلام ، فنهض عن مقعده قائلا : « أو لم تلوذى بعد بمخدعك يا كمالا ؟ » .. فسألته بدورها : « أو لن تذهب أنت إلى الفراش ؟ » .

— إننى ذاهب لتوى .. سأبسط فراشى فى القمرة التى فى الجانب الأيمن من سطح السفينة ، فلا تنتظرينى » . وجرت (كمالا) قدميها فى صمت إلى القمرة التى خصصت لها . ولم تطاوعها نفسها على أن تذكر لرامش أنها قد استمعت إلى قصة عن الأشباح ، فأصبحت تخاف الوحدة . وخفق قلب (رامش) إشفاقاً حين رأى ما فى خطواتها من تلكؤ ، فصاح بها : « لاتخافى يا كمالا .. سأحتل القمرة الملاصقة لقمرتك ، وسأترك الباب الذى بينهما مفتوحاً » :: فرفعت (كمالا) رأسها فى شمم وقالت : « وما الذى يحملنى على الخوف ؟ » .. على أن (رامش) احتل القمرة المجاورة ، وما لبث أن أطفأ المصباح ، واستلقى على فراشه وأخذ يقول لنفسه : « ليس بوسعى قط أن أهجر (كمالا) ، ومن ثم فوداعاً يا همنالينى ! .. هذا قرارى النهائى ، ولن أحيد عنه ! » ::

ولكنه فى رقدته — فى الظلام — راح يتحسر على ما كان يخسره بهجران (همنالينى) . وما لبث أن عجز عن احتمال أفكاره ، فوثب من فراشه ، وغادر قمرته . وأوحى إليه الظلام الدامس المخيم ، بأن أساه وعذاب قلبه ليسا بلا نهاية ، وليسا فى امتداد الزمن والفضاء ! .. وتطلع إلى السماء المعتمة .. إن النجوم اللامعة أشياء بعيدة ، ولن تصل إليها قط قصة حب (رامش وهمنالينى) ، إذ أن هذه القصة على ما فيها من أسى ، تتضاءل بالنسبة إلى النجوم ولا تتطاول إليها ! .. وكم من ليال خريفية ، سيظل النهر ينساب فيها خلال المجرى المحوط بالرمال ، تحت ضياء النجوم ، وبين أعواد الغاب المترنحة ، على مقربة من القرية التى تحف بها الشجيرات .. بعد أن تكون أنفاس (رامش) قد خمدت ، وجسده الفانى قد أحرق وتحول إلى رماد يختلط بالثرى الدائم !

الفصل السابع والعشرون

● استيقظت (كمالا) فى جوف الليل ، فلما تلفتت حولها تبينت أنها كانت وحيدة . ومرت دقيقة أو اثنتان ، قبل أن تذكر أين كانت ، ثم انسحبت من فراشها ، وفتحت باب القمرة وأطلت خلاله . كانت تخيم على الماء الساكن غلالة من ضباب أبيض ، وشاب الظلام طيف من بياض مغبر ، إذ بدأ الفجر يبتسم فى السماء خلال الأشجار التى حفت بالضفة الشرقية . وفيما كانت فى تأملها ، لاحت أشرعة مراكب الصيد ، وقد بدأت توشى صفحة النهر . وشعرت (كمالا) بانقباض يغزو قلبها ، دون أن تدرك مبعثه .. لم كان منظر صباح الخريف بضبابه

يثير الأسى فى فؤادها ؟ .. ومن أين كانت تلك العبرات التى تزاحمت فى صدرها ، وتدافعت إلى حلقها ، وأوشكت أن تجتلب الدموع إلى عينيها ؟ .. ولماذا أصبحت تأسى على حياتها الماضية ؟ .. كانت قد نسيت منذ أربع وعشرين ساعة أنها وزوجها يتيمان ، وأن ليس لها من أقارب أو معارف ، فما الذى جعلها الآن تشعر بالوحدة ؟ .. ألم يك (رامش) كافياً لأن يملأ عليها حياتها ؟ .. لماذا يمضها الشعور بعظم الكون وبضآلتها هى ؟!

وفيما كانت فى وقفتها الشاردة على عتبة الباب المفتوح ، بدا سطح النهر يتألق كصفحة متأرجحة من ذهب . واستأنف الملاحون أعمالهم ، وأخذت محركات الباخرة تدور ، وأيقظت جلجلة السلاسل وضجيج الآلات صبية القرية ، فأقبلوا إلى الشاطئ . واستيقظ (رامش) كذلك ، فأسرع إلى باب قمرته ليطمئن على (كمالا) . وأجفلت مأخوذة حين رأته . ومع أنها كانت تبسط قناعها على وجهها ، إلا أنها حاولت أن تخفى عنه محياها تماماً ، فسألها : « هل اغتسلت يا كمالا ؟ » .. وبدا السؤال بريئاً ، خالياً من كل تأنيب ، ومع ذلك فإنها استاءت منه ، وهزت رأسها وهى تنأى بنفسها .. فعاد (رامش) يقول : « لن يلبث القوم أن يصعدوا إلى السطح ، فيحسن أن تسرعى ! » .. ولم تجب (كمالا) بشىء ، بل تناولت الثوب الذى اعتادت أن ترتديه فى النهار ، وسارت إلى الحمام ، وهى مغضبة .. فإن استيقاظ (رامش) مبكراً ليرشدها إلى نظافتها ، أمر بدا لها غير ضرورى .. بل إنها رأت فيه شيئاً من مجافاة الذوق ! .. وكانت — منذ البداية — قد فطنت إلى

أنه رسم لنفسه فى معاملته إياها حداً لا يتجاوزه ، ولا يمعن فى رفع الكلفة بعده .: وما كان من حظها يوماً أن جلست عند قدمى حماة تلقنها أصول السلوك ، ومتى يقتضى الأدب والحياء أن تخفض حجابها .: ومع ذلك ، فقد غالبها الخجل فى حضور (رامش) فى ذلك الصباح !

وعندما عادت (كمالا) إلى قمرتها بعد الاغتسال ، وجدت عملها اليومى فى انتظارها ، فتناولت حزمة المفاتيح من طرف مئزرها الملقى على كتفها ، وأقبلت تفتح الحقيبة التى كانت تحتوى على ثيابها ، فإذا بها تلمح الخزانة الصغيرة التى كان (رامش) قد عهد بها إليها . لقد بدت لها هذه الخزانة بالأمس مبعث سرور جديد ، فإن وجودها فى حوزتها بعث فى نفسها شعوراً بالسلطان والاستقلال ، وقد غيبتها فى الحقيبة بحرص ، وكأنها تخفى كنزاً ثميناً . ولكن السرور الذى كانت تبعثه الخزانة فى نفسها، نضب فى ذلك الصباح !.. وحدثتها نفسها بأن هذه الخزانة ملك لـ (رامش) — وليست لها هى — رغم كل شىء .. فهى ليست حرة التصرف فيها ، وليس بوسعها أن ترى فيها أكثر من مسئولية ملقاة على عاتقها ! .. ودخل (رامش) القمرة فى تلك الأثناء ، فقال لها فى عجب : « إنك بادية الوجوم اليوم ، فهل وجدت فى الحقيبة شبحاً ، حين فتحتها ؟ » .. ولكنها مدت إليه يدها بالخزانة قائلة : « هذه خزانتك ! » .. فسألها : « وماذا أفعل بها ؟ » .

— ليس عليك إذا احتجت إلى شىء سوى أن تأمرنى فآتيك به !

— ولكن .. ألن تحتاجى أنت الأخرى إلى نقود ؟

فهزت رأسها فى كبرياء وهى تقول : « لست بحاجة إلى نقود » .:

وابتسم (رامش) قائلا : « ما أندر من يقولون قولك ! .: ومع ذلك ، فإذا كنت لا ترين للنقود قيمة ، فلماذا لا تمنحيها لأى غريب ؟ .: لماذا تعطينيها من دون جميع الناس ؟ » .. فوضعت (كمالا) الصندوق على الأرض فى صمت . وعندئذ قال : « ألا صارحينى بالحقيقة يا كمالا .: أأنت مغضبة لأننى لم أرو لك نهاية القصة ؟ » .. أجابت وقد غضت بصرها : « لست غاضبة ! » .

رامش : « إذن فاحتفظى بهذا الصندوق فلن أوقن من أنك صادقة، إلا إذا فعلت ذلك ! » .:

كمالا : « لست أرى بين الأمرين علاقة . إنه ملك لك ، فخليق بك أن تحتفظ به ! » .:

رامش : « ولكنه ليس ملكاً لى ! .. إن الذين يستردون هباتهم ، يصبحون أشباحاً إذا ما ماتوا . فهل تريدين أن أكون شبحاً ؟ » .

ولم تستطع أن تكبح الضحك لهذه الفكرة ، وقالت : « لا ، بالتأكيد ! .. ولكن ، أحقاً يصبح الذين يستردون الهدايا أشباحاً ؟ ما سمعت بهذا من قبل » .. وقضى ضحكها على الخصام ! .: وقال (رامش) : « لا يمكن التأكد من صحة ذلك إلا بطريقة واحدة .. هى أن تسألى أحد الأشباح بنفسك إذا ما صادفته ! » .: وأثار قوله فضولها ، فسألته : « أحقاً يرى الناس الأشباح .: هل رأيت شبحاً حقيقياً يوماً ما ؟ »

— لم أر شبحاً حقيقياً ، ولكننى رأيت كثيراً من الأشباح الزائفة .: فإن الشىء الحقيقى نادر !

كمالا : « ولكن أومش يقول .:. »



رامش : « أومش .. ومن يكون أومش ؟ » .

كمالا : « عجباً ! .. الصبي الذى يرافقنا . لقد رأى شبحاً ! » :

رامش : « إذن ، فإنى أعترف بأنه قد تفوق علىّ بهذه الميزة » :

* * *

● وكان الملاحون قد وفقوا بعد جهود كبيرة إلى تعويم السفينة ، فى تلك الأثناء . ولكنها لم تكن قد بعدت عن الشاطئ مسافة تذكر ، حين بدا على الشاطئ صبي يحمل سلة فى إحدى يديه ، وقد أخذ يعدو بأقصى سرعته ، ويلوح بذراعه الأخرى للباخرة كى تقف ، ولكن الربان لم يعبأ به . وإذ رأى الصبي (رامش) راح يصيح به : « بابو ! .. بابو ! » : فقال (رامش) : « لعله يظننى محصل التذاكر ! » .. وأشار إليه بأن لا سلطان له على الباخرة . ولكن (كمالا) هتفت : « عجباً ، إنه أومش ! لا ينبغى أن نتركه .. يجب أن تأمر بإحضاره إلى السطح » : فقال : « ولكنهم لن يقبلوا أن يوقفوا الباخرة من أجلى » .. وصاحت (كمالا) فى أسى صادق : « بل يجب إن تأمرهم بالوقوف ! .. ألا قل لهم ! .. إننا جد قريبين من الشاطئ » . ومن ثم أسرع (رامش) إلى الربان يرجوه ، فكان الجواب الذى تلقاه : « إن القانون يمنعنا باسيدى» .

وكانت (كمالا) قد لحقت به ، فانضمت إليه فى الرجاء ، قائلة : « ما ينبغى أن نتركه ! .. ألا قفوا لحظة ! .. يا لولدى أومش البائس ! » :

على أن (رامش) لم يلبث أن جنح إلى أسلوب بسيط فى مغالبة رفض الربان . وبعد منحة طيبة ، أوقف الرجل المركب ، وسمح للصبي بأن يصعد إلى سطحها : ثم أقبل يهيل عليه اللوم والتأنيب ، ولكن

(أومش) لم يتأثر بشىء ، وإنما وضع السلة عند قدمى (كمالا) وهو يبتسم ، وكأن لم يحدث شيء . وإذ ذاك قالت (كمالا) ، ولم تكن قد تمالكت بعد نفسها من الإشفاق الذى غشيها من أجله : « ليس فى هذا ما يضحك . ما الذى كان يحدث لك لو أن الرجل رفض الوقوف ؟ » .

وبدلا من أن يجيب (أومش) ، أفرغ محتويات السلة على سطح السفينة ، فإذا بها حزمة من نبات الطلح ، وكمية من « السبانخ » ، وعدد من القرع والباذنجان . وسألته (كمالا) : « من أين أتيت بكل هذا ؟ » .. ولم يكن رده من النوع الذى يرضى عنه الشرطة : فلقد لاحظ عندما ذهب إلى القرية لإحضار اللبن الخثر والأشياء الأخرى — فى اليوم السابق — أن هذه الخضر كانت موفورة فى كثير من الحدائق وعلى كثير من أسطح الدور ، ومن ثم هبط مبكراً إلى البر فى ذلك الصباح ، منتهزاً فرصة وقوف السفينة ، وأخذ ينتقى ما أعجبه دون إذن من أحد !

وصاح (رامش) فى غضب : « كيف تسوّل لك نفسك السرقة من حدائق الناس ؟ » .

— ما هذه بالسرقة .. إنما أخذت قسطاً ضئيلا من كل حديقة ، ولن يضار أحد من ذلك !

— إذن فاقتصارك على أخذ مقادير ضئيلة لايعد سرقة ! .. يا لك من أفاق ! اغرب عن وجهى ، وخذ معك هذه الأشياء !

وتطلع (أومش) إلى (كمالا) فى ضراعة ، وهتف : « إن هذا النوع من السبانخ يا أماه ينمو فى بلدى، وهو من أشهى الأنواع .. » ،

ولكن (رامش) صاح فيه وقد اشتد غضبه : « امش من هنا أنت وسبانخك ، وإلا ركلت كل شىء فألقيت به فى النهر ! » :: وعاد « أومش » يتطلع إلى (كمالا) يرتقب منها إرشاداً ، فأشارت إليه بأن يجمع الخضر ويحملها من المكان . وفهم من مسلكها أنها لا تزال تحتفظ له بركن شفوق من قلبها ، فجمع الخضر ، وردها إلى السلة ، ثم سار مبتعداً عن المكان ، بينما قال (رامش) لكمالا وهو يسير إلى قمرته ليكتب رسالة : « كان هذا المسلك خطأ منه ، وما يجب أن ترضى عن مثل هذا العمل ! » .. وتلفتت (كمالا) ، فرأت (أومش) يجلس فى مؤخرة السفينة ، خلف سطح الدرجة الثانية ، وبالقرب من مطبخها : ولما لم يكن يشغل الدرجة الثانيـة راكب ، فقد سعت (كمالا) إلى حيث كان الصبى يجلس ، بعد أن أسدلت قناعها ، وسألته : « هـل رميت الأشياء فى البحر » . قال : « لا .. بل هى هنا » . فقالت محاولة أن تبدى شيئاً من الحزم والصرامة : « كان هذا العمل منك ذنباً كبيراً ، كما ترى ، فلا تعد إليه ثانية . فكر فيما كان يجرى لو أنك تركت على الشاطئ ! » . وسارت إلى مطبخها ، ثم صاحت : « ناولنى سكيناً ! » ، فلبى (أومش) طلبها ، وانهمكت (كمالا) فى تقشير الخضر وتقطيعها : وقال الصبى : « إن الخردل المسحوق (المستردة) يزيد من لذة طعم هذا السبانخ يا أماه » .. فقالت : « حسناً .. اصحن قدراً من الخردل إذن ! »

وحرصت على أن لاتبدى تلطفاً لتشعره بذنبه ، ومن ثم راحت تقطع السبانخ والقرع والباذنجان ، وهى عابسة : وماذا كانت تملك سوى أن تعبس لهذا الصبى البائس ! .. والواقع أنها كانت ترى سرقة

الخضر أمراً تافهاً ، لاسيما والغلام شريد ، بلا أهل ، فهو يصبو إلى الرعاية ! .. ثم إن فى ذنبه ناحية هفت بقلبها ، فما أقدم التعس على الإغارة على الحدائق ، معرضاً نفسه للتخلف عن الباخرة ، إلا لكى يرضيها :: لذلك لم تلبث أن قالت : « هناك بعض اللبن الخثر المتخلف من الأمس يا أومش ، فعلك به . ولكن ، تذكر أنك يجب أن لا تعود قط إلى مثل الذنب الذى ارتكبته ! » .. فسألها فى تقرب يمحو به أثر إثمه : « ألم تتناولى من ذلك اللبن أمس يا أماه ! » :

— لست أحبه كثيراً مثلك : ألا اسمع ، إن لدينا كل شىء ، إلا السمك . فكيف نستطيع أن نحصل على بعض السمك لفطور سيدك ؟

— أستطيع أن آتيك بسمك يا أماه ، على أن تدفعى هذه المرة ثمناً :

وألفت نفسها مضطرة إلى تقريعه مرة أخرى ، فقالت وهى مقطبة الجبين : « ما رأيت ولداً أغبى منك يا أومش .. كأنما طلبت منك شيئاً من قبل ، دون أن أدفع له ثمناً ! » .. والواقع أن ما جرى فى اليوم السابق كان قد أوحى إلى (أومش) بأن (كمالا) كانت تجد أن الحصول على نقود من (رامش) مهمة عسيرة ، ومن أجل هذا ، أحس فى سريرته بنفور من مخدومه . ولم يزده هذا إلا قربى من (كمالا) وانسجاماً معها ، فلم يكن لرامش مكان بينهما ، فى رأيه !

* * *

● إذا كانت الظروف قد أثبتت أن الحصول على الخضر أمر سهل ، فإن الحصول على السمك لم يكن بهذه السهولة . ولاح للصبى المولع

بكمالا ، أن هذه الدنيا لا تستحق من الإنسان عطفاً ، لأنها قامت على نظم لا تمكن المرء من الحصول على قدر صغير من السمك أو من اللبن الخثر لإرضاء عزيز يحبه ، إلا بالمال !.. وقال يهوّن على (كمالا) : « لو استطعت أن تحصلى من السيد على خمس « آنات » (عملة هندية) فقط ، لاستطعت أن آتيك بحزمة كبيرة من السمك ! » . ولكن (كمالا) أجابته مؤنبة : « لاينبغى أن أسمح لك بمغادرة الباخرة مرة أخرى . فلو أنك تأخرت لما سمحوا لك فى هذه المرة باللحاق بنا ! » .. فهتف : « ولكننى لن أهبط إلى البر . لقد اصطاد الملاحون بشباكهم قدراً كبيراً من السمك فى هذا الصباح ، وفى وسعهم أن يبيعونا بعضاً منه » . وإذ ذاك ، ناولته (كمالا) روبية ، وقالت : « إذن ، ادفع الثمن من هذه ، وأعد إلىّ الباقى » . وسرعان ما رجع (أومش) ، بالسمك ، دون بقية من النقود ، قائلا : « لقد أبوا أن يتقاضوا ثمناً أقل من روبية » .. وأدركت (كمالا) أنه لم يكن صادقاً ، فقالت مبتسمة : « سنعمل — حين تقف الباخرة فى المرة القادمة — على أن نستبدل بعض العملات الصغيرة بعدد من الروبيات » . وتصنع الصبى الجد ، قائلا : « هذا ما ينبغى فعله ، فإنك ما تكادين تظهرين روبية أمام هؤلاء القوم ، حتى يضعوا نصب أعينهم أن يفوزوا بها كاملة ! » .

وبعد قليل ، جلس (رامش) إلى فطوره ، فما كاد بصره يقع على الطعام ، حتى صاح : « مرحى ! .. هذا بديع ! .. ولكن ، من أين جئت به ؟ .. عجباً ، هاهو ذا رأس سمكة .. لا ، ما هذا بحلم ،

ولا هو من خداع البصر فى شىء ، بل وليس من مداعبات الخيال ، وإنما هذا رأس سمكة بالتأكيد ! » .. وكان الفطور فى ذلك اليوم رائعاً حقاً . فلما استلقى (رامش) — بعد أن انتهى منه — فى مقعد طويل على ظهر السفينة ، ليتيح لمعدته أن تتولى هضم الطعام فى هدوء ، حان دور (أومش) ، فإذا هو يستمرئ (طاجن) السمك إلى درجة عظيمة ، حتى إنه راح يأكل فى نهم ، فخشيت عليه (كمالا) أن يتخم ، وصاحت به : « لا تزد على ما أكلت الآن يا أومش .. لقد أبقيت قسطاً منه لتتناوله فى العشاء ! » .. وسرعان ما انتزعها نشاطها ، ومرحها الذى لا ينضب ، من غمرة الاكتئاب الذى غشيها فى الصباح . وانصرم اليوم ، وأخذت الشمس تنحدر إلى المغيب . وفى الدروب الضيقة التى كانت تتخلل الخضرة النامية على ضفتى النهر ، أخذت الريفيات يتقاطرن إلى المجرى ، مسندات جرارهن إلى أردافهن . وقضت (كمالا) فترة الأصيل فى إعداد طعام من طلح الموز ، ثم اغتسلت ، وعقصت شعرها ، وارتدت ثياباً نظيفة ..

واختفت الشمس وراء أحراش الغاب التى تقوم كمعالم ترشد إلى القرى الواقعة على الضفتين ، ورست الباخرة فى إحدى المرافئ التى اعتادت أن تجنح إليها فى الليل . وكانت (كمالا) قد تفقدت ما بقى من الخضر وألفته كافياً للعشاء — دون ما حاجة إلى طهو جديد — حين أقبل (رامش) معلناً أنه قد أسرف فى الأكل أثناء الغداء ، فلم يعد فى حاجة إلى عشاء . وسألته فى أسف : « ألن تتناول شيئاً على الإطلاق .. ولا سمكة صغيرة ، مقلوة ؟ » . فأجابها فى اقتضاب : « لا ، شكراً لك » .

ثم انصرف مبتعداً ، فعمدت (كمالا) إلى وضع كل ما تبقى من الطعام فى طبق (أومش) ، فسألها الصبى : « ألم تستبق لنفسك شيئاً ؟ » .. فكان ردها : « لقد تناولت عشائى » .. وبهذا انتهى عملها فى ذلك اليوم ، فى مطبخها العائم !

* * *

● وكان قمر الشهر الجديد قد أسبغ ضياءه على النهر والبر : ولم تكن ثمة قرية قريبة من محطة الباخرة . وبدا الليل الصامت . المتألق السناء ، كحارس ساهر ، أو كسيدة لم يوافها حبيبها فى موعد اللقاء ، على خضرة حقول الأرز المترامية ! .. وعلى مقعد بسيط ، فى كوخ ذى سقف من الصفيح على الضفة ، جلس كاتب كهل ، ضئيل الجسم ، يجمع أرقاماً على ضوء مصباح بترولى . وكان (رامش) يراه خلال الباب ، فتنهد قائلا لنفسه : « ليت القدر يضعنى فى مثل كوخ هذا الكاتب .. كوخ ضيق ولكن الحياة فيه واضحة المعالم ! .: أى ضرر يحيق بالمرء فى حياة كهذه : أقضى النوم كله فى تسجيل الحسابات ، وأتلقى لوم المخدوم إذا ما ارتكبت أخطاء ، ثم أعود إلى البيت فى الليل ، وقد أديت عمل يومى ؟ ! » .. وكانت (كمالا) تقف وراءه – بجوار السياج – منذ فترة ، ولكن (رامش) لم يك شاعراً بوجودها . كانت قد توقعت أن يناديها ليسمر معها بعد الغروب ، وقد فرغت من عملها ، ولكنها لم تتلق نداء ما ، ومن ثم تسللت من قمرتها إلى سطح الباخرة فى هدوء ، حتى إذا شاهدته ، جمدت فى مكانها فجأة ، وأبت أوصالها أن تحملها خطوة أخرى !.. وكان القمر يرسل أشعته على وجهه ،

فأظهرت أساريره أن ذهنه كان بعيداً .. بعيداً عنها ! .: وخيل إليها أن بين رامش – وهو مستغرق فى أحلامه – وبين نفسها ، يقوم شبح الليل كديدبان جبار ، ملتف من رأسه إلى قدمه فى غلالة من ضوء القمر ، وقد رفع أصبعاً إلى شفتيه !

وعندما دفن (رامش) وجهه فى راحتيه ، وترك رأسه يستند إلى المنضدة التى أمامه ، تسللت (كمالا) عائدة إلى قمرتها ، دون أن تجرؤ على إصدار أى صوت ، حتى لا يسمعه ويتبين أنها جاءت تبحث عنه ! وبدت قمرتها مظلمة ، مقبضة للنفس ، فارتعشت حين اجتازت عتبتها ، واجتاحها شعور بأنها مهجورة ، وحيدة . وخيل إليها أن جوف الغرفة الصغيرة ، المظلمة ، قد انفرج فكاه وكأنه وحش غريب ، ولكن .: أين تجد ملجأ سواه ؟ .. لم تكن ثمة بقعة تريح فيها جسدها الضئيل ، وتغمض عينيها ، وهى تشعر أن هذه البقعة ملك لها ، ومن حقها وحدها ! .: وحدقت فى القمرة المظلمة ، ثم تراجعت : وفيما هى تتجاوز العتبة ، وقعت مظلة (رامش) ، فارتطمت بحقيبة من الصاج : وأفزع الصوت (رامش) ، فوثب عن مقعده ، ثم هتف حين رأى (كمالا) واقفة فى مدخل قمرتها : « أهذه أنت يا كمالا ؟ .: ظننتك قد أويت لمخدعك منذ زمن . أخشى أن تكونى قد تأخرت عن موعد نومك ، بل يخيل إلى أنك منفعلة .: لن أمكث على السطح طويلا ، وإنما سآوى سريعاً إلى القمرة الملاصقة لقمرتك ، وسأترك الباب مفتوحاً بيننا » .. فقالت (كمالا) فى ترفع : « لست خائفة ! » .: وخطت فى عجلة إلى داخل قمرتها ، وأغلقت الباب الذى كان يربط بين القمرتين ،

ثم ألقت بنفسها على السرير ، ولفت وجهها فى (شال) : واشتد شعورها بوحدتها ، وببعدها المطلق عن كل أنيس ، فإذا كل كيانها يهب ثائراً ! .. إذا كان قد قدر عليها أن لا تحظى بالرجل الذى يحميها من كل ما يخيفها ، وأن لا تكون — من ناحية أخرى — سيدة نفسها ، فأية حياة هذه ؟ .. إنها حياة لا تطاق !

* * *

● ومر الوقت : واستغرق (رامش) فى النوم ، فى القمرة المجاورة ، ولم تعد (كمالا) تقوى على مغالبة خوفها ، فنهضت ببطء ، ثم سارت إلى سياج السفينة ، وراحت تتأمل شاطئ النهر ، فلم تر أو تسمع ما ينم عن وجود مخلوق حى . وكان القمر يوشك على الغروب ، ولم يعد فى الوسع تبين الدروب الضيقة المتغلغلة خلال الحقول . وحدثت نفسها قائلة : « كم من نساء حملن الماء خلال هذه الدروب ، وقد سعت كل منهن إلى بيتها ؟! » .. البيت ! .. وقفز قلبها للفكرة ! .. آه ، لو كان لها بيت فى أى مكان ! :. ولكن ، أين ؟ .. ولاحت ضفتا النهر وكأنهما تمتدان فى الفضاء إلى ما لا نهاية . وفوق رأسها ، كانت القبة الهائلة — قبة السماء — تمتد بلا حدود . ولكن ، ما قيمة الأرض والسماء على سعتهما ! :. كل هذا الكون الشاسع لم يكن — بالنسبة لهذه الذرة الآدمية ! — ذا نفع .. فما كانت تصبو إلا إلى :: بيت صغير !

وجزعت (كمالا) إذ فطنت إلى شخص بجوارها : وإذا صوت (أومش) يقول : « لا تخشى يا أماه :: هذا أنا ! » ، فقالت : « إننا فى ساعة متأخرة ، فلماذا لم تنم ؟ » :: وما لبثت الدموع أن انسابت من

مقلتيها .. ولم يكن ثمة داع لقمعها ، فتساقطت فى قطرات كبيرة : وأشاحت (كمالا) بوجهها ، لتخفى دموعها عن (أومش) . وكما أن السحابة المثقلة بالماء تهيم فى السماء ، حتى إذا التقت بزميلة هائمة — تتمثل فى نسمة باردة — عجزت عن أن تستبقى حملها ، فترسله مطراً .: كذلك كانت حال (كمالا) !.. فما أن سمعت رنة العطف فى لهجة الصبى المشرد ، حتى عجزت عن قمع دموعها التى انبثقت من فؤادها . وحاولت أن تتكلم ، ولكن الشهقات خنقت صوتها . وتلفت (أومش) حوله يبحث فى حيرة عن وسيلة لمواساتها :. وظل صامتاً فترة ، ثم قال فى استحياء : « لقد نسيت أن أقول لك يا أماه إن ثمة سبع (أنات) تبقت من الروبية » !

وجففت (كمالا) دموعها ، وابتسمت وقد خفق قلبها لسذاجة الطفل ، ثم قالت : « ابقها معك ! » .. ثم أردفت : « والآن ، اجر إلى فراشك ! » .

وغاص القمر خلف الأشجار . وفى تلك الليلة ، أغمض النعاس عينى (كمالا) بمجرد أن أسلمت رأسها إلى الوسادة . وعندما أرسلت الشمس أشعتها الحامية فى الصباح ، تأمر الأرض باليقظة ، كانت (كمالا) مستغرقة فى سبات عميق !

الفصل الثامن والعشرون

● بدأت (كمالا) يومها التالى متثاقلة ، تشعر بالخور ، وقد خيل إليها أن الشمس فقدت إشراقها ، وأن النهر كان ينساب آسياً والأشجار على الضفة تتهالك على نفسها ! .. فلما أقبل (أومش) ليساعدها فى

عملها ، قالت له فى إعياء : « لا يا أومش ، لا تشغل بالك اليوم بعمل ! » .. ولكن (أومش) لم يكن سهل الانصياع ، إذ قال : « لن أزعجك يا أماه .. إنما جئت لأصحن لك التوابل » .. وما لبثت نظرتها الحزينة أن اجتذبت انتباه (رامش) حين أقبل ، فسألها : « هل تحسين بتوعك يا كمالا ؟ » .. ولكنه لم يتلق جواباً ، بل ندت عن (كمالا) إشارة من رأسها نمت عن اعتقادها بأن سؤاله مصطنع ، ومستهجن ، ثم تحولت عنه إلى المطبخ . وتبين (رامش) أن كل يوم يزيد مشكلته تعقيداً ، وأن من الواجب أن لا يتأخر فى حلها أكثر من ذلك . وانتهى إلى أنه لو استطاع أن يفضى إلى (همنالينى) بما فى نفسه لسهل عليه أن يقرر الواجب الذى ينبغى عليه أداؤه : ومن ثم جلس — بعد تفكير طويل — يكتب للفتاة . وقضى وقتاً يكتب ، ثم يمحو ما يكتبه ! .. وما لبث أن سمع صوتاً غريباً يسأله : « هل لى أن أسألك اسمك يا سيدى ؟ » .. فالتفت مأخوذاً ، وإذا به يرى سيداً متقدماً فى السن ، ذا شاربين أشيبين ، وشعر خف نموه عند الجبين . وكان ذهن (رامش) مركزاً فى الخطاب ، فلم يستطع أن يستجمع قريحته فوراً . وقال الغريب : « إنك براهمياً .. ألست كذلك ؟ .. صباح الخير . إنك تدعى (رامش بابو) وهذا جل ما عرفت عنك : إن سؤال المرء عن اسمه هو أولى خطوات التعارف فى بلادنا ، فهو فى الواقع لون من المجاملة ، ولكن الناس يستاءون من ذلك فى هذه الأيام ، فإذا كنت قد أسأت إليك ، فأرجو أن ترد على الإساءة ، مع الفوائد ! .. سلنى

أجبك ذاكراً اسمى ، واسم أبى أيضاً .. بل إننى لا أجد مانعاً — فى الواقع — من ذكر اسم جدى كذلك ! » .

وضحك رامش قائلا : « إننى لم أستأ إلى هذه الدرجة ! .. يكفينى أن تذكر لى اسمك » ، فقال الرجل : « اسمى (ترايلاكيا تشاكرا بارتى) وكل امرئ على امتداد النهر يلقبنى بـ (العم) . وما أظنك إلا قد درست التاريخ ، وعرفت أن (بهاراتا) كان (الملك تشاكرا بارتى) ، أى الملك الأعظم .. إمبراطور هندوستان . وكذلك (العم تشاكرا بارتى) — أى أنا — فى كل الريف الغربى ، ولابد أن تسمع عنى كلما أوغلت فى الغرب . وبهذه المناسبة يا سيدى ، إلى أين أنت راحل ؟ » .. فقال رامش : « لم أقرر بعد أين أبرح الباخرة » ، فقال (ترايلاكيا) : « لا حاجة تدعوك إلى الإسراع فى مبارحة الباخرة ! » .. وعاد (رامش) يقول : « لقد سمعت الباخرة ترسل صفيرها وأنا أبرح القطار فى (جوالوندو) ، ثم تحققت أنها لن تنتظر حتى أقرر وجهتى ، ومن ثم عمدت إلى العجلة ، حيثما تستحب العجلة ! » . قال ترايلاكيا : « إننى أرفع قبعتى احتراماً لك يا سيدى ، فأنت من النوع الذى أعجب به .. إنك على النقيض منى . كان لابد من أن أقرر قبل أن أصعد إلى الباخرة ، لأننى شخص غير سريع البت ، ومن ثم فإننى أحترم الرجل الذى يستطيع أن يقرر الصعود إلى الباخرة قبل أن يعرف وجهته : هل زوجتك على الباخرة يا سيدى ؟ » .. وشعر (رامش) بتردد طارئ قبل أن يجيب . ولاحظ (تشاكرا بارتى) تردده ، فقال : « يجب أن تغفر لى ، ولكننى علمت — من أوثق مصدر ! — أنها على الباخرة :

فقد كانت زوجتك الطيبة تطهو ، حين جرنى جوعى إلى مطبخها ، فقلت لها : « لا تخجلى منى يا سيدتى ، فأنا العم (تشاكرا بارتى) من ريف الغرب » .. ويا لها من زوجة شابة ، كاملة !.. واستطردت قائلا : « أرى أن لديك مطبخاً ، ولما كنت لا أجد من يعنى بى : فأرجو ألا تضنى علىّ بنصيب من خيراتك » .. فابتسمت ابتسامة عذبة أكدت لى أنها ستكون حفية بى ، وإن متاعبى قد انتهت : ولعلك تعرف أننى دائماً أبحث عن يوم سعيد ، فى التقاويم الفلكية ، قبل أن أبدأ أية رحلة : ولكننى لم أصب قط ما أصبت فى هذه الرحلة من حظ !.. أرى أنك مشغول ، لذلك لن أعطلك أكثر مما عطلتك . فإذا سمحت لى ، ذهبت فساعدت زوجتك الصغيرة ، إذ يجب أن لا تتلف يديها الجميلتين بمحرك النار وأنا هنا . أرجو أن لا تنهض من مكانك ، بل امض فيما تكتب ، فأنا أعرف كيف أقدم نفسى » . ثم سار (العم تشاكرا بارتى) إلى المطبخ !

وقال وهو يلج المطبخ : « هناك رائحة زكية تنبعث من هذا المكان وفى وسع المرء أن يقول أنها لطاجن أرز بالسمك ، قبل أن يتذوقه !.. على أننى أرى واجباً علىّ أن أصنع لك (سلاطة لبن) ، فليس مثل الذين يعيشون فى حر الشمال الغربى من يجيد صنع هذه السلاطة ! .. أعرف ما يدور بخلدك ، فإنك تعجبين من حديث هذا الكهل ، ومن زعمه أن يستطيع أن يصنع (سلاطة لبن) بدون (تمر هندى) ! .. حسناً ، لا تشغلى بالك بشأن (التمر هندى) ، فهو معى هنا .. اصبرى لحظة ريثما أتخذ استعداداتى ! » .

وأحضر الكهل جرة صغيرة ملفوفة بالورق ، ثم قال : « إذا ما صنعت (سلاطة اللبن) فخذى منها ما تحتاجين إليه فى يومك ، واحتفظى بالباقى لأربعة أيام ، ثم تذوقيه ، وسوف ترين أن (العم تشاكرا بارتى) لا يغالى فى الزهو ، حين يقول إنه يستطيع أن يعد (سلاطة اللبن) ! .. والآن ، اجرى فاغسلى يديك ، فقد حان وقت الفطور ، وسأتولى عنك ما بقى من مستلزمات الطهو .. ولا تقلقى ، فإنى واسع التجربة ، إذ أن زوجتى ضعيفة الشهية ، ومن ثم تعلمت صنع (سلاطة اللبن) لأحاول أن أثير شهيتها . إنك تضحكين من الشيخ المسن ، ولكننى لا أمزح ، بل هذا هو الحق ! » .. فقالت (كمالا) مبتسمة : « إذن ، فعليك أن تعلمنى صنعها ! » .. وإذ ذاك هتف الشيخ : « مهلا !.. إننى لا أتنزل عن معرفتى بهذه السهولة !.. إن ربة المعرفة ستغضب منى إذا بددت كرامة المعرفة بالنزول عنها فى أول أيام تعارفنا ، بل لابد أولا من أن تتملقى الشيخ لثلاثة أيام أو أربعة . ولا تشغلى بالك فى البحث عن طريقة لإرضائى ، فسوف أرشدك إلى هذا . القاعدة رقم ١ : أنا مشغوف بطلح الموز ، ولكننى لا أحب أن أمضغ كل ورقة . وليس من السهل على امرئ أن يغزو قلبى ، ولكنك مضيت بعيداً فى هذا الغزو يا عزيزتى ، بفضل وجهك المليح . أهلا بك ، ما اسمك يا صبى ؟ »

ولم يجب (أومش) ، لم إذ ترق له ألفة الشيخ ، وما كان ليتقبل فكرة وجود من يزاحمه فى عواطف (كمالا) . على أن الشيخ مضى قائلا : « إنه ولد لطيف !.. إنه لا يطلعك فوراً على ما يجول بخاطره

ولكنى أؤكد لك أننا لن نلبث أن ننسجم معاً . والآن ، ينبغى أن لا نضيع مزيداً من الوقت ، بل لابد من أن أسرع فى استكمال الطهو ! » :: وهكذا ملأت صحبة الشيخ الفراغ الذى كان قائماً فى وجود (كمالا) ، كما كان ظهوره مبعث ارتياح لرامش . فمن المؤكد أن الفارق بين مسلك (رامش) الراهن ، وبين الألفة المطلقة التى سادت علاقته بكمالا فى الأشهر القلائل الأولى — حين كان يعتقد أنها زوجته — قد جرح شعور الفتاة ، ومن ثم كان خليقاً به أن يرحب بكل ما يحول فكر الفتاة عنه ، لا سيما وأن هذا يتيح له أن ينصرف إلى التفكير فى علاج لآلام قلبه !

وفيما كان (رامش) منفرداً بنفسه ، وهو يجتر أفكاره ، ظهرت (كمالا) لدى باب قمرتها : كانت تعتزم أن تستأثر بصحبة (تشاكرا بارتى) خلال فترة الأصيل الطويلة ، التى لم يكن لديها ما يشغلها فيها . ولكن ، ما إن رآها الشيخ ، حتى هتف : « هذا لا يليق يا عزيزتى :: إنه لا يكفى ! » :: وأجفلت لقوله ، وأدهشتها لهجته : وإذ ذاك قال الشيخ مجيباً عن التساؤل الذى بدا فى عينيها : « إنما أعنى حذاءيك بالطبع :: هذا ذنبك يا رامش بابو . قل ما شئت ، ولكن هذا ضلال ! :: إن الذى يضع حائلا بين قدميه وأرض بلاده المقدسة ، إنما يزدرى بلاده !.. قد تضحك من قولى يا رامش بابو ، فأنت لا تقتنع به ، وهذا لا يدهشنى ، فكل شىء يرتقب من أولئك الذين يقفزون إلى سطح باخرة وهى تتهيأ للإقلاع ، دون أن يحفلوا بتعرف وجهتها ! » :: وقال (رامش) إذ ذاك : « يحسن بك أيها العم ، أن

تقرر بنفسك أين نبرح الباخرة ، فلسوف يكون لرأيك أثر يفوق صفير أية باخرة ! » :: فقال الشيخ : « عجباً ، إننا لم نتعارف إلا منذ ساعات قلائل ! :: حسناً ، خليق بكم أن تهبطوا فى (غازيبور) : هل تأتين إلى (غازيبور) يا عزيزتى ؟ :. إنهم يزرعون هناك وروداً جميلة :: وبها يعيش هذا الكهل المعجب بك ! » .. وتطلع (رامش) إلى (كمالا) ، فهزت رأسها فوراً ، إعلاناً لموافقتها !

ولزم (تشاكرا بارتى) و (أومش) قمرة (كمالا) خلال فترة الأصيل ، بينما بقى (رامش) وحيداً فى الخارج ، مما جعل الشابة تشعر بالحرج ! :. ومضت الباخرة تشق طريقها قدماً ، والمناظر على الضفتين تتراجع مسرعة فى وهج شمس الخريف ، بعضها يمثل حقول الأرز ، وبعضها يمثل مرافئ الشحن ، ومنها المنحدرات الرملية ، والأراضى الزراعية ، ومنها الأسواق ذات السقوف المصنوعة من الصفيح .. وقد تناثر المسافرون — هنا وهناك — فى جماعات صغيرة ، تحت الأشجار الظليلة ، فى انتظار القوارب التى تنقلهم من ضفة إلى أخرى . وكانت قهقهة (كمالا) تنبعث من القمرة أحياناً ، فتتناهى إلى أذن (رامش) خلال السكينة الناعمة التى تسود أصيل الخريف ، فيخفق قلبه ، ويهمس لنفسه : « ما أجمل كل هذا .. وما أبعده عن متناولى ! »

الفصل التاسع والعشرون

● لا تجد المخاوف والشكوك والقلق ، مكامن فى القلب تترسب فيها ، فى مثل السن التى كانت فيها (كمالا) . إذ سرعان ما شعرت بالوقت يتخلى عن تثاقله وينصرم سراعاً ، ولم تعد تجد ما يدفعها إلى أن تشغل

بالها – فى أسى – بمسلك (رامش) نحوها . وكان ضوء شمس الخريف يكشف البر بمختلف نواحيه ومناظره ، والنهر يتخللها كشريط ذهبى متألق . وأصبحت (كمالا) تجد فى دورها – كربة بيت – متعة تسرها وأضحت الأيام فى تواليها أشبه بصفحات جديدة فى ديوان شعرى من وحى السليقة ، دون ما صنعة أو تنميق ! .. وغدت تقبل على عملها اليومى – فى كل صباح – متحمسة . ولم يعد (أومش) يتأخر عن موعد إقلاع الباخرة . وكان يعود من بعثاته دائماً بسلة مفعمة ، لم تعجز محتوياتها فى أية مرة عن إثارة العجب فى نفوس أعضاء الجماعة الصغيرة : « يا عجباً .. انظروا القرع اليابس ! .. ومن أين استطاع أن يأتى بهذا الفول ؟ .. انظر ياعماه ، لقد أحضر لفتاً مملحاً ! ما كنت أعرف أن المرء يستطيع أن يحصل على مثل هذا فى البقاع الريفية ! »

وهكذا كانت تتعالى صيحاتهم فى دهشة ، وهم منكبون على السلة ، فى كل صباح ! .. ولم تكن الزمجرة تسمع إلا عند ما يكون (رامش) موجوداً ، إذكان يرتاب دوماً فى أن الصبى يسرق .. فكانت (كمالا) تصيح : « كيف ؟ .. لقد عددت النقود بنفسى قبل أن أسلمها إليه » ، فيقول (رامش) : « إن هذا يتيح له فرصة مزدوجة للسرقة : سرقة النقود ، وسرقة الخضر ! » .. ثم يدعو إليه (أومش) ويسأله حساباً عما أنفق . وما كانت أرقام الصبى لتتفق مع المعقول بطبيعة الأمر : فلو أن المرء صدق بياناته، لوجد أنه كان ينفق دائماً أكثر من المبلغ الذى عهد إليه به . ولكن هذا لم يكن يزعج الصبى فى شىء، بل كان موقفه كما عبر عنه مرة لتشاكرابارتى : « لو كنت أجيد الحساب ،

لما وجدتمونى هنا على الإطلاق ، بل لكنت وكيل ضيعة .. أليس كذلك يا جدى ؟ » .. فكان الشيخ يشفع له قائلا : « لنرجئ القضية يا رامش بابو ، ريثما نتناول الفطور ، فإنك لن تملك أن تصدر حكماً سليماً إلا بعده ، وأنا لا أستطيع فى الوقت الحاضر إلا أن أقف فى صف الغلام : على أن فن التدبير ونيل المطالب ليس من الفنون السهلة يا أومش ، والذين يستطيعون أن يمارسوه ليسوا كثرة . حقيقة إن الذين يحاولون ، كثيرون ، ولكن الذين ينجحون قلة بينهم ! .. إننى لا أملك سوى أن أطرى المواهب أينما صادفتها يا (رامش بابو) . فنحن نعرف مثلا أن الفول لا ينمو فى هذا الفصل ، وما أظن أن هناك كثيراً من الصبية الذين يستطيعون أن يأتوك بقدر منه فى مثل هذا الصباح المبكر ، وفى مثل هذا المكان الغريب .. إن الشك ميسور لكل إنسان يا سيدى ، أما التدبير ونيل كل مشتهى ، فهبة لا يحظى بها سوى واحد فى الألف من الناس ! » .

ويعقب (رامش) على هذا قائلا : « إنك لتعرف أن هذا ليس صحيحاً يا عماه ، فلا ينبغى أن تناصر الغلام ! » .. فيصيح الشيخ : « إنه لم يؤت مواهب كثيرة ، فإذا تركناه يتخلى عن هذه الموهبة ، نتيجة الضن بالتشجيع ، فسنندم على ضياعها قبل أن نبرح هذه الباخرة : اسمع يا (أومش) ، سأحتاج غداً إلى بعض أوراق اللبخ ، ويحسن أن تجمعها من الأشجار العالية . إننى فى حاجة إليها يا عزيزى ، فهم يعتقدون أننى أجيد العلاج والتطييب . ولكن ، تعساً للطب .. إننى لا أفعل أكثر من التحايل على شغل الوقت ! .. احرص على أن تغسل الورق جيداً يا أومش :

وكان الصبى يزداد تعلقاً بـ(كمالا) ، كلما أسرف (رامش) فى الارتياب فيه وتأنيبه .. وبمقدم (تشاكرابارتى) ، أصبح فريق (كمالا) مستقلا عن (رامش) ، إذ كان ثلاثتهم يعملون ويلعبون معاً ، فى تعاطف يربط بينهم . ولقد سرت بعض عدوى ولاء (تشاكرابارتى) لـ(كمالا) إلى نفس (رامش) ، ولكنها لم تذهب به إلى درجة الاندماج فى فريقها . كان كسفينة كبيرة ، لا تستطيع أن ترسـو على الشاطئ وإنما تضطر إلى أن تلقى مراسيها فى عرض الماء ، ثم ترقب البر عن بعد ، بينما تجنح القوارب والزوارق الخفيفة إلى الشاطئ بسهولة !

* * *

● وأوشك القمر أن يكتمل بدراً ، والباخرة ماضية فى رحلتها ، وفى ذات صباح ، استيقظ ركابها ليجدوا السماء فوقهم ملدهمة ، مثقلة بالغيوم ، والريح شديدة الهبوب . وأخذ المطر ينهمر ، والشمس تشرق فى توال وتناوب . ولم يكن فى عرض النهر من سفينة أخرى ، وإن بدت بعض قوارب صغيرة جانحة إلى الشاطئ ، والقلق يبدو فى حركات ملاحيها . وكانت الريفيات اللائى هبطن إلى الشاطئ لملء الجـرار ، لا يمكثن طـويلا . وبين الفينة والفينة ، كانت الرعشات تسرى فى صفحة النهر ، من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر ، والباخرة ماضية تشق طريقها ، و (كمالا) حريصة على أن لا تدع هذه التقلبات تصرفها عن واجبها فى المطبخ . وقال لها (تشاكرابارتى) وهو يتأمل السماء : « قد لا تستطيعين أن تطهى الليلة شيئاً ، فيحسن بك أن تعدى طعام العشاء من الآن . ألا ضعى (الكشرى) على النار ، ريثما أعد لك العجينة للخبز »

ولم يفرغوا من فطورهم — فى ذلك الصباح — إلا فى ساعة متأخرة وأخـذت الرياح تشتد عنفاً ، شيئاً فشيئاً ، والموج يعلو وينخفض ؛ واختفت الشمس وراء جحافل السحب ، قبل موعد غروبها بأمـد طويل ، فلم ينتبه أحد إلى هذا الغروب . ثم ألقت السفينة مراسيها ؛

وما لبث الليل أن هبط ، وأخذ القمر يبزغ من وقت لآخر خلال السحب المتراكمة ، مرسلا إلى الكون ابتسامة واهنة ! .. وهبت الريح فى زوبعة ، ثم انهمر المطر سيلا دافقاً . ولما كانت (كمالا) قـد تعرضت للغرق يوماً ، فقد كان من الطبيعى أن يستبد بها الجزع ، وقال (رامش) يطمئنها : « لا داعى للخوف يا (كمالا) .. إننا فى أمان على سطح الباخرة ، فاذهبى إلى فراشك ولا تقلقى . سأكون إلى جوارك فى القمرة الملاصقة ، ولن أستسلم للنوم فوراً ! » .. وأقبل (تشاكرابارتى) إلى بابها قائلا : « لا ترتاعى يا عزيزتى ، فلن تجسر العاصفة اللعينة على أن تمسك بسوء ! » .. ولكن (كمالا) وثبت إلى الباب وصاحت ضارعة : « ألا ادخـل واجلس بجانبى .. أرجوك يا عمـاه ! » .. وتردد (تشاكرابارتى) ، ثم قال : « لقد حان الوقت كى تستسلمى وزوجك للنعاس ، فخير لى ... » واجتاز العتبة وهو يتكلم ، فسرعان ما تبين أن (رامش) لم يكن فى القمرة . وإذ ذاك هتف فى دهشة : « عجباً .. أين (رامش بابو) ؟ .. ما أظنه ذهب ليسرق بعض الخضر فى مثل هذه الليلة العاصفة ! » .. فواتاه صوت (رامش) صائحاً : « أهلا .. أهذا أنت يا عماه ! .. أنا هنا فى القمرة المجاورة ! »

وأطل (تشاكرا بارتى) فى القمرة الأخرى ، فرأى رامش مستلقياً

على الفراش ، ملتفاً فى الأغطية ، وقد انصرف إلى القراءة على ضوء المصباح ، فقال له : « إن زوجتك الطيبة فى قلق من وحدتها . ألا دع كتابك جانباً ، فلن ترهب به العاصفة !.. تعال هنا ! » . واستولت على (كمالا) غريزة قوية سلبتها سلطانها على نفسها ، فصاحت فى انفعال وبصوت مختنق ، وهى تتشبث بيده : « لا ، لا يا عماه ! » .. ولم يصل صوتها إلى أذنى (رامش) وسط زئير العاصفة ، ولكن (تشاكرا بارتى) سمعه ، فالتفت فى عجب واكتئاب . وترك (رامش) كتابه وأقبل على القمرة الأخرى متسائلا : « ماذا جرى يا عم تشاكرا بارتى ؟ :. يبدو أنك وكمالا ... » ، فقاطعته (كمالا) وهى منفعلة ، دون أن ترفع إليه بصرها : « لا ، لا ! .. إنما سألته أن يأتى فيؤنسنى بحديثه ! » . ولم تدر فى الواقع ما الذى كانت تنفيه إذ صاحت : « لا ، لا ! » ، ولكن الشعور الحقيقى الذى بعث النفى إلى لسانها كان يقصد : « تخطئ إذا ظننت أننى بحاجة إلى شخص يبدد خوفى .. لست بحاجة إلى أحد .. تخطئ إذا خلت أننى أطلب رفيقاً ! » .. وتحولت للشيخ قائلة : « إننا فى ساعة متأخرة يا عماه ، فخليق بك أن تأوى إلى فراشك . وأرجو أن ترى ما إذا كان (أومش) بخير ، إذ أخشى أن يكون مرتاعاً بسبب العاصفة » : ووافاها صوت الصغير من جوف الظلام فى خارج القمرة : « لا شىء يروعنى يا أماه ! » .. وظهر (أومش) كان يجلس خارج باب (مولاته) وهو يرتجف ، فمس ولاؤه قلبها ، وجعلها تخف إليه صائحة : « لسوف تبتل بالمطر يا أومش .. أسرع فنم فى قمرة العم ، أيها الولد الشقى ! » . وأسرع

الغلام طائعاً ، يصحب العم (تشاكرابارتى) ، وقد أثقل قلبه أن وصفته (كمالا) بالولد الشقى ، رغم لهجتها الرقيقة !

* * *

● وسألها رامش : « هل أونسك إلى أن تنامى ؟ » :. فقالت كمالا : « لا ، أشكرك .. إن النعاس يثقل جفنى » . وأدرك الشاب حقيقة ما كان يجول بخاطر الشابة ، ولكنه لم يحاول أن يلح عليها ، إذ رأى على محياها أمارات الكبرياء الجريحة ، ومن ثم عاد فى تثاقل إلى قمرته : والواقع أن (كمالا) كانت فى ذعر وانفعال يمنعانها من النوم ، ولكنها أجبرت نفسها على الاستلقاء فى فراشها !

واشتدت الأنواء باشتداد العاصفة ، فسهر الملاحون ، وتوالت تعليمات الربان إلى غرفة المحركات ، إذ أن المرساة لم تعد كافية لأن تشد الباخرة إلى مرساها ، فأديرت المحركات ببطء . وما لبثت (كمالا) أن نضت عنها الأغطية ، وخرجت إلى السطح : وكانت الأمطار قد توقفت هنيهة ، ولكن الرياح كانت تعوى كمخلوق تنهال عليه السياط ! .. وكان البدر يطل شاحباً من بين السحب التى كانت تجرى أمام العاصفة كأشباح تنذر بالويل . وكانت ضفتا النهر لا تكادان تظهران ، بل إن النهر نفسه لم يكد يظهر للبصر ! .. واختلطت السماء والأرض ، والقريب والبعيد ، والمرئى وغير المرئى ، فى كتلة هوجاء ما لبثت أن اتخذت رويداً شكل الجاموسة السوداء التى يركبها ملك الموت .. تلك الجاموسة الرهيبة التى تشهر قرنيها فى هياج !

وعجزت (كمالا) عن أن تحدد كنه الشعور الذى جاش فى صدرها

وهى تتأمل السماء المعتمة ، والليل الهائج . ربما كان ذلك الشعور هو الخوف :. وربما كان الفرح كذلك !.. كانت فى ثورة الطبيعة قوة وحشية .. انطلاق جامح مس وتراً خاملا فى نفسها !.. لقد بهرها عنف ثورة الطبيعة . ترى ، ضد من كانت تلك الثورة ؟! .. ولم تسمع (كمالا) — فى زئير العاصفة — جواباً واضحاً : كان الجواب مبهماً ، كتلك الزوبعة التى هبت فى صدرها !.. كانت ثورة الطبيعة مجهوداً لا شك فيه لتمزيق رباط غير مرئى ، لا شكل له ولا حدود .. رباط من الخداع ، والوهم ، والغموض ، يهز الأرض — من أسسها — مع صراخ العاصفة الرهيبة : « لا ، لا ! » .. هذا الرفض البسيط ، الصريح ، هو الذى كانت الزوبعة تصرخه وهى تندفع من أقصى الفضاء اللانهائى إلى جوف الليل البهيم !.: ترى ما الذى كانت ترفضه ؟.. ولم تجد (كمالا) رداً ولا جواباً ، وإنما ظل الصراخ يدوى فى سمعها : « لا ، لا :. أبداً .. لا ، لا ، لا ! »

الفصل الثلاثون

● خفت وطأة الأنواء فى اليوم التالى ، وإن ظلت الريح محتفظة بقوتها ، وأخذ الربان يجيل بصره فى السماء ، وهو غير مستقر على رأى . وقام (تشاكرا بارتى) بزيارة لرامش فى القمرة المجاورة لقمرة (كمالا) فى الصباح الباكر ، وكان (رامش) لا يزال فى فراشه ، ولكنه لم يكد يراه حتى استوى جالساً . وإذ لاحظ الشيخ أن الشباب قضى ليلته فى تلك القمرة ، وتذكر ما حدث فى الليلة الماضية ، بدأ يشعر بأن فى الأمر ما يريب ، فقال متسائلا : « لعلك نمت هذه الليلة الماضية ؟ » ..

وتفادى رامش الإجابة ، قائلا : « يا له من صباح عاصف ! .. كيف قضيت ليلتك يا عماه ؟ » ، فقال تشاكرا بارتى : « لعلك تظننى أحمق يا (رامش بابو) ؟ فالواقع أن كلامى يوحى بذلك ، بيد أنى لم أصل إلى هذه السن ، دون أن أتعرض لكثير من المشكلات . ولقد استطعت أن أحل معظمها ، ولكنك أصعب معضلة قابلتها ! » .. فتضرج وجه (رامش) على الرغم منه ، ولكنه أسرع يتمالك نفسه وابتسم قائلا : « هل من الجرم أن أكون مستعصى الحل يا عماه ؟ .. يبدو أنك تتعجل الحكم على ما لا تفهم . فعندما يلتقى المرء برموز غريبة ، لا ينبغى له أن ينظر إليها قانطاً ، وأن ييأس من إمكان حلها ؟.. فقال الشيخ : « اغفر لى يا (رامش بابو) . قد يكون من الغرور الباطل أن أحاول فهم رجل لا أحظى بثقته .. ولكن الحياة أحياناً تجمع المـرء بأخ يميل إليه ويألفه من النظرة الأولى . إننى أستشهد بذلك الرجل ذى اللحية .. ربان باخرتنا فهو ولابد يعترف أنه يعتبر زوجتك الشابة صديقة عزيزة . سله ، وإذا لم يعترف فلن يكون مسلماً صادقاً . وعندما تكون الأمور على هـذا النسق ، فمن المؤلم جداً أن تجد نفسك فجأة أمام لغز من الألغاز التى لا سبيل إلى فهمها . ولو أنك أطلت التفكير فى الأمر ، لما رأيت فيه ما يؤلمك ! » .. فتنهد (رامش) قائلا : « لقد أطلت التفكير بالفعل ، ولهذا لم أتألم . ولكن .. سواء تألمت أو لم أتألم وسواء جرحت شعورك أو لم أجرحه ، فإن الرموز المستعصية ستظل مستعصية .. إنها من الشيم القاسية للطبيعة ! » .

وبدأ (رامش) يسائل نفسه عما إذا كان من الصواب أن يستمر

فى (غازيبور) . وكان أول ما جال بخاطره ، أن صداقته وكمالا للشيخ قد تفيدهما ، إذا آن لهما أن يتخذا مقراً فى بلد غريب عنهما . ولكنه ما لبث أن شعر بأن للصداقة مع أحد من أهل ذلك البلد بعض المضار ! فلو أن علاقته بكمالا صارت موضع نقاش ، لكان الأمر شاقاً على الفتاة . ومن الأسلم له ولها ، أن يعيشا مغمورين فى بلد كل أهله أغراب عنهما ، فلا يجد أى شخص من الألفة ما يبيح أن يوجه إليهما أسئلة ما . ومن ثم فقد قال لتشاكرا بارتى فى اليوم السابق على وصول الباخرة إلى (غازيبور) : « ما أظن (غازيبور) تناسبنى — من ناحية مهنتى — يا عماه ، ومن ثم قررت أن أذهب إلى بنارس ! » . وعجب الشيخ لرنة البت التى بدت فى لهجة رامش ، وقال : « ليس من الحزم أن تغير خططك باستمرار ! .. ومع ذلك ، فهل استقر رأيك الآن على الذهاب إلى بنارس ؟ » .. فأجاب باقتضاب : « نعم » .. وسار الشيخ فى صمت إلى قمرته ليحزم متاعه ، فسألته كمالا فى تخابث : « هل كرهتنى اليوم يا عماه ؟ » .. وبادر قائلا فى مداعبة : « وما الذى تنتظرينه إذا كنا نتشاجر من الصباح إلى المساء ؟ .. إنك لتعلمين أننى لم أسأمك بعد ! » .. قالت : « ولكنك تحاشيتنى منذ الصباح » ، فقال تشاكرا بارتى : « أتجسرين على أن تتهمينى بتحاشيك ؟ » .. بل أنت التى توشكين أن تهربى منى ! » .. فحملقت (كمالا) فيه وهى لا تكاد تفقه . وإذ ذاك قال لها : « ألم ينبئك رامش بابو ؟.. لقد قرر أن تذهبا إلى بنارس » . ولم تؤيد (كمالا) النبأ ، ولم تنفه . ولكنها قالت بعد فترة : « لن تستطيع أن تحزم متاعك يا عماه ، فدعنى أحزمه لك ! »

* * *

● وتألم تشاكرابارتى كثيراً ، لعدم اكتراث كمالا بالعدول عن مشروع (غازيبور) ، وإن كان قد قال لنفسه : « لعل هذا أفضل .. ما قيمة تكوين روابط جديدة فى حياتى ؟ » . وإذ ذاك ظهر (رامش) ليعلن كمالا بتعديل خطته ، قائلا وهو يراها ترتب ثياب تشاكرابارتى : « كنت أبحث عنك .. لن نذهب إلى (غازيبور) فى الوقت الحاضر يا كمالا ، فقد قررت أن أمارس مهنتى فى بنارس .. هل توافقين ؟» .. فأجابت دون أن تحول بصرها عن متاع تشاكرابارتى : « لا ، بل سأذهب إلى غازيبور ! » . وبهت رامش لرفضها الحاسم ، فسألها : « وهل ستذهبين وحدك ؟ » . فقالت وهى ترمق الشيخ فى ود : « لا .. بل سأصحب العم ! » . ولم يستسغ الشيخ هذا الموقف ، ولكنه قال : « إنك بإبداء مثل هذا التحيز يا عزيزتى ، تثيرين غيرة رامش بابو ! .. غير أن كمالا اكتفت بأن رددت : « سأذهب إلى غازيبور ! » .. وبدا من لهجتها أنها اعتبرت نفسها حرة فى أن تفعل ما تشاء ، فقال (رامش) : « حسناً يا عماه .. لنهبط فى (غازيبور) ! »

وصفت السماء فى المساء ، بعد مطر طويل ، وظل رامش جالس يفكر فى ضوء القمر إلى ساعة متأخرة : « لن نستطيع أن نمضى هكذا مدة أخرى .. لسوف يستعصى الموقف إذا تمردت كمالا : ولست أدرى كيف سأقيم معها ، ملتزماً الحدود التى رسمتها لعلاقتى بها ! .. لم أعد أحتمل أنها — رغم كل شىء — زوجتى فى الواقع والحقيقة . لقد اعتبرتها زوجتى منذ البداية ، ويجب أن لا يصدنى عنها عدم تلاوتى الصيغة الدينية المعهودة ، فإن الموت نفسه هو الذى منحنى إياها .



وتألم (تشاكرابارتى) كثيرا لعدم اكتراث (كمالا) بالعدول عن مشروع (غازيبور) ، وان كان قد قال لنفسه : لعل هذا أفضل ..

ووحد بيننا فى تلك الليلة التى قضيناها معاً على الشاطئ الرملى ! .. وفى الحق أنه أقوى نفوذاً من أى كاهن دنيوى ! »

كان يقف بينه وبين كمالا جيش بكامل عدته : فلابد له من أن يقهر العقبات والشكوك ، والخجل ، والخزى ، قبل أن يقف أمامها رافع الرأس ! وأجفل إذ تصور المعارك التى كان عليه أن يخوضها . أى أمل لديه فى الانتصار ؟.. كيف يثبت براءته وطهر غايته ، إذ يكفل كمالا ، مع أنها ليست زوجته شرعاً ؟!.. وحتى لو استطاع فسوف يشيح المجتمع عنه ، ويعرض عن الاتصال به ، فتكون النتيجة وبالا على كمالا !.. ولكن ، بعداً للجبن والتردد !.. لا حل للموضوع سوى أن يتخذ كمالا زوجة بالفعل !.. لابد أن همناليني تذكره الآن فى ازورار وإعراض ، وسيكون لهذا الإعراض فضل حملها على أن تقبل أى خطيب آخر !.. وتنهد (رامش) فى أسى ، وهو يلقى بآماله فى (همناليني) إلى الرياح !

الفصل الحادى والثلاثون

● صاح (رامش) : « إلى أين تزمع الذهاب يا أومش ؟ » . فأجاب الصبي : « سأذهب مع أمى ! » . قال رامش : « ولكننى دفعت أجراً لرحيلك حتى بنارس . وهذه غازيبور » .. فقال أومش : « ولكننى لن أذهب إلى بنارس » . ولم يكن رامش يتوقع أن يغدو الصبى عضواً دائماً فى أسرته ، ومن ثم استولت عليه الدهشة لثقة الصبى من موقفه .. فسأل كمالا : « هل سنصطحب أومش ؟ » .. وكان جوابها : « ليس له سوانا ! » .. قال : « بل له أقارب فى بنارس » .. فأجابت : « ولكنه

يؤثر أن يأتى معنا . والآن ، تذكر أنك فى بلد غريب يا أومش ، فاتبع العم وإلا فقدناك فى الزحام ! » . وبدا أن كمالا أصبحت تتولى وحدها القيادة ، وتحمل عبء تقرير وجهة الجماعة ومقرها . لقد انتهت — فجأة الفترة التى كانت تتقبل فيها ما يمليه عليها رامش فى خضوع . وهكذا رافقهما أومش دون ما جدال ، وقد تأبط حزمة صغيرة تضم ملابسه .

وكان العم يقيم فى دار صغيرة من طابق واحد . بين المدينة والحى الأوربى ، تقع أمامها بئر ذات فوهة مشيدة بالحجر ، وخلفها بستان من أشجار (المانجو) . ويفصل الجميع عن الطريق سياج منخفض زرعت بينه وبين الدار حديقة صغيرة للخضر ، تروى من البئر . ودعى رامش وكمالا إلى أن ينزلا ضيفين على أهل تلك الدار ، حتى يعثرا على دار يستقران فيها . ومع أن العم كان يصف زوجته — (هاريبابينى) — دائماً بأنها ضعيفة الجسم والصحة ، إلا أنها لم تكشف عن شيء من هذا الضعف فى مظهرها . فقد كان وجهها يطفح قوة ونشاطاً — رغم تجاوزها أوسط العمر — ولم يدب الشيب إلا إلى شعيرات قليلة فوق صدغيها ، كان من الواضح أن الشيخوخة أصدرت أمراً بضمها إلى رعاياها ، ولكنها لم تنفذه بعد ! .. أما ما كان زوجها يبنى عليه وصفه إياها بالضعف ، فكان كله راجعاً إلى أنها بمجرد زواجها من تشاكرا بارتى وقعت صريعة للملاريا ، ولم يكن من علاج — فى رأى زوجها — سوى أن تنتقل من الجو الذى اعتادت العيش فيه . ومن ثم سعى للحصول على منصب مدرس فى (غازيبور) ، ثم نزح

وأسرته إلى هناك . وكانت (هاريبابينى) قد استردت صحتها منذ أمد طويل ، ولكن زوجها لم يكف عن العناية بها ورعايتها !

ورحب (تشاكرا بارتى) بضيفيه فى حجرة تقع فى مقدمة الدار ، ثم غاب داخل الدار يبحث عن زوجته . حتى وجدها فى ساحة محاطة بسياج ، تعرض آنيتها الفخارية للشمس ، وتطحن القمح . فصاح بها : « ما هذا ؟ إن اليوم يميل إلى البرودة . أفما كان يحسن بك أن تأتزرى بشال ؟ » .. فأجابت : « ما هذا الذى تقول ؟ برد ! .. إن الشمس تكاد تشوى ظهرى ! » . وإذ ذاك تحول تشاكرابارتى قائلا : « ما ينبغى هذا . إن علينا أن نقيم لك مظلة تقيك من الشمس ! » . فقالت (هاريبابينى) : « فليكن . ولكن . قل لى الآن .. أين كنت طيلة هذه المدة ؟ » ، فأجاب : « هذه قصة طويلة .. لقد اصطحبت ضيفين . يجب أن نكرمهما قبل أن نفعل أى شىء آخر ! » .. ووصف لها ضيفيه بإيجاز . وما كانت هذه أول مرة يستضيف فيها أغراباً ، ولكن (هاريبابينى) لم تكن ترتقب أن تستضيف زوجين فهتفت : « عفواً ، ولكنا لا نملك مكاناً يليق بهما ! » ، فقال زوجها : « خليق بك أن ترحبى بهما أولا ، ثم نتدبر أمر مقامهما . أين سايلا ؟ » ، فأجابت : « إنها تغسل جسم طفلها » .

وما لبث تشاكرا بارتى أن صحب كمالا إلى حيث كانت زوجته ، فقدمت الشابة لهايبابينى التحية التى تليق بسنها ، ومست العجوز بدورها ذقن كمالا بإحدى أصابعها ، ثم قبلت تلك الإصبع ، وقالت لزوجها :

« ألا تراها شديدة الشبه بعزيزتنا بيدو ؟ » ... وكانت (بيدو) ابنتهما الكبرى ، وتعيش مع زوجها فى مدينة (الله أباد) . وعجب تشاكرا بارتى فى نفسه من هذه المقارنة ، فما كان ثمة أتفه شبه بين بيدو وكمالا ، ولكن هاريبابينى لم تكن تقر مطلقاً بتفوق أية فتاة عن ابنتها فى الجمال أو الشكل ! .. أما ابنتهمـا الأخرى (سايلاجا) فكانت تقيم معهما . وكان وجودها هذا كفيلا بأن يدحض زعم أمها ، إذا ما قارنت جمالهـا بجمال أية فتاة . ومن ثم كانت الأم تقصر المقارنة على الابنة الغائبة !

وقالت هاريبابينى : « يسرنا أن نحظى بكما ، وإن كنت أخشى أن لا نستطيع أن نوفر لكما الراحة الكافية ، فإن أعمال الإصلاح فى بيتنـا الجديد لم تستكمل بعـد . ومن ثم فنحن مضطرون إلى أن نحشر أنفسنا ومتاعنا هنا ! » . والواقع أن تشاكرا بارتى كان قد اشترى بيتاً فى سوق المدينة ، وأخذ يجرى فيه بعض الإصلاحات ، ولكنه لم يكن من السعة بحيث يصلح لسكناهم ، ولا خطر ببالهم أن يتخذوه مسكناً ! . ذلك ضحك (تشاكرا بارتى) من فرية زوجته ، ولـكنه لم يشأ أن يفضحها ، بل قال لكمالا : « لو أنك عارضت فى التعرض لأى تعب . لما أحضرتك إلى هنا » . والتفت إلى زوجتـه قائلا : « يحسن بك أن لا تبقى بعد الآن فى الساحة ، فإن شمس الخريف غير مأمونة ! »

* * *

● وإذ خلت (هاريبابينى) إلى (كمالا) ، راحت تمطرها بالأسئلة : « إن زوجك محام ، أليس كذلك ؟ .. كم مضى عليه فى المهنة ؟ وما دخله ؟ آه ، ألم يبدأ بعد فى ممارسة مهنته ؟ إذن ، فكيف تظفران

بعيشكما ؟ هل ترك له حماك ثروة كبيرة ؟ ألا تعرفين ؟ يا لك من فتاة عجيبة ! ألا تعرفين شيئاً عن أهل زوجك ؟ كم يعطيك زوجك لنفقات البيت فى كل شهر ؟ إن فتاة فى مثل سنك يجب أن تشرف بنفسها على كل شيء ، ما دامت حماتها قد فارقت الحياة ! .. إن زوج ابنتى (بيدو) يسلمها كل ما يكسب ! » .. بمثل هذه القذائف من الأسئلة والتعليقات ، أظهرت السيدة العجوز كمالا على عجزها وجهلها بشئون زوجها وأسرته . ففطنت إلى أنها لم تحظ قط بفرصة تتحدث فيها مع رامش عن شئونه .. بل تبينت أنها لا تكاد تعرف شيئاً عن الرجل الذى صار زوجاً لهـا ! .. وللمرة الأولى ، انتبهت إلى غرابة هذا الوضع ، فغشيها شعور بالأسى لتفاهة شأنها . وعادت هاريبابينى تقول : « أرينى أساورك يا عزيزتى ؟ .. إن ذهبها ليس جيداً جداً .. ألم يمنحك أبوك حلياً عند زواجك ؟ آه ، إنه ميت ! .. يجب أن تقتنى بعض الحلى على أية حال .. ألم يقدم إليك زوجك شيئاً منها ؟ .. إن زوج (بيدو) يعمل على أن يقدم إليها سواراً عريضاً فى كل شهرين تقريباً ! » .

وقطع عليها هذا التحقيق دخول (سايلاجا) ، تجر ابنتها (أومى) التى كانت فى الثانية من عمرها ، كانت (سايلاجا) سمراء ، دقيقـة القسمات ، عريضة الجبين ، ينم محياها عن حيوية وخفة دم ، وعن تعقل واتزان .. وتأملت (أومى) الضيفة لحظة ، ثم هتفت : « خالتى ! » . ومع أن كمالا لم تكن تشبه بيدو ، إلا أن الطفلة ، كانت تضع فى مرتبة خالتها كل أنثى تميل إليها ! .. ورفعت كمالا الطفلة إلى ركبتيها ، بينما قدمت هاريبابينى ضيفتها إلى ابنتها قائلة : « زوج هذه السيدة محام ،

وقد وفد على بلدتنا ليمارس مهنته ، والتقيا بأبيك وهو فى طريقه عائداً فاستضافهما » . وتقابلت أعين الفتاتين ، فكانت النظرة عربون صداقة وثيقة . وذهبت ربة البيت تستعد لإكرام الضيفين ، فأمسكت سايلاجا بيد كمالا ، ودعتها إلى غرفتها الخاصة . ولم يمض وقت يذكر ، حتى كانتا تتحدثان فى ود وألفة ، إذ كان الفارق بين عمريهما لا يكاد يكون ملحوظاً . وكانت كمالا تفوق سنها فى سعة الأفق ورجاحة الفكر . ولعل ذلك كان راجعاً إلى أن روحها الفردية لم تتعرض لسيطرة حماة ، فلم تخرق أذنها يوماً عبارات مثل : « اعقلى لسانك ! » .. « افعلى ما آمرك به ! » .. « ما ينبغى للصغيرات أن يكثرن من قول (لا) لمن يكبرنهن ! » . ومن ثم واجهت الحياة بقامة منتصبة ، وبرأس مرفوع ، كنبات قامت ساقه معتدلة ، صلبة !

وسرعان ما اندمجت الصديقتان الجديدتان فى الحديث ، رغم أن الصغيرة (أومى) لم تكف عن محاولة الاستئثار باهتمامهما . على أن كمالا ما لبثت أن فطنت إلى أنها — على الرغم من رجاحة فكرها — لم تكن تعادل (سايلاجا) لباقة !.. ولم تستطع بحديثها عن حياتها الزوجية إلا أن ترسم صورة سريعة ، ناقصة ، خالية من الألوان . لم تفطن قط قبل اليوم إلى حقيقة هذه الحياة الزوجية . وإن كانت قد أحست — بغزيرتها — أنها كانت تفتقد شيئاً ، طالما أثار الجهل بكنهه فورات من التمرد فى نفسها ! .. وهكذا ، ما إن زالت الكلفة بين الفتاتين ، حتى راحت (سايلاجا) تتحدث عن زوجها ، ولكن (كمالا) كانت تعلم أنها لا تحسن الضرب على هذا الوتر ، فما كان لديها ما يمكن أن يقال

عن زوجها ! .. كانت مادتها فى هذا المضمار ضئيلة !.. وعرفت أن (بيبين) — زوج سايلاجا — كان موظفاً فى مصنع للأفيون بغازيبور . وأن لتشاكرا بارتى ابنتين ، تقيم كبراهما مع أهل زوجها . وأن الشيخ لم يقو على فراق ابنته الصغرى ، ومن ثم اختار لها زوجها .. شاباً رقيق الحال ، رضى بأن يتولى المنصب الذى حصل له تشاكرا بارتى عليه بالوساطة والمحسوبية ، وقبل أن يعيش مع أهل زوجته . وقطعت (سايلاجا) الحديث فجأة . لتقول : « اسمحى لى ببضع دقائق يا عزيزتى ولن أغيب عنك طويلا » . وشرعت تذكر فى اعتداد أن زوجها قد انتهى من استحمامه . ولابد لها من أن تقدم له الفطور قبل أن يخرج إلى عمله . فسألتها كمالا فى سذاجة : « وكيف عرفت أنه عاد من الحمام ؟ ». فقالت سايلاجا : « آه ، لا تعبثى بى .. كيف تعرف المرأة شيئاً كهذا ؟ .. ألا تعرفين وقع خطوات زوجك إذا سار؟! » .. وضحكت وهى تقرص خد كمالا مداعبة ، ثم رفعت طرف وشاحها إلى كتفها ، وجرت (أومى) مغادرة الحجرة . وما أدركت كمالا من قبل أن لوقع الأقدام لغة يمكن فهمها !.. فسرحت بصرها خلال النافذة وهى مستغرقة فى التفكير .. كانت النافذة تشرف على شجرة (جوافة) راح النحل يحوم حول أغصانها المثقلة بالبراعم .

الفصل الثانى والثلاثون

● استأجر رامش داراً تقع فى بقعة منعزلة على شاطئ نهر (الجانجز) وكان لابد من أن ينقل متاعه ، وأن تقوم بالإجراءات الرسمية التى تمكنه من أن يمارس مهنته أمام محاكم (غازيبور) .. وكان الأمر يتطلبان

زيارة (كلكتا) ، فى حين أنه كان يوجس من العودة إلى المدينة ، فقد كان لأحد شوارعها ذكريات تقض هدوء باله !.. وكانت الظروف قد تجمعت بحيث لم يعد فى وسعه أن يسوف طويلا فى قبول المركز الذى كنت تحتمه عليه الأوضاع .. مركز الزوج لكمالا ، بكل ما يتطلبه الزواج ، وإن ظل عجزه عن مواجهة الواقع يزين له أرجاء الرحلة إلى (كلكتا) !

وكان المكان فى دار تشاكرا بارتى الصغيرة محدوداً ، وقد أفردت لكمالا غرفة فى داخل الدار ، بينما أقام رامش فى الغرفة الخارجية ، فلا يكاد كل منهما يرى الآخر . وأسرت سايلاجا إلى كمالا بأسفها من هذه التفرقة ، فسألتها (كمالا) : « وفيم اهتمامك ؟.. ليس هذا بالوضع البغيض ! » .. فضحكت سايلاجا : « يا لك من شابة قاسية القلب .. لن تخدعيني بهذا التظاهر ! إننى أعرف ما يدور بخلدك ! » .. فقالت كمالا : « أصدقيني القول .. هى أن بيبين بابو لم يقترب منك يومين ، فهل ..؟ » ، فصاحت سايلاجا مزهوة : « وكيف ؟.. إنه لا يحتمل البعاد عنى يومين ! »

ومضت تروى حكايات عن افتتان (بيبين بابو) بها . وقصت عليها الحيل التى كان يبتكرها بعد الخطبة ليجتاز خطوط الأعداء — أى رقابة أبيها وأمها — حتى يتمكن من رؤيتها ، وكيف كانت حيلة تنكشف فى بعض الأحيان فيخفق ، وكيف أنهما وجدا — حين حرمت عليهما اللقاءات — عزاء فى تبادل النظرات خلال مرآة قاعة الجلوس ، عندما كان (بيبين) يفد لزيارة أبويها ! .. وأشرق وجه سايلاجا وهى

تروى البهجة التى كانت تملأ قلبيهما فى تلك الأيام الخالية . ولقد اضطر (بيبين) فى فترة من الزمن إلى أن يلازم عمله طوال نهاره ، فمضت (سايلاجا) تصف كيف كان كل منهما يشتاق إلى الآخر ، وكيف كان الشاب يتسلل من عمله أحياناً كى يوافيها فى البيت ! .. واضطر مرة إلى أن يتغيب فى (باتنا) بضعة أيام لأمر يتعلق بأعمال أبيه ، فقالت له زوجته : « هل ترى بوسعك أن تذهب إلى (باتنا) فتمكث فيها بمفردك ؟ » .. وأجابها فى زهو : « بالطبع ! » ، فآلمت لهجته شعورها وأقسمت أن لا تبدى أقل أسى فى الليلة السابقة على رحيله ، ولكن قسمها ذاب فى فيض من الدموع . فلما أعد كل شيء للرحيل فى الصباح التالى ، أصيب (بيبين) بصداع ، وبمرض خفى استلزم إلغاء رحلته . وعاده طبيب فوصف له بعض الأدوية التى عمد وسايلاجا إلى صبها فى البالوعة خفية .. ولم يلبث المريض أن شفى بمعجزة غامضة !.. وبدا على سايلاجا أن هذه الذكريات حملتها بعيداً عن العالم وهى ترويها. على أنها لم تكد تسمع صرير الباب الخارجى بعد قليل ، حتى وثبت من مكانها ، وأعلنت أن (بيبين) قد عاد من عمله .. فلقد كانت — رغم استغراقها — تنصت إلى أتفه صوت ينبئ بقدوم زوجها !

ولم تكن (كمالا) ترى وصف سايلاجا لحياتها الزوجية ضرباً من الخيال ، فلقد خبرت يوماً وميض هذا الشعور بالذات . وكانت تحس فى بعض أوقات الشهور الأولى لإقامتها مع (رامش) ، بوتر يدق فى أعماقها، ويوحى إليها بلحن يجلو لغز الرابطة الزوجية . وعندما انطلقت من أسار المدرسة وعادت إلى رامش ، كانت تمر بها لحظات من نشوة

روحية ، فتشعر باللحن الغريب ينبعث من أعماقها . فلما سمعت أقاصيص سايلاجا ، بدأت تفهم بعض معانى تلك المشاعر . على أن تجاربها هذه لم تكن من العمق أو الثبات بحيث تخلف أثراً باقياً . ولم يكن بينها وبين رامش ما يقاس على هذه اللهفة التى تربط بين سايلاجا وبيبين .. فما أثار هذا الفراق الموقوت الذى ضرب بينها وبين رامش أى أسى فى أعماقها ولا استطاعت أن تتصور أن يفكر رامش فى حيل للتسلل إلى (الحريم) والظفر بنظرة منها !

* * *

● وشعرت سايلاجا بحرج حين أقبل يوم الأحد . فقد شق عليها أن تترك صديقتها الجديدة وحيدة طول يومها ذاك ، ولا وجدت من القوة ما يمكنها من أن تضحى بهذا اليوم الوحيد فى الأسبوع ، فتحرم نفسها صحبة بيبين . وكانت تدرك أنه لا يوجد ثمة اتصال بين كمالا ورامش ، رغم أنهما يقيمان تحت سقف واحد ، ومن ثم تمنت لو توفق إلى الجمع بينهما ! .. ولم تعمد إلى استشارة والديها . ولكن تشاكرا بارتى لم يكن فى حاجة إلى من يستشيره ، إذ أعلن عن عزمه على أن يقضى ذاك اليوم فى المدينة بسبب أعمال هامة ، وقال لرامش — وهو موشك على الرحيل — : إن بوسعه أن يوصد الباب الأمامى للدار . وتعمد أن يرفع صوته لتسمعه ابنته ، وهو موقن من أنها لن تعمى عن غرضه !

وقالت سايلاجا لكمالا بعد أن اغتسلتا فى النهر : « هيا يا عزيزتى ، لنجفف شعرك وننسقه » .. وانكبت على هذه المهمة ، فنسقت شعر صديقتها بشكل أنيق . ثم دار بينهما جدال بشأن الثوب الذى يحسن

بكمالا أن ترتديه ، إذ أصرت سايلاجا على أن يكون زاهى اللون ، وكمالا فى حيرة من سر هـذا الإصرار ، وإن انصاعت له إرضاء لصديقتها . وما أن انتهوا من الغداء ، حتى همست (سايلاجا) فى أذن زوجها بكلمات ، فلم يلبث أن بارح المكان متعللا بحجة ما . وتحولت سايلاجا تغرى كمالا على أن تزور زوجها فى غرفته الخارجية . ولم تكن (كمالا) قد أبدت أى تلهف لرؤية (رامش) ، إذ لم يعلمها أحد أن فى مسلكها هذا خروجاً على العرف ، ولا كان فى درايتها المحدودة بالمسائل الجنسية ما ينبهها إلى شذوذ تصرفها .. ومع ذلك فإنها أعرضت عن الانصياع لإغراء سايلاجا ! .. وخيل إلى هذه الأخيرة أن كبرياء الفتاة تمنعها من أن تكون الساعية إلى زوجها ، فانتهزت فرصة استسلام أمها للقيلولة ، وأوحت إلى بيبين بأن يذهب إلى (رامش) فيذكر له أن (كمالا) تريد أن يوافيها فى داخل الدار !

وكان رامش مستلقياً على ظهره ، على سجادة فى الغرفة الخارجية ، وقد ثنى إحدى ركبتيه فى وضع رأسى ، وأسند إليها الساق الأخرى ، ومضى يقرأ صحيفة (البايونير) . فلما سمع الرسالة ، ذهل !.. كان قد عقد العزم على أن يجعل من كمالا زوجة له اسماً وفعلا ، ولكن الفراق الذى حال بينهما فى تلك الدار رده إلى تردده القديم . ولقـد كانت تراوده رؤى السعادة التى تنتظره إذا ما غدت كمالا شريكة حقة لحياته ولكنه أحس فى تلك اللحظة بأن تحطيم الجليد الذى اكتنف علاقاتهما ليس بالأمر اليسير !.. ومع أن الرسالة التى حملها إليه بيبين أوحت إليه بأن (كمالا) ربما رغبت فى محادثته فى أحد الشئون ، إلا أن موجة من

الانفعال العاطفى غمرت قلبه ، فطرح الصحيفة جانباً ، وتبع (بيبين) خلال السكينة المخدرة للأعصاب ، التى تشوب فترة ما بعد الظهر فى فصل الخريف . وأحس بذلك الانفعال الذى يغشى العاشق وهو يسعى إلى حبيبته !

وكانت (كمالا) قد اطمأنت إلى أن سايلاجا عدلت عن إلحاحها ، وخلت إلى زوجها ، فجلست على عتبة باب غرفتها تتأمل الحديقة . وكانت أحاديث سايلاجا قد فتحت قلبها للحب دون أن تفطن ، فأخذت تتصاعد من صدرها – بين الحين والحين – زفرة تثير أشجانها ، كما تهز النسمة الدافئة أوراق الشجر !.. وفجأة أقبل رامش !.. وأجفلت إذ أخرجتها صيحته الخافتة من استغراقها : « كمالا ! » .. وجرى الدم فى عروقها ، وهى التى لم يعترها الخجل مرة أمامه ، فنكست رأسها . وبدت له فى زينتها ، وفى اعتدادها بنفسها ، مخلوقاً جديداً ، فإذا به يقع تحت سحرها !.. واقترب منها فى بطء ، وتردد لحظة أو اثنتين قبل أن يقول فى لطف : « هل استدعيتنى يا كمالا ؟ » .. ودهشت لسؤاله فهتفت : « لا ، بكل تأكيد . ما دعوتك . ولماذا أدعوك ؟ » .. قال : « لو أنك أرسلت فى طلبى بالفعل ، لما كان عملك جرماً ! ».. فكررت فى تحمس وتأكيد : « ما دعوتك مطلقاً ! » .. ولكنه قال : « فليكن .. لقد جئت دون دعوة ، وما أراك ستطردينني خزياً منى ؟ » قالت : « سيعرفون أنك جئت فيغضبون .. أرجوك .. انصرف فوراً ! » .. فأمسك بيدها قائلا : « حسناً .. إذن ، تعالى إلى غرفتى ، فليس من سواى هناك ! » . ولكن كمالا انتزعت يدها وهى ترتجف ، وهربت إلى غرفة أخرى !

وأدرك (رامش) ما حدث ، وفهم أن إحدى نساء البيت دبرت الخطة ، فعاد إلى حجرته وقد توترت أعصابه . واستلقى فى مرقده ، ممسكاً بالصحيفة ، وقد راحت الأفكار تتوالى على رأسه . هذا بينما كانت (سايلاجا) تقف مذهولة ، وقد رأت (كمالا) منكفئة على أرض غرفتها ، ووجهها بين راحتيها ، وهى منخرطة فى البكاء . وراحت تهتف فى جزع : « ماذا بك يا عزيزتى ؟.. ماذا جرى ؟.. لم تبكين ؟ » .. فصاحت (كمالا) : « آه ، لماذا أرسلت له ؟.. كان خطأ لا يغتفر ! » . فقد أدركت أن أحداً لا يجسر على مثل هذا التدبير سوى صديقتها ، وإن كانت توقن – فى الوقت ذاته – من أن أحداً لا يعرف على الإطلاق سر الأسى الذى خالجها فى الأيام السالفة !.. كانت تبنى لنفسها قصوراً فى الهواء ، وقد أوشكت أن ترسم آخر خطوطها ، عندما أقبل رامش ، ولو أنه تسلل برفق إلى المنظر الذى كانت تراه بعين الخيال ، لمضى كل شىء على ما يرام . بيد أن دخوله المفاجئ وهو مطمئن إلى أنها استدعته ، جعله يصطدم بقصور الأحلام فيهدمها !.. وذكرت محاولته إبقاءها سجينة المدرسة خلال العطلة ، وإهماله شأنها على الباخرة ، وتزاحمت فى ذهنها الذكريات . ثم إن الود والألفة شىء ، ومجرد تلبية الدعوة شىء آخر ! وما كانت قبل قدومها إلى (غازيبور) ، قد فطنت إلى أن بين الأمرين عالماً واسعاً .. ولكن (سايلا) لم تكن لتستطيع أن تفهم هذا . كان فوق إدراكها أن تلمس وجود حاجز حقيقى بين رامش وكمالا . على أنها رفعت رأس كمالا فى جهد ، وأسلمتها إلى حجرها . وأخذت تقول : « صارحينى يا عزيزتى

هل قسا عليك (رامش بابو) فى القول؟.. لعله وبخك لأن زوجى دعاه إليك .. كان خليقاً بك أن تذكرى له أننى المذنبة ! » .

— لا ، لا .. إنه لم يقل شيئاً عن هذا! ولكن، لماذا عملت على حضوره ؟

— كان خطأ منى ، فاغفر لى !

واستوت كمالا جالسة فجأة ، وطوقت عنق سايلا بذراعيها ، وهتفت : « ألا اسرعى الآن يا عزيزتى ، فلابد أن بيبين بابو قد ضاق ذرعاً بغيابك ! » .. وفى تلك اللحظة ، كان رامش يسرح بصره فى صحيفة (البايونير) فى تكاسل ، ثم اعتدل جالساً ، وألقى الصحيفة جانباً وقال لنفسه : « كفى .. سأذهب غداً إلى كلكتا ، فأنجز أعمالى .. فإنى لأزداد شعوراً بقسوتى كلما تأخرت فى جعل كمالا زوجة حقيقية لى ! »

الفصل الثالث والثلاثون

● كان (رامش) قد عقد العزم على أن يتعجل إنجاز أعماله فى (فلكتا) ، وعلى أن لا يضع قدمه فى حى (كالوتولا) مطلقاً ، ومن ثم نزل فى داره بحى (دار دجيبارا) . بيد أن أعماله لم تكن تشغل من نهاره سوى وقت قصير ، فكانت بقية ساعات اليوم الأربع والعشرين تمر متثاقلة ، ممضة . ولم يكن بوسعه أن يواجه معارفه القدامى ، بل إنه اتخذ الحيطة كى يتفادى فرص الالتقاء بهم فى الطريق . ومع ذلك ، فقد وجد أن عودته إلى مسرح أشجانه القديمة قد أحدث أثراً فى نفسه . كان جمال كمالا اليافعة قد ألقى عليه سحره ، تحت سماء الريف المترامية ،

وفى هدوئه الوادع . على أن هذا السحر انجاب عنه فى المدينة . وحاول الشاب فى مسكنه بدار ديجبارا أن يتمثل صورة الفتاة فى حسنها ، يملى منها عينيه . ولكن خياله لم يستجب لرغبته . وكان يكرر الأقسام والعهود أن لا يولى (همنالينى) أى اهتمام ، ولكن ذكراها كانت تنبعث فى ذهنه . وتزداد إشراقاً ، طيلة النهار والليل . وبات عزمه على نسيانها يضاعف من إلحاح ذكراها عليه !.. ولو أن رامش تمكن من أن يفرغ من أعماله سريعاً ، لعجل بالعودة إلى (غازيبور) ، ولكن كل صغيرة كانت تتطلب إجراءات مزعجة . على أنه ما لبث أن نفض يديه ذات يوم ، وقرر الرحيل إلى (الله آباد) ، ومنها إلى (غازيبور) . بيد أنه علل نفسه بأن لا ضير عليه — والحال هذه — إذا قام بزيارة مختلسة لحى (كالوتولا) قبل أن يبرح (كلكتا) !

وإذ انتهى إلى هذا القرار ، جلس فكتب خطاباً لهمنالينى ، عرض فيه لكل علاقاته بكمالا ، بإسهاب وتفصيل ، واستطرد إلى ما اعتزمه من أن يتخذ تلك المسكينة — التى لا حول لها ولا نصير — زوجة حقيقية له . إذا ما عاد إلى (غازيبور) . كانت رسالة وداع فضفض فيها عما بصدره لحبيبته السابقة ، قبل أن يفترق عنها فراقاً نهائياً كاملا ، ثم أودع الرسالة ظرفاً أغلقه . بيد أنه لم يكتب اسم المرسل إليها فى الخارج ، ولا فى الداخل . فقد كان مطمئناً إلى أن بوسعه أن يجد بين خدم (أنادا بابو) أعواناً ، إذ كان لطيفاً مع كل من كانوا يحيطون بهمنالينى ، كما كان ينتهز أتفه الأسباب ليغمرهم بعطاياه . ومن ثم قرر أن يسعى إلى هناك بمجرد هبوط المساء . فحاول أن يحظى بنظرة

إلى همنالينى عن بعد ، ثم يسلم الرسالة إلى أحد الخدم ويوصيه بأن يحملها فى الخفاء إلى الفتاة ، فيكون هذا آخر ختام للروابط القديمة التى كانت بينهما !.. وبالفعل ، غادر مسكنه مع مجىء الليل ، حاملا رسالته ، وتسلل — بأوصال مرتجفة ، وقلب مضطرب — إلى شارع الذكريات التى لا تنمحى ، فألفى باب الدار مغلقاً ، والنوافذ موصدة ، والمسكن مهجوراً ، يرين عليه الظلام . وطرق الباب .. وعند الطرقة الثالثة أو الرابعة ، رفع الحارس المزلاج وفتح له ، فبادره رامش قائلا : « أهذا أنت يا سوخان ؟ » .. وواتاه الجواب : « أجل ، أنا سوخان » .. قال رامش : « إلى أين ذهب مولاك ؟ » .. فأجاب الحارس : « رحل إلى الريف مع السيدة ابنته لتغيير الجو ! » . قال رامش : « وإلى أى بلد ذهبا ؟ » ، فأجاب : « لست أدرى » . فسأله : « وهل رافقهما أحد؟.. وأجاب الحارس : « أجل ، رافقهما نالين بابو » ، فهتف (رامش) : « ومن يكون نالين بابو ؟ » .. قال الحارس : « لست أعرف ! » . على أن رامش ما لبث أن عرف من (سوخان) أن نالين هذا كان شاباً أكثر من التردد على الدار فى الفترة الأخيرة . ومع أن رامش كان قد تخلى عن كل أمل فى همنالينى ، إلا أنه أحس بكراهية نحو (نالين بابو) هذا !

وعاد يسأل الحارس : « وهل كانت السيدة الشابة فى صحة طيبة حين رحلت ؟ » .. فأجابه : « آه ، أجل .. كانت بخير ! » .. وكان الحارس يقصد بجوابه أن يطمئن (رامش) ويطيب خاطره ، ولكن السماء وحدها هى التى عرفت إلى أى مدى أخطأ حدس سوخان !..

ورغب رامش فى أن يجوس خلال غرفات الدار ، فحمل الحارس مصباحاً من مصابيح البترول ، يتصاعد منه الدخان ، وتقدمه صاعد السلم ، وأخذ رامش ينتقل من غرفة إلى أخرى وكأنه طيف . وكان يتوقف بين آن وآخر ، ثم يجلس على أحد المقاعد ، أو إحدى الأرائك التى كان يعتز بها . كان كل شىء على عهده به ، فليس من جديد سوى هذا الدخيل : (نالين بابو) ، الذى ظهر فجأة من حيث لا يدرى رامش !.. وما خطر له أن الطبيعة تكره الفراغ ، ولا تحتمل أن ترى فراغاً دون أن تملأه !.. وتأمل رامش النافذة التى وقف عندها إلى جوار همنالينى فى ضياء شمس الخريف الآفلة ، وقد انسجم قلباهما فى وجيب واحد !.. إن الشمس لا تزال — ولا بد — ترسل فلول أشعتها خلال هذه النافذة ، وهى راحلة فى كل يوم .. ولكن ثمة شخصاً آخر خلف رامش ، فى اللوحة التى تستقر فى إطار النافذة عند الغروب !.. أفلا تقف روح الماضى بين الشخصين اللذين يقفان فى النافذة ، فتفرق بينهما وهى ترفع إصبعها منذرة ؟.. وثارت فى صدره الكبرياء الجريحة .. وبدلا من أن يذهب إلى (الله آباد) فى اليوم التالى رحل مباشرة إلى (غازيبور) !

الفصل الرابع والثلاثون

● كان رامش قد قضى فى (كلكتا) شهراً تقريباً ، وهو عمر طويل لدى فتاة فى سن (كمالا) ، بلغت أوج مرحلة المراهقة ، وأوشكت على النضوج : فإن أنوثتها لم تكد تفيق من سباتها ، حتى تفتقت عن إدراك كامل ، تماماً كما يحدث عندما ينقلب ضياء الفجر فجأة إلى إشراق

الشمس . ولعل أنوثتها ما كانت تتفتح بمثل هذه السرعة ، لولا توثق صلاتها بسايلاجا . وما كانت تضفيه عليها شخصية هذه الفتاة من نور ودفء . وفى تلك الأثناء، كان تقاعس (رامش) ، وإلحاح (سايلاجا) قد حملا (العم) على أن يتولى التقاط الأثاث اللازم للمنزل الذى استؤجر على ضفة نهر (الجانجز) فى أقصى أطراف المدينة . كما استأجر من الخدم العدد الكافى للعناية بالبيت . فلما عاد رامش إلى (غازيبور) بعد غيابه الطويل ، كانت كمالا قد اطمأنت إلى أن قد أصبح لها — أخيراً — بيت !

ولم يعد الشابان يثقلان على كرم (العم) !.. وكان ثمة فضاء كاف لزراعة حديقة حول البيت . كما كان ثمة طريق ظليل يمتد بين صفين من الأشجـار الطويلة . وكان النهر قد انخفض إلى المستوى الشـتوى . وامتدت بين البيت وضفة النهر ، مساحة من الأرض الرملية المنبسطة، قامت فيها بعض سيقان القمح ، تتخللها أحواض البطيخ . وعند الحافة الجنوبية لسياج البيت ، كانت تقوم — ناحية البر — شجرة ضخمة ، أحيطت جذورها بمنصة حجرية . وكانت الدار وملحقاتها قد ظلت خالية من السكان أمداً طويلا ، فبدت عليها علامات الإهمال ، ولكن كمالا لم تشفق من هذه الحال ، بل سرها أن تتبوأ مركز ربة البيت ، ومن ثم بدا كل شيء لعينيها جميلا . ولم تضيع وقتاً فى تقرير ما ينبغى أن تستخدم من أجله كل حجرة ، وما يزرع فى كل ركن من الحديقة واستشارت (العم) فيما يتخذ من إجراءات لإصلاح أرض هـذه الحديقة ، كما أشرفت بنفسها على إنشاء فرن فى المطبخ . وعلى إجراء

تعديلات فى غرفة اختزان المؤن . وقضت يوماً بأسره فى التنظيف ، والكنس ، والمسح ، دون أن تكل أو تهن !

على أن التدبير المنزلى يظهر جمال الأنوثة فى أبهى وألمع صورة . فقد كانت كمالا تتمثل لعينى رامش — أثناء عملها — كعصفور انطلق من قفصه . كان وجهها المتألق ، ومهارتها المشحوذة ، يضفيان عليها أحاسيس جديدة من الانبهار والسرور .. كانت هذه هى المرة الأولى التى يراها فيها رامش كربة بيت ، فلاحت وكأنها تبوأت عرش ملكها فأضـاف هذا إلى جمالها مسحة من الاعتزاز . وسألها : « ما الذى تفعلينه يا كمالا ؟ .. لسوف تنهكين قـواك! » .. وتوقفت (كمالا) عن عملها لحظة . وتطلعت إليه بابتسامة هانئة، ثم قالت : « لا تخف، فأنا بخير » ، ثم استأنفت العمل . وقد ازدهاها اهتمام رامش بها . وعاد هذا إلى الحديث مفتوناً: « هل تناولت العطور يا كمالا ؟ ».. فأجابت: « بالطبع .. منذ ساعات ! » .. وكان رامش يدرك هذا ، ولكنه لم يتمالك أن يسأل ليبدى اهتمامه . ومرة أخرى ، عاد يقول : كى يبقى حبل الحديث متصلا : « لماذا تفعلين كل هذا بنفسك يا كمالا ؟ .. هلا نزلت لى عن بعض الأعمال ؟ » . والذين يجيدون العمل ، يميلون عادة إلى إساءة الظن بمقدرة سواهم ، ومن ثم ابتسمت كمالا وأجابت : « لا .. ما هذه بأعمال الرجال ! » .. فقال : « ما أكثر احتمالنا — معشر الرجال — إذ نتجاوز عما يوجه إلى جنسنا من إهانات . ومع ذلك فأنت لم تحجمى عن استخدام العم . لماذا ترينى عديم النفع ؟ » .. قالت : « لست أدرى ، ولكنى لن أتمالك نفسى من الضحك إذا رأيتك تنظف

المطبخ من آثار الدخان !.. يحسن بك أن تخرج من هنا ، فإننى أثير غباراً كثيراً ! » .. ولكنه قال : « إن الغبار لا يفرق بين الناس ، فهو يعاملك كما يعاملنى ، على قدم المساواة ! » ، فقالت : « إنما أحتمله أنا لأن واجبى يقتضينى الاحتمال ، ولا أرى ما يدعوك إلى ذلك ! » .

وخفض رامش صوته ، حتى لا يسمعه الخدم وهو يقول : «أحب أن أشاركك كل ما تضطرين إلى احتماله ، عملا كان أو أى شىء آخر ! » .. فأثار قوله حمرة واهنة فى خديها ، وبدلا من أن تجيب ، تحولت جانباً ونادت : « أومش . يحسن بك أن تلقى ملء دلو آخر من الماء فى هذه البقعة . ألا انظر إلى الغبار المتراكم .. ناولنى المكنسة » . وشرعت تكنس بقوة . وصاح (رامش) وقد ساءه أن تضنى بمثل هذه المهمة : « ما الذى تفعلين ؟ » ، فأجابه صـوت من خلفه : « عجباً يا رامش بابو .. أى ضرر فى العمل ؟.. إنكم معشر الذين تلقوا ثقافة إنجليزية ، تتشدقون بالحديث عن المساواة . وإذا كنت ترى الكنس عملا مزرياً ، فلماذا تكلف به الخادم ؟ .. إننى لم أصب ما أصبت أنت من تعليم ، ولكنك لو سألتنى رأيى لقلت لك إن كل قشة تتحول فى نظرى إلى شعاع من الشمس ، كلما رأيت امرأة فاضلة تمسك بمكنسة !» . ثم التفت إلى كمالا قائلا : « لقد أوشكت أن أفرغ من إصلاح حديقتك يا عزيزتى ، فعليك الآن أن تعينى لى أحواض الخضر » .. فقالت وهى ماضية فى عملها : « لحظة واحدة من فضلك يا عماه ، فإننى لم أفرغ بعد من هذه الحجرة » . وإذ انتهت من تنظيف الحجرة ، رفعت القناع

الذى كانت تضعه على وجهها وتربط طرفيه إلى وسطها ، ثم انهمكت فى الحديث مع (العم) عن مواقع أحواض الخضر .

وانقضى النهار سراعاً ، ومع ذلك فإن البيت لم يستكمل النظافة التى ترضى عنها كمالا . فما كان من السهل إزالة آثار الإهمال الطويل ، ومن ثم فقد كانت لا تزال ثمة غرف لا سـبيل إلى تعميرها دون تنظيف وتهوية . ومن ثم لم يجد رامش وكمالا بداً من قضاء ليلة أخرى فى دار (العم) ، الأمر الذى ساءهما . فقد كان الشاب يصبو إلى أن توافيهما أولى ساعات المساء وهما فى دارهما الصغيرة ، وكان يرى بعين الخيال كمالا تبتسم فى استحياء وهى إلى جواره ، تحت ضوء المصباح ، وقد راح يفضى إليها بما فى فؤاده . ولما رأى أنه ما تزال أمامهما ثلاثة أيام أو أربعة ، لم يشأ أن يرجئ قيد اسمه فى محاكم الإقليم ، ومن ثم رحل إلى (الله آباد) لهذه الغاية ، فى اليوم التالى .

الفصل الخامس والثلاثون

● ورحل العم كذلك إلى (الله آباد) بعد يوم أو اثنين ، كى يزور ابنته الكبرى (بيدو) . وفى صباح يوم رحيله ، دعت كمالا صديقتها سايلاجا إلى تناول الغداء معها فى البيت الجديد ، فلحقت بها الفتاة بعد أن قدمت لبيبين فطوره ، وودعته عند انطلاقه إلى المدينة . وانهمكت الصديقتان فى العمل . وبمساعدة (أومش) أعدتا الغداء بجوار الشجرة الضخمة ، ثم جلستا تحتها تتحدثان بقية نهارهما . وبدا ــ لكمالا ــ النسيم العليل ، وأشعة الشمس التى خففت ظلال الشجرة من حدتها ، أروع إطار أحاط بحديثهما . وقبيل العصر ، تأهبت سايلاجا للانصراف ،

إذ كان زوجها وشيك العودة من عمله ، فسألتها كمالا : « ألا تستطيعين أن تتحولى عن عادتك هذه مرة ؟ » .. ولكن سايلاجا اكتفت بالابتسام وهزت رأسها وهى تداعب ذقن كمالا . وقبل أن تنصرف ألحت على كمالا بأن تعود إلى دار (العم) قبل أن يهبط الظلام .

وما لبثت كمالا أن فرغت من العمل والشمس لا تزال عالية فوق الأفق ، فأحكمت شالا حول رأسها وكتفيها ، واستقرت تحت الشجرة الكبيرة ، تتأمل الشمس فى انحدارها للمغيب خلف ضفة النهر ، حيث كانت ترسو بضعة قوارب للصيد ، وقلاعها ما تزال تشرئب نحو السماء . وأقبل (أومش) ينبهها إلى أن الغسق يقترب ، فهبت واقفة . وقال الصبى : « لقد أرسل العم تشاكرا بارتى عربة لتقلك » .. فولجت الدار تلقى نظرة أخيرة قبل أن تغادرها . وكانت فى القاعة الكبرى مدفأة على الطراز الإنجليزى ، يمكن إيقاد النار بها للاستدفاء فى الشتاء . وعلى الرف الذى يعلوها ، كان ثمة مصباح بترولى مشتعلا . ولمحت كمالا وهى تهم بالانصراف ، ورقة على حافة المدفأة تحمل اسمها بخط رامش فسألت أومش : « من أين هذه الورقة ؟ » ، فقال الصبى : « كانت ملقاة فى ركن من حجرة السيد ، فالتقطتها عندما كنت أكنس الأرض » وتناولت كمالا الورقة وشرعت تقرأها ، فإذا بها الخطاب الذى كان رامش قد أفضى فيه إلى همنالينى بكل ما فى صدره .. ولابد أنه أسقطه بإهماله العجيب ! .. وقرأت (كمالا) الخطاب بإمعان . وأخيراً سألها (أومش) : « لم تقفين هكذا صامتة يا أماه ؟ .. إن الظلام يشتد ! » .. وكان المرء خليقاً بأن يسمع رنين الدبوس لفرط السكون ! .. وأفزع

شكل كمالا الصبى، فهتف : « ألا تسمعيننى يا أماه ؟.. يجب أن ننصرف ، فقد تأخرنا » .. ولكنها لم تحرحراكاً ، حتى أقبل خدم (العم) ينبئونها بأن العربة قد طال انتظارها ! »

الفصل السادس والثلاثون

● قالت سايلاجا لكمالا حين عادت هذه إلى الدار : « ألست بخير اليوم يا عزيزتى ؟ .. هل تعانين صداعاً ؟ » .. فأجابت كمالا : « لا ، أنا بخير .. أين العم ؟ » .. قالت الأولى : « لقد أوفدته أمى إلى (الله آباد) ليزور أختى ، إذ أن صحتها لم تكن على ما يرام فى الفترة الأخيرة » . وعادت (كمالا) تتساءل : « ومتى يعود ؟ » ، فأجابت صاحبتها : « سيغيب أسبوعاً على الأقل . لقد أسرفت فى إنهاك قواك بالعمل فى بيتك طوال اليوم يا عزيزتى ، فأنت تلوحين جد متعبة . ألا تناولى عشاءك مبكرة ، ثم أسرعى إلى فراشك » . وكان أشد ما يخفف عن كمالا — فى تلك الضائقة — أن تركن إلى سايلاجا ، وتفضى إليها بأمرها ولكنها شعرت بأن هذا مستحيل . فما كان ليغريها شىء على أن تعترف — ولسايلاجا بالذات — بأن الرجل الذى كانت تعتقده زوجها ، لم يكن زوجها قط ! .. ومن ثم احتبست نفسها فى غرفتها ، وعادت تقرأ خطاب رامش على ضوء مصباحها . ولم يكن فى الخطاب أثر لاسم ، أو مكان المرسل إليه ، ولكن ما ورد فى الرسالة نم بجلاء عن أنها كانت موجهة إلى امرأة ، وإن هذه المرأة كانت مخطوبة لرامش ، وأن علاقة الشاب بكمالا أدت إلى فصم هذه الخطبة ، ثم إن رامش لم يخف فى رسالته أنه كان يحب تلك المـرأة نجاء قلبه ، وأنه ما فسخ

علاقتهما إلا من أجل تلك البائسة كمالا ، التى ارتبط حظها بحظه بطريقة عجيبة ! .. وأخذت كمالا تذكر كل صغيرة من حياتها مع رامش ، منذ لقائهما الأول على شاطئ الجزيرة الرملية حتى وصولهما إلى (غازيبور) ، فإذا ما كان يبدو لها مبهماً ، يتجلى بوضوح . لقد أدرك رامش منذ البداية أنها لم تكن زوجته ، وكان يرهق فكره بحثاً عن وسيلة للخلاص منها ، فى حين أنها حسبته ، بكل اطمئنان ، زوجها وكانت تتأهب – دون ما حياء – لأن تستقر معه فى معاشرة تمتد بامتداد العمر ! .. ونفذ الخزى إلى قلبها وكأنه خنجر ، وتمنت – إذ عاودتها الأحداث العديدة التى جرت بينهما – أن تنشق الأرض فتبتلعها ، لسوف يعلق بها العار طوال عمرها .. لا مفر من وصمته !

وفتحت الباب فى خفة ، وانطلقت إلى الحديقة الخلفية للمنزل . كانت سماء الشتاء المعتمة تخيم فوقها كأنها قبة من رخام أسود لا تشوبها قطعة من السحاب أو الضباب ، بينما كانت النجوم ترصعها متلألئة ، وفروع إحدى أشجار المانجو تقوم كشبح فى الظلام . ولم يتفتح أمام بصيرة (كمالا) مهرب من تعاستها هذه ، فتهالكت على الحشائش الندية ، وجلست كتمثال جامد ، دون أن تذرف دمعة ، أو تطلق زفرة ! .. ولم تفطن إلى مرور الزمن ، ولكن البرد ما لبث أن تسلل شيئاً فشيئاً إلى قلبها ، فارتجفت جوانحها . وعندما بدد القمر الظلام فى النهاية ، وبدا خلف أشجار النخيل الساكنة ، نهضت فى بطء وآبت إلى غرفتها ، فأوصدت الباب خلفها . وعندما فتحت عينيها فى الصباح ، رأت (سايلاجا) تنتصب إلى جوار سريرها ، فهبت لفورها ، وقد

أخجلها أن تتأخر فى نومها . وقالت (سايلاجا) : « لا تنهضى يا عزيزتى ، بل خير لك أن تعودى إلى النوم فترة أخرى ، فأنت لا تلوحين فى صحة جيدة . إنك تبدوين منهوكة القوى ، وهناك هالات داكنة تحيط بعينيك . ألا أنبئينى يا عزيزتى بما بك ؟ » . وجلست إلى جوارها ، ثم طوقت عنقها بذراعيها ، فراح صدر كمالا يتهدج بقوة ، ولم تستطع أن تكبح دموعها ، فأخفت وجهها فى صدر سايلاجا وانطلقت تجهش بالبكاء ، والشابة تضمها إليها دون أن تحاول مواساتها وما لبثت كمالا أن تملصت من عناق سايلاجا أخيراً ، فمسحت دمعها ، وبدأت تضحك فى خجل . فقالت سايلاجا : « كفى ، كفى ! .. إنك أكثر من عرفت من الفتيات تكتماً ، ولكن لا تظنى أننى لا أعرف فيم كل هذا الحزن ، فلست من السذاجة إلى هذا الحد ! .. أأنبئك به ؟ .. إن رامش بابو لم يكتب لك خطاباً واحداً منذ رحيله إلى (الله آباد) ولذلك فأنت مستاءة ، وإن كانت كبرياؤك تمنعك من الجهر بهذا الاستياء . على أنك خليقة بأن تذكرى أن لديه مشاغل كثيرة ، وأنه عائد بعد يومين ، ومن ثم ينبغى أن لا يحزنك أنه لا يجد وقتاً للكتابة ، خاصة وأنك تعلمين أنه لن يغيب طويلا . يا لك من حمقاء ! .. ولكن ، أتعرفين يا عزيزتى أننى ، رغم نصحى لك ، ما كنت لأفعل إلا ما تفعلين لو كنت فى مكانك ؟ .. إن النساء يبكين للتوافه ! .. ولكن ، ما أن تشبعى بكاء وتعودى إلى الابتسام ، حتى تنسى كل شىء ! » .. وضمت كمالا إلى صدرها ، وهى تستأنف قولها : « ما أحمقك ! ألا تشعرين بأنك لن تصفحى أبداً عن رامش بابو ، أليس كذلك ؟ » .

قالت كمالا : « أجل .. هذا حق ! » .. فربتت سايلاجا خدها قائلة : « هكذا حدست ، ولكننا سنرى ! »

وفى ذلك اليوم نفسه ، أرسلت سايلاجا خطاباً إلى أبيها فى (الله آباد) تكاشفه فيه بحزن كمالا لأن رامش لم يكتب إليها ، فبادر (العم) إلى لقاء رامش ، وقرأ عليه طرفاً من خطاب ابنته ، ثم ألقى عليه محاضرة قاسية. وما كان صمت رامش راجعاً فى الحقيقة إلى عدم اكتراث منه بكمالا ، وإنما لأن حيرته كانت تتضاعف كلما ازداد تفكيراً فى الموقف . لم يكن إهمالا ، وإنما كان حيرة ! وقد دعته هذه الحيرة إلى أن يتلكأ فى (الله آباد) . ثم جاء خطاب سايلاجا ، فأشعره بأن كمالا كانت تفتقده فى أسى ، وإن منعها الحياء من أن تكتب إليه . ولما كان رامش قد بلغ مفترق الطرق ، فقد اختار الطريق التى يحسن به أن يسلكها ، مهتدياً بحب كمالا له ، قبل أن يهتدى بتفكيره فى سعادته !.. إن القدر لم يربط حياتيهما معاً فحسب ، بل إنه ربط بين قلبيهما يوم جمعهما على شاطئ الجزيرة الرملية النائية . ومن ثم عكف لفوره على كتابة الرسالة التالية لكمالا :

« يا حبيبتى : لا تظنى أننى أستعمل هذا النداء جرياً مع العـرف يا كمالا ، فما كنت لأدعوك (حبيبتى) لو لم تكونى بالفعل أحب شخص فى الدنيا لدى . فإذا كانت قد خالجتك أية شكوك .. إذا كنت قد جرحت شعورك يوماً ، فدعى ندائى المخلص لك : « يا حبيبتى » ، يبدد الشكوك ، ويداوى آلام الجراح إلى الأبد !

« وما الداعى للإطالة فى هذا ؟ .. إن كثيراً من تصرفاتى فى الماضى

قد آلمتك . وإذا كنت قد أدنتنى — فى فؤادك — لهذا ، فليس فى وسعى أن أدافع عن نفسى . كل ما أملك هو أن أردد أنك (حبيبتى) ، وأن ليس فى الوجود من أكن له ما أكن لك من عاطفة . وقد لا يكون هذا دفاعاً كاملا يشفع لما شاب مسلكى ، ولكنه — على أية حال — كل ما أملك أن أتشفع به . ومن ثم فإننى إذ أدعوك يا (حبيبتى) ، إنما أمحو كل ماضينا الموبوء بالشك ، لنرسى معاً أسس حبنا المقبل ! .. صدقينى إذا قلت إننى لا أفكر فى مخلوق سواك ، فليس سواك ، وسواك فقط ، (حبيبتى) ! .. فإذا ما آمنت بهـذا ، آن لشكـوكك وهواجسك أن تهجع . وخليق بى أن أسألك بعد هذا عما إذا كنت قد كسبت حبك أم لم أكسبه ، ولكنى لا أجرؤ على هذا السؤال .. فإن الحب لا يقبل سؤالا ! .. ولست أشك لحظة فى أننى سأعرف الجواب يوماً .. بغير كلمات ! .. وإنما سيحدث قلب الواحد منا قلب الآخر .. وما يؤكد لى هذا غير حبى لك ! ولست أزعم أننى أهل لك ، ولكننى أشعر بأن هيامى بك لا يمكن أن يكون بغير جدوى أو مقابل !

« إننى لألمس أن هذا الخطاب يبدو كموضوع إنشائى منمق ، ولهذا تساورنى الرغبة فى أن أمزقه ، ولكن من المستحيل على أن أكتب خطاباً يعبر أصدق تعبير عن مشاعرى . على أن الخطـابات أشياء يجب أن يتبادلها أى شخصين مترابطين . وفى أول خطاب يعز على الكاتب أن يعبر تعبيراً صادقاً عن مشاعره . ولكننى — إذا ما انسجم عقلانا — سأملك أن أكتب لك خطابات صادقة التعبير .. فإن تيار الهواء لا يجرى فى غرفة ، إلا إذا فتح فيها بابان متقابلان ! .. فهل أعثر على باب قلبك

يا حبيبتى (كمالا) ؟! .. إننى واثق من أن هذا لن يلبث أن يتحقق مع مرور الأيام ، وأن التعجل يفسد الغاية . سأصل إلى (غازيبور) فى صباح اليوم التالى لتسلمك هذه الرسالة . وأرجو أن أجدك فى بيتنا عند وصولى . لقد ظللنا طويلا بلا بيت ، ولم أعد أحتمل هذا اللون من الحياة .. فلقد آن لى أخيراً أن أتطلع إلى اللحظة التى أعبر فيها عتبة بيتنا ، فأرى مليكة قلبى ، وربة دارى . ستكون هذه اللحظة (أول لقاء ثان) لنا !

« أو تذكرين (أول لقاء لنا) .. فى تلك الليلة المقمرة ، على ضفة النهر ، فى الجزيرة الرملية المنعزلة . كنا تحت قبة السماء ، وليس فوق رأسينا سقف ، ولا ما يشبه السقف ، وليس من آباء ولا أهل يحتفلون بزفافنا ؟! .. إن قصتنا لا تبدو واقعية لى .. إنها كحلم ! .. ومن ثم فإننى أتوق إلى زفاف آخر ، على ضوء الصباح الهادئ ، الباهر ، بين جدران أربعة ، وفى الحقيقة الواقعة . إن وجهك الصبوح ، وسط إطار من مدخل بيتنا ، سيظل دائماً متربعاً على عرش ذاكرتى . إنها الصورة التى أتوق إلى أن أراها فى الواقع . إننى تائب أقف عند عتبات قلبك يا حبيبتى .. فلا تردينى خائباً ! .. المخلص : (رامش) » .

الفصل السابع والثلاثون

● قالت سايلاجا فى اليوم التالى ، تحاول أن تنتشل كمالا من وجومها : « ألست ذاهبة إلى دارك ؟ » .. فأجابتها : « لا .. لم يبق ما أفعله هناك ! » قالت سايلاجا : « هل أعددت كل الغرف ؟ » . فردت كمالا قائلة :

« أجل .. فرغت منها جميعاً » . وغابت سايلاجا عنها فترة ، ثم عادت فبادرتها قائلة : « ما الذى تعطينيه إذا أسلمتك شيئاً ؟ » .. قالت كمالا : « ليس لدىّ ما أمنحه يا ديدى ! » (و « ديدى » تقابل « أبلة » أو « أختى الكبرى ») .. فقالت سايلاجا : « لا شىء مطلقاً ؟ » .. « لا شىء مطلقاً ! » .. إذ ذاك قرصت سايلاجا خدها مداعبة وقالت : « أهكذا؟! . لابد أنك أعطيت كل ما عندك شخصاً معيناً كى يصونه لك ! .. ما قولك فى هذا ؟ » . وتناولت من طيات مئزرها خطاباً أخذت تلوح به ، فشحب وجه (كمالا) إذ رأت خط (رامش) على الغلاف ، وهمت بأن تشيح عنه ، لولا أن قالت سايلاجا : « حسبك ! .. لقد أظهرت من كبريائك هذه ما فيه الكفاية ، فكفى عنها . إنى لأوقن من أنك تتلهفين شوقاً إلى أن تختطفى هذه الرسالة منى . ولكنى لن أعطيك إياها إلا إذا طلبتها فى أدب . وسنرى كم يطول تمنعك ! » .. وفى تلك اللحظة أقبلت (أومى) على الحجرة صائحة : « خالتى ! خالتى ! » ، وهى تجر علبة من علب الصابون خلفها كأنها عربة ، فما كان من كمالا إلا أن اختطفت الطفلة فضمتها إلى صدرها ، وأخذت تغمرها بالقبلات ورفعت (أومى) عقيرتها بالبكاء احتجاجاً على إقصائها عن لعبتها ، ولكن كمالا أبت أن تفلتها ، بل أسرعت بها إلى غرفتها الخاصة ، وهى تحاول إسكاتها بعبارات التدليل . وتبعتهما سايلاجا صائحة : « غلبت على أمرى ! .. كفى يا كمالا ! .. إليك الخطاب ! .. لن أقسو عليك مرة أخرى ! » .. وألقت بالخطاب على السرير ، ثم أنقذت (أومى) من قبضة كمالا ، وأسرعت بها إلى خارج الغرفة . وتناولت كمالا الخطاب

فقلبته بين يديها ، ثم فضته وشرعت تقرأ ما جاء به ، ولكنها لم تكد تلقى أول نظرة عليه ، حتى تولاها الغضب ، فرمت الخطاب بعيداً . ثم غالبت ثورتها واشمئزازها ، والتقطته مرة أخرى فقرأته بأكمله !

وسواء أكانت قد فهمت كل ما جاء به أو لم تفهمه ، فهذا أمر لا يمكن التكهن به ، ولكنها أحست كأنها تمسك شيئاً قذراً بين يديها ، فعادت تلقى به بعيداً . كان ينطوى على دعوة لأن تكون زوجة لرجل ليس بزوجها ! .. كيف جرؤ رامش على أن يقذفها بهذه الإهانة وهو العليم بكل الحقائق . إذا كان قلبها قد مال إليه بعد وصولها إلى غازيبور فهل دار بخلده أن ذلك كان راجعاً إلى أنه رامش بالذات ، وليس لأنها كانت تعتقد أنه زوجها ؟ .. لقد تسرع رامش وأساء الظن : فترك الشفقة على وحيدة تعسة مثلها تدفعه إلى أن يكتب إليها رسالة غرامية : كيف تمحو الإيحاء الخاطئ الذى فهمه من مسلكها ؟ .. كأنما قدر عليها أن يكون نصيبها من الحياة هو الخزى والاشمئزاز ، رغم أنها لم تجرم فى حق أحد منذ وفدت على هذه الدنيا ! .. وتمثل لها (البيت) — الذى كانت تصبو إليه — كوحش رهيب يهم بابتلاعها ، فتلفتت حولها فى قنوط تبحث عن مفر . وما كان ليخطر ببالها — منذ يومين فقط — أن رامش قد يبدى كل هذه الفظاعة نحوها !

* * *

● وقطع عليها أفكارها سعال من (أومش) ، فإذا به لدى الباب . وإذ لم تلتفت إليه ، هتف فى لطف : « أماه ! » .. فسعت إلى الباب ، وإذ ذاك ، قال وهو يحك رأسه : « لقد أحضرت أسرة سيدو بابو

فرقة تمثيلية من كلكتا بمناسبة زفاف ابنتهم » .. فبادرت قائلة : « حسناً تستطيع أن تذهب لتشاهد التمثيل » .. قال : « وأى نوع من الزهور تحبين أن أحضر إليك فى الصباح ؟ » ، فأجابت : « لا داعى لأية زهور » .. وهم بأن ينطلق ، لولا أن نادته قائلة : « مهلا يا أومش .. ما دمت ذاهباً لمشاهدة التمثيل ، فهاك خمس روبيات ! » . وبهت الصبى فإن النظارة فى مثل هذه المناسبات لا يدفعون شيئاً . ومن ثم سألها : « أتريدين أن أبتاع لك شيئاً من المدينة يا أماه ؟ » . فقالت كمالا : « لا ، لا أريد شيئاً . وفر النقود ، فسوف تحتاج إليها » . وهم الصبى بأن ينصرف وقد تولته الدهشة ، ولكنها نادته ثانية وقالت له : « ما الذى يقوله الناس إذا رأوك بهذه الثياب ؟ » .. وما خطر لأومش يوماً أن الناس يتوقعون منه أن يبدو فى ثياب أفضل من تلك .. وما كان ليحفل بما حرم من أناقة ، ومن ثم فإنه لم يتمالك أن ابتسم لقول (كمالا) ، بينما أخرجت قطعتين من ثيابها الخاصة ، وطوحت بهما إليه . وكانتا قطعتين من الثياب الفضفاضة التى تصلح للذكور وللإناث ، كل حسب الطريقة التى يرتديها بها . وكانت لهما حواف مزركشة ، مما أبهج (أومش) . وألقى بنفسه على قدمى كمالا فى خضوع وعرفان ، ثم التقط الثوبين وخرج .

ومسحت كمالا دمعة انحدرت من عينها ، ووقفت إلى جوار النافذة : وما لبثت أن أقبلت سايلاجا قائلة : « ألن ترينى خطابك يا عزيزتى كمالا ؟ » .. كانت لا تكتم عن كمالا سراً ، مما جعلها تجرؤ على أن توجه إليها مثل هذا السؤال : فقالت كمالا وهى تشير إلى

الخطاب الملقى على الأرض : « ها هو ذا يا ديدى .. اقرئيه » .. فقالت سايلاجا لنفسها فى دهشة ، وهى تلتقط الخطاب وتقرأه عن آخره : « إنها لم تغالب بعد كبرياءها ! » .. كان خطاباً زاخراً بالعاطفة ، بلا شك ، ولكن .. ما أغرب أن يكتب رجل مثل هذا الخطاب لزوجته ! .. كان أسلوبه غريباً ! .. فقالت سايلاجا : « هل يؤلف زوجك روايات يا عزيزتى ؟ » .. وأجفلت (كمالا) — وهى مهمومة — من كلمة (زوجك) ، وقالت : « لست أدرى » .. قالت سايلاجا : « حسناً .. ألست ذاهبة إلى البيت الجديد اليوم ؟ »

وهزت كمالا رأسها مجيبة بالإيجاب ، وعندئذ قالت صاحبتها : « وددت أن أقضى النهار كله معك هناك ، ولكنك تعرفين يا عزيزتى أن لابد لى من أن أحضر استقبال العروس فى بيت نارسينغ بابو » ، فقالت كمالا : « لا بأس .. إن الخدم هناك ! » .. وكانت (أومى) فى تلك الأثناء قد عثرت على قلم رصاص ، فانهمكت فى العبث به فى كل ما صادفت ، وجذبتها سايلاجا رغم صراخها ، ولكن (كمالا) اختطفتها منها ، وألقتها على سريرها وأخذت تلاعبها ، ثم تناولت من صندوقها سوارين رفيعين من الذهب — وكانا من أبدع ما رأته (أومى) من لعب — فلما أحاطت (الخالة) ساعدى الصبية بهما ، راحت تهز ذراعيها وكل جسمها فى إعجاب وطرب ! .. وهرعت لتعرضهما على أمها . وما أن فطنت سايلاجا ، حتى انتزعت السوارين لتردهما إلى صاحبتهما قائلة : « وما الذى جرى لعقلك يا كمالا ؟ » .. قالت كمالا : « لقد قدمتهما هدية لأومى ! » .. فصاحت سايلاجا : « هل جننت » ؟ ..

ولكن كمالا قالت : « أتحداك أن ترديهما يا ديدى ! » .. قالت الشابة وهى تطوق عنق كمالا : « لعمرى ، ما رأيت مجنونة مثلك ! » .. بينما قالت هذه : « لابد من أن أودعك اليوم يا ديدى .. لقد كنت جد سعيدة بالإقامة هنا ، بل ما حظيت بمثل هذه السعادة فى حياتى ! » . وانسابت الدموع من مقلتيها ، فلم تقو سايلاجا على كبح دموعها هى الأخرى ، وقالت : « لا تتكلمى بهذه اللهجة ، وكأنك راحلة بعيداً . ما أظنك كنت سعيدة حقاً هنا ، وإنما ستعرفين السعادة الحقة حين تنتقلين إلى بيت لا يشاركك فيه غير زوجك . ولسوف نزورك من آن لآخر ، وإن كنت أعرف أنك ستقولين إذا ما أدرنا ظهورنا منصرفين : « الشكر للسماء ، لقد انصرفوا أخيراً ! »

وعندما آن لكمالا أن ترحل إلى البيت الجديد بعد أن ودعت القوم قالت سايلاجا : « سآتى لزيارتك ظهر غد » ، ولكن كمالا لم ترحب .. ولم ترفض . وعند وصولها إلى البيت ، وجدت (أومش) هناك ، فهتفت فى عجب : « إذن فأنت هنا .. ظننتك ذهبت لتشهد التمثيل » . فقال الصبى : « كنت ذاهباً ، ولكنك كنت قادمة إلى هنا ... » ، فصاحت : « لا تشغل بى ، اذهب وتفرج على التمثيل . إن بيشان هنا ، فأسرع وإلا تأخرت » . وانصرف أومش وقد اطمأن إلى وجود (بيشان) ، الخادم الآخر ، ولكن كمالا نادته ثانية قائلة : « اسمع .. إذا جاء العم .. » ، ثم أمسكت ، وقد عجزت عن إتمام عبارتها . وحملق فيها أومش فى دهشة . ولكنها ما لبثت أن عادت تقول : « تذكر أن العم صديق حميم ، فإذا شئت أى شىء فاذهب إليه ، وسله ما تشاء

واستحلفه بحبى ، تجده يلبى رغبتك . ولا تنس أن تبلغه حبى ! » ..
فانطلق (أومش) وهو فى حيرة ، لا يفقه من أمرها شيئاً .

وعند الأصيل ، رآها (بيشان) خارجة فسألها : « إلى أين يا سيدتى ؟ » . فأجابت : « سأذهب لأغتسل فى الجانجز » .. قال : « أأرافقك ؟ » ، ولكنها قالت : « لا ، امكث واحرس الدار » ، ثم منحته روبية لغير ما سبب واضح ، وسارت فى اتجاه النهر .

الفصل الثامن والثلاثون

● صعد (أنادا بابو) عصر ذات يوم إلى غرفة همنالينى ، طامعاً فى أن يتناول الشاى معها على انفراد ، ولكنه لم يجدها فى غرفتها ، ولا فى قاعة الجلوس ، وعلم من حارس الباب أنها لم تبرح البيت . وخالجه قلق مبهم ، فصعد إلى سطح الدار ليبحث عنها ، فاذا السقوف تمتد إلى أقصى مرامى البصر ، وقد أرسلت عليها شمس الشتاء الذابلة ضوءاً شاحباً . وأخذت نسائم المساء المبكرة ، تهب تباعاً . ووجد الرجل ابنته غارقة فى أفكارها ، فى ظلال (المنور) المقام على رأس السلم ، فسار إليها ، ثم وقف خلفها ، ولكنها لم تبد أى شعور بوجوده . واقترب منها — فى النهاية — فمس كتفيها ، وإذ ذاك أجفلت مذعورة ، ثم تضرج وجهها واعتراها ارتباك . وبادر جالساً إلى جوارها قبل أن تهم بالنهوض ثم تنهد فى أسى وقال : « أواه ، يا هيم ! .. ليت أمك كانت على قيد الحياة ! .. إنها كانت أكثر منى نفعاً لك ! » .. وكانت هذه الصيحة الآسية من الرجل كفيلة بأن توقظ همنالينى من شرودها ، لتتأمل وجه أبيها .. آه ، يا للحب ، والعطف ، والألم ، التى لمحتها فى ذلك الوجه !..

كان ثمة تغير حزين قد ران على ذلك الوجه فى الأيام الأخيرة . كان الأب الكهل هو الذى تحمل العاصفة التى دهمت ابنته ، فلم يدخر جهداً فى تبديد غيوم الأسى عنها ، حتى إذا تبين أن جهوده لم تثمر ، أخذت أفكاره تتجه إلى أم الفتاة . ومن ثم كانت تلك الصيحة التى انبعثت من أعماق فؤاده ، فنبهت همنالينى ، وانتزعتها من استغراقها فى أحزانها .. فإذا الدنيا التى كانت تبدو لها حلماً ، تقفز فجأة إلى الواقع ، وإذا الشعور بالخزى يغمرها ، لأنانيتها ! .. وفى جهد وعزم ، نضت عنها شباك الذكريات التى كانت تتخبط فى أسارها ، وتساءلت : « كيف أنت اليوم يا أبت ؟ » .. أتسأله عن صحته ! .. لقد نسى (أنادا بابو) فى الأيام الأخيرة أن الصحة أهل لأن تكون موضوعاً للحديث ، فقال : « كيف أنا ؟ .. إن جسدى لا يعانى شيئاً يا عزيزتى .. إنما يزعجنى ويشغل بالى ما أراه بادياً عليك من سقم فى هذه الأيام . إن شيخاً صلب العود مثلى ، يستطيع أن يحتمل ، ولكنى أخشى أن تكون الوطأة جد قاسية على شابة مثلك ! »

وربت كتفها فى حنان ، فقالت : « ألا قل لى يا أبت .. كم كان عمرى حين ماتت أمى ؟ » . قال : « كنت فى الثالثة إذ ذاك ، وقد بدأت تتكلمين . وشد ما أذكر سؤالك إياى : « أين أمى ؟ » .. فكنت أجيب : « ذهبت إلى أبيها ! » .. فإن أباها كان قد مات قبل مولدك ، ولم تكونى تدركين المعنى الذى ينطوى عليه جوابى .. ولكنك كنت تظلين واقفة ترمقيننى فى وجوم .. ثم تمسكين بيدى ، وتجريننى إلى غرفة أمك ، وكأنما كنت تخالين أننى قد أجد فيها ما يرشدنا إلى مكان

أمك .. كنت ترين أن أباك قادر على أن يفعل المعجزات ، وما خطر لك أن أباك يغدو أجهل وأعجز من الطفل إزاء المسائل التى تتعلق بالموت والحياة .. ولعلك الآن تشعرين بعجز أبيك إزاء محنتك !.. إن الله وهبك أباً قادراً على حبك ، ولكنه عاجز عن مساعدتك ! » ..

وأمسكت همنالينى بيد أبيها المرتعشة فراحت تتحسسها ، وقالت : « إننى لا أكاد أذكر أمى .. كل ما أذكره أنها كانت تستلقى عند الظهيرة ، وتستغرق فى القراءة ، فكنت أشد الكتاب من يديها » ..

وهكذا راحا يتحدثان موغلين فى الماضى ، وأخذت همنالينى تمطر أبيها بالأسئلة عن شكل أمها ، وعاداتها ، والحياة العائلية فى تلك الأيام . وكان أبوها يجيبها قدر استطاعته . وأخذت الشمس تنحدر للمغيب ، فاستحال لون السماء إلى لون النحاس الصدئ . وشملت سطح البيت سكينة وادعة ــ وسط الضوضاء التى كانت تنبعث من المدينة الكبيرة ــ فإذا هذه السكينة رباط جديد يعزز الود المتبادل بين الأب وابنته .. بين الكهل والشابة ! .. وظلا فى مجلسهما حتى خبا ضوء النهار ، وبدأ الطل الخفيف يسقط عليهما كالدموع !

* * *

● وفجأة . انبعث وقع قدمى (جوجندرا) على السلم . وانقطع الحديث الخافت بين الأب وابنته فوراً ، وقفزا معاً واقفين . وقال (جوجندرا) وهو يتفرس فى وجهيهما : « يبدو أن هيم اتخذت من سطح الدار قاعة للجلوس فى هذه الأيام ! » . وكان شديد الاستياء للتطور الذى اتجهت إليه الأمور . فقد كانت ثمة سحابة من الأسى

تخيم على البيت ليل نهار ، حتى أصبح يرى الحياة لاتطاق فى البيت ، ولكنه مع ذلك لم يشعر بميل إلى أن ينشد صحبة أخرى ، لأنه كان كلما زار بيوت الأصدقاء والمعارف ، ألفى نفسه مضطراً لأن يقدم الإيضاحات لما حدث من فسخ خطبة همنالينى . وكان يقول لأبيه فى تلك المناسبات : « إن همنالينى تغالى فى الأسى بسبب هذا الأمر . وهذه نتيجة ترك الفتيات يقرأن الروايات الإنجليزية . إن همنالينى ترى أن رامش هجرها فيجب أن يتحطم قلبها ، ومن ثم فهى تعمل على أن تحطم قلبها . إنها فرصة فذة لشابة تقرأ الروايات كى تبين كيف تتأسى وتحتمل ماأصاب غرامها من غدر ! » .

وفى هذه المرة سارع الأب إلى القول : « لقد اخترت أنا سطح البيت لأتحدث إلى هيم فى هدوء ! » .. كان يرمى إلى حماية ابنته من لذعات (جوجندرا) القاسية . ولكن هذه الكلمات لم توح إلى الشاب بشيء سوى أن أبيه استدرج أخته إلى سطح الدار ليجاذبها أطراف الحديث ، فقال : « أو ليس فى وسع المرء أن يتكلم على مائدة الشاى . إنك تشجع هيم على حماقتها يا أبت . لسوف تضطرانى معاً إلى أن أهجر الدار ! » .. وصاحت (همنالينى) إذ فطنت إلى موعد الشاى : « أو لم تتناول الشاى بعد يا أبت ؟ » ، فقال (جوجندار) : « إن الشاى ليس كخيال الشاعر ، والسماء لا تمطر شاياً من شفق الشمس الآفلة .. ولا الأكواب قادرة على أن تملأ نفسها وتصعد إليكما فى جلستكما ! » .. فبادر أنادا بابو قائلا : « ولكنى رأيت أن لا أتناول شاياً اليوم » . فعقب جوجندرا قائلا : « ما هذا يا أبت ، هل أمكنك أن تصبح زاهداً ؟ » ..

قال أنادا : « آه .. لا ، إنها ليست مسألة زهد ، ولكننى لم أحظ بنوم طيب ليلة أمس ، ففكرت فى أن أجرب الامتناع عن الشاى ! » .

والحق أن شبح كوب الشاى كان يتراقص أمام بصر (أنادا بابو) أثناء حديثه من همنالينى .. ولكنهما كانا قد انسجما فى الحديث ، وخرجت الفتاة عن وجومها ، فكانت أية حركة كفيلة بأن تحدث أثراً سيئاً ، وأن تحمل الأفكار على أن تبادر إلى الفرار كالغزل الخائف . على أن همنالينى لم تصدق أن أباها كان يعتزم جاداً الامتناع عن (كيفه) المعتاد ، فهتفت به : « هيا يا أبت لابد لك من تناول الشاى » .. ونسى الرجل ما كان يشكوه من أرق ، وأسرع يرافقها ه فلما دخل غرفة الجلوس بالطابق الأرضى ، ساءه أن يجد (أكشاى) متربعاً فيها ، إذ كانت (هيم) قد استردت شيئاً من حالها الطبيعية ، فكان منظر أكشاى خليقاً بأن يحدث لديها انتكاساً . ولم تكن ثمة فرصة لإنقاذ الموقف ، لأن الفتاة كانت قد ولجت الحجرة بالفعل . ونهض أكشاى لفوره ، قائلا : « يحسن بى أن أنصرف ياجوجن » . ولدهشة الجميع ، قالت همنالينى : « ماذا جرى يا أكشاى بابو ؟ .. أفى عجلة أنت ؟ .. تناول كوب شاى أولا ! » .. وعاد إلى مجلسه قائلا : « لقد تناولت كوبين قبل مقدمك . على أننى قد أستطيع أن أتناول كوباً ثالثة ، إذا ألححت ! » .. فابتسمت همنالينى قائلة : « ستكون هذه أول مرة نضطر فيها إلى الإلحاح عليك ! » . وبدلا من أن يخجل ، بادر قائلا : « حقاً .. إن عندى من الذوق ما يقينى أن أرفض الشىء الطيب ! » . وقال جوجندرا :

« وعلى هذا النسق نفسه ، ما أظن أن الشىء الطيب يرفض أن يذهب إليك إذا عرضت نفسك عليه !! » .

ومرة أخرى ، عاد الحديث إلى سابق عهده ، حول مائدة الشاى بدار (أنادا بابو) . ومع أن ضحك همنالينى لم يرق قط إلى مرتبة القهقهة ، إلا أنه فى ذلك اليوم كان يعلو على الكلام بين آن وآخر . وكانت تريد التسرية عن أبيها ، فقالت : « لقد نسى أكشاى بابو نفسه يا أبت .. إنه فى خير صحة رغم أنه لم يتناول شيئاً من أقراصك منذ أيام . ولو أنها كانت ذات فائدة ، لشكا الآن من الصداع ! » .. فقال جوجندرا : « إنه يخون أقراصه ! » .. وضحك أنادا بابو مغتبطاً ، إذ رأى أسرته تعود إلى تبادل الفكاهات حول أقراصه ، وأحس بأن هذه العلامة بشرى عودة الانسجام . وما لبث أن قال : « إننى أدرك ما تسيران إليه .. إنكما تحاولان أن تزعزعا ثقة أكشاى ، فهو الوحيد الذى بقى لى من مدمنى أقراصى ! » .. فقال أكشاى : « لاتخش من هذا ، فلن يستطيعا أن يؤثرا فى تحالفنا ! » .. وقال (جوجندرا) : « عجباً ، أيكون أكشاى كالروبية الرديئة ، إذا حاولت صرفها وقعت فى المتاعب ؟ ! » . وبدد الضحك غيوم الأسى عن مائدة الشاى .. وكان من الممكن أن يطول الحديث الفكه ، لولا أن استأذنت (همنالينى) فى الانصراف لتعنى بشعرها . وإذ ذاك ، حلا لأكشاى أن يتذكر أنه على موعد ، فانصرف هو الآخر !

* * *

● وما أن خلا جوجندرا إلى أبيه ، حتى قال له : « ما ينبغى أن ننتظر إلى ما بعد هذا يا أبت .. يجب أن نزوج (همنالينى) ! » .. فحدق فيه أنادا بابو بإمعان ، بينما استطرد الشاب : « إن الأقاويل تتناثر حول انفصام خطبتها لرامش ، وليس بوسعى أن أظل أكافح بمفردى . ولو أننى كنت فى وضع يمكننى من الجهر بالحقيقة كلها — لما حفلت بشىء ، ولكننى لا أبيح لنفسى الكلام إكراماً لهم . فأنا أناضل وفمى مغلق . وإنك لتعلم أننى منذ أيام اضطررت إلى أن أتشاجر مع (أخيل) إذ سمعته يتمادى فى كلامه . ولو أننا استطعنا أن نزوجها فى القريب ، لانقطعت الأقاويل ، ولما اضطررت إلى أن أقوم فى كل مكان بدور البطل الوحيد ، فأشمر عن ساعدى وأتحدى الدنيا ! » . قال أنادا : « ولكن ، لمن نزوجها ياجوجن ؟ » ، فأجاب الشاب : « هناك شخص وحيد ، من المتعذر أن نجد سواه بعد الذى حدث ، وبعد الشائعات المنتشرة . هناك أكشاى المسكين.. سله أن يتناول قرصاً من حبوبك، فيبادر إلى تناوله ! وكذلك ، اطلب إليه أن يتزوج ، فسرعان ما يتزوج ! » .. فهتف أنادا : « أمجنون أنت يا جوجن ؟ .. أتظن أن هيم تقبل الزواج من أكشاى ! » .. ولكن الشاب قال : « سأعمل للحصول على موافقتها ، إذا أنت لم تتدخل ! » .. فصاح الأب : « لا ، يا جوجن ، لا .. لن أسمح لك بأن ترهق هيم لإغرائها ، فإن هذا لن يؤدى إلا إلى إزعاجها وإثقالها بالأسى .. دعها وشأنها فترة من الزمن ، فإن المسكينة تجتاز تجربة مضنية ، وما ينبغى أن نتعجل زواجها ! » ، فقال جوجن : « إننى لن أحاول أن أضغط عليها ، بل سأبذل كل جهد

لـكى أكون معتدلا ، متلطفاً معهـا .. أتظننى لا أجيـد الحديث معها إلا إذا تشاجرنا ؟ » .

ولم ينتظر (جوجندرا) ، بل سارع إلى همنالينى بمجرد فراغها من العناية بشعرها ، وخروجها من غرفتها . وقال : « هيم .. أحب أن أحدثك فى أمر » .. وتسارعت دقات قلبها لكلماته ، وتبعته متثاقلة إلى غرفة الجلوس ، ثم جلست تنتظر حديثه فقال : « ألم تلاحظى ما يبدو على أبينا من سوء صحة ؟ » .. ولم تقل شيئاً ، ولكن محياها وشى بالقلق الذى داخلها . وعاد جوجندرا يقول : « ألا صدقينى إذا قلت أنه سيصاب بمرض خطير ، ما لم نتداركه ! » .. ونمت لهجته عن أنه يحملها مسئولية ما آلت إليه صحة أبيهما ، فغضت بصرها ، وأخذت تعبث بطرف ثوبها ، بينما استطرد جوجندرا : « إن ما فات قد فات ، وكلما طال أساك على الماضى ، ازداد حزبنا ، فإذا شئت أن تعيدى إلى أبينا راحة باله ،وجب أن تمحى كل أثر لتلك المسألة غير الموفقة ! » .. وترقب ردها ، وعيناه لاتبرحان وجهها . وأجابت هيم فى ارتباك : « لاحاجة بك إلى أن تخشى أن أزعج أبى بالحديث عنها » .. فقال : «أعرف أنك لاتحدثينه عنها ، ولكن هذا لا يكفى لعقل ألسنة الناس ! » .. فتساءلت : « وماذا أفعل إذن ؟ » .. أجاب : « هناك وسيلة واحدة لوقف الأقاويل » .

وأدركت همنالينى ما كان يرمى إليه ، فسارعت قائلة : « ألا يحسن أن نصحب أبانا إلى الريف ، ليروح عن نفسه ؟ .. سنمكث هناك ثلاثة أشهر أو أربعة، ولسوف يموت كلام الناس فى هذه الأثناء! » .. ولكنه قال : « ليس هذا بعلاج شاف . يجب أن تقنعى أبانا بأن باله قد استرد

سكينته » . وأخذت تمسح — فى عجلة — الدموع التى انسابت من عينيها وتساءلت : « وما الذى تريدنى على أن أفعله ؟ » .. قال : « إننى أدرك أن الحل لا يسرك ، ولكنك إذا شئت أن تبعثى الهناءة فى كل قلب ، يجب أن تتزوجى فى الحال ! » . وعقل الاستياء لسانها . ولكنه استطرد وقد نفد صبره : « إنكن ، معشر البنات ، تحاولن أن تجعلن من الحبة قبة . إن ما جرى لك جرى لكثيرات من قبل ، فكن لا يلبثن أن يتزوجن من أشخاص آخرين ، ويقضين على الأقاويل . أما التصرف على نسق ما يرد فى الروايات ، فكفيل بأن يجعل الحياة لا تطاق .. قد لا تجدين عاراً فى أن تقولى للملأ : « سأنبذ الدنيا إلى الأبد ، وآوى إلى سطح البيت أحملق فى السماء . سأقيم ذكرى ذلك الغادر — الذى لا يستحق تقديراً — فى أعماق فؤادى ، وأروح أتعبد فى هيكلها » ! .. بيد أنك لا تفطنين إلى الخزى الذى يصيبنا . ألا تزوجى من أى شخص ، وتخلى عن هذه المأساة التمثيلية فى أقرب وقت ! » . وأحست همنالينى بكلماته وكأنها خناجر تطعن قلبها ، فقالت : « وهل سمعتنى أقول إننى سأنبذ الدنيا ، وإننى لن أتزوج قط ؟ » .

قال جوجندرا : « إذا كانت هذه نيتك ، فبادرى إلى الزواج . من الطبيعى أن تظلى عانساً طالما كنت تقولين إنك لن تحبى رجلا قط ، ما لم يكن شبيهاً بالآلهة . إننا نادراً ما نجد الأمور فى الدنيا متمشية مع آمالنا . يجب أن نروض أنفسنا على تقبل ما يمكن أن نناله ، وأن نتخلى عما عداه ! » .. فصاحت ملتاعة : « لماذا تعذبنى بهذا الشكل ؟ .. هل قلت لك شيئاً عن الحب ؟ » . فقال جوجندرا : « لم تقولى شيئاً ، ولكننى

ألاحظ ما تضمرين . إن ما تظهرينه من نفور نحو أصدقائنا المتواضعين يشى بما فى نفسك . وخليق بك أن تعترفى بأن ثمة شخصاً ، ظل — دون كل أصدقائك — وفياً لك فى السراء والضراء ، فى الخير وفى الشر ، ومن أجل هذا أكن له كل تقدير . فإذا شئت زوجاً يضحى بحياته كلها ليراك سعيدة ، فما أشك فى أنك تعرفين أين هو .. أما إذا أردت الجو الروائى الحزين ... » . وهنا نهضت واقفة ، وهى تقول : « أرجو أن لا تحدثنى بهذه اللهجة . إذا أمرنى أبى بأن أتزوج من أى شخص ، فسوف أطيع رغبته . انتظر حتى ترانى أعصاه ، ثم تكلم عن الحزن الروائى ! » . وعند ذاك ، رقت لهجة جوجندرا فى الحال ، وقال : «لا تغضبى منى يا عزيزتى هيم .. أنك لتعرفين أننى إذا استأت من أمر ، تهورت فى كلامى ، وقلت كل ما يخطر ببالى . لقد عرف كل منا أخاه منذ طفولتنا وإنى لأدرك مدى رقة شعورك ، ومدى حبك لأبينا ! » .

وانصرف ليبحث عن أبيه ، فوجده جالساً فى غرفته ، وقد راح ضميره يؤنبه كلما تصور جوجندرا فى مضايقته لأخته . وكان قد أوشك أن يسعى إليهما عندما أقبل جوجندرا قائلا : « لقد وافقت هيم على الزواج يا أبت . لعلك تظن أننى ضغطت عليها ، ولكننى فى الواقع لم أفعل . إنها لا تعارض فى الزواج من أكشاى ، إذا أنت طلبت منها ذلك فى كلمات صريحة ! » .. فقال الشيخ : « أتريدنى على أن أطلب ذلك منها ؟ » وأجاب الشاب : « أجل ، فما أظنك تنتظر أن تأتيك من تلقاء نفسها لتسألك : « هل أتزوج من أكشاى؟ » .. إذا كنت تتردد فى أن تتحدث إليها فى الأمر ، ففوضنى فى حمل أوامرك إليها ! » . فهتف أنادا بابو

لفوره : « مستحيل أن أفعل هذا ! .. سأقول لها بنفسي ما يمكن أن يقال . ولكن فيم تعجلك هذا ؟ .. أرى أن علينا أن نتريث لبضعة أيام » فأجاب الشاب : « لا . يا أبت . لابد أن يحدث ما يعرقل الأمر ، إذا نحن تريثنا . وليس بوسعنا أن نظل هكذا لأمد أطول مما انقضى ! » . وما كان فى الأسرة من يغلب (جوجندرا) إذا تحمس لأمر ، فهو لا يكف عن محاولة تنفيذ هذا الأمر ، حتى لقد كان (أنادا بابو) يشعر فى سريرته بخوف منه . ومن ثم قال يحاول أن يرجئ الأمر : « حسناً .. سأتحدث إليها ! » . ولكن الشاب قال : « ليس أصلح من الوقت الحالى يا أبى .. إنها جالسة فى انتظارك ، فحاول أن تسوى الأمر اليوم ؟ » ... وقال الأب : « حسناً ، انتظرنى هنا ، فلابد من أن أخلو إليها » .

* * *

● ووجد (أنادا بابو) حجرة الجلوس مظلمة ، إلا أن شبحاً هب فى الظلام ، ثم واتاه صوت مثقل بالدموع : « لقد انطفأ المصباح يا أبى . هل أدعو الخادم لإشعاله ؟ » ، فقال : « لا بأس يا عزيزتى فليست بنا حاجة إلى الضوء ! » . وتحسس طريقه إلى مقعد بجوار ابنته فقالت : « إنك لا ترعى صحتك كما ينبغى يا أبت » ، فقال : (إن صحتى على ما يرام ، وليست فى حاجة إلى مراعاة ، إنما أنت التى يجب أن تعنى بصحتك ! » ، فصاحت همنالينى : « كلكم تقولون هذا ، وماهو من الصواب فى شىء .. ما الذى يحملك على أن تظن أننى لا أكترث لصحتى ! .. إذا رأيت أن أتبع علاجاً خاصاً ، فليس عليك سوى أن تأمرنى .. فما رفضت لك رغبة قط ! » . واختلط صوتها بالبكاء ،

فصاح فى قلق : « أبداً يا عزيزتى .. بل إننى ما احتجت قط إلى أن أنبهك إلى رغبة لى ، فأنت تعرفين ما يجول بخاطرى ، كما لو كنت أمى ! وأنت دائماً تحرصين على أن تحقق ما أريد دون أن تنتظرى حتى أطلبه . ولو أن لدعوات قلب الأب أى أثر ، لكنت سعيدة فى كل أيامك بفضل دعواتى تلك ! » . قالت : « ألا تحب أن تستبقينى معك يا أبت ؟ » ، فقال أنادا : « بالطبع » . فعادت تسأله : « هل لى أن أمكث هكذا طالما ظل جوجن بغير زواج ؟ .. من الذى يعنى بك إذا لم أكن إلى جوارك ؟ » .. قال : « يعنى بى ؟ .. لا تحملى همى يا عزيزتى . فلست أستحق هذا ! » .: فقالت : « إن الظلام دامس يا أبى ، فهل أحضر مصباحاً موقداً ؟ » .. وحملت مصباحاً من الغرفة المجاورة ، وقالت : « لقد شغلنا اضطراب أفكارنا فى الأيام الأخيرة ، فلم أعد أقرأ لك الصحيفة فى الأمسيات هل أقرأ لك الآن ؟ » . فنهض قائلا : « حسناً يا عزيزتى . انتظرى دقيقة » .

وعاد إلى جوجندرا ، وقد عول على أن يقول له : « لم أستطيع أن أفاتحها اليوم فى الأمر ، فيحسن أن ننتظر إلى غد » . ولكنه ما كان يسمع جوجندرا يبادره قائلا : « ماذا تم يا أبى ؟ .. هل حدثتها ؟ » ، حتى أسرع مجيباً : « أجل ، تحدثت إليها » . فقد خشى أن يعاود جوجندرا حملاته على همنالينى . وتساءل الشاب : « وهل وافقت ؟ » . فأجاب : « أجل .. إلى حد ما » . فصاح (جوجندرا) : « إذن ، سأذهب فأنبئ أكشاى » .. ولكن الأب صاح متعجلا : « لا لا .. لا تقل له شيئاً بعد . إنك ستفسد كل شىء يا جوجن إذا تسرعت . يحسن أن نرجئ

التدابير النهائية إلى أن نعود من الريف . . ولكن جوجندرا انصرف دون أن يرد عليه ، فيمم لفوره شطر بيت أكشاى ، حيث وجد صاحبه منهمكاً فى مطالعة مؤلف إنجليزى عن (مسك الدفاتر التجارية) ، فدفعه عنه جانباً ، وقال : « دعك من هذا الآن، إذ علينا أن نحدد موعداً للزواج ! » ، فصاح أكشاى : « يا إلهى » .

الفصل التاسع والثلاثون

● نهضت (همنالينى) فى الصباح الباكر ، وسعت إلى أبيها ، فألفته فى غرفة نومه ، وقد جلس فى مقعد مريح إلى جوار النافذة ، واستغرق فى التفكير . وكانت الغرفة متواضعة الأثاث ، لا تضم سوى فراش وصوان للثياب ، وإلى أحد جدرانها ، عاقت صورة باهتة لأم همنالينى المتوفاة ، فى إطار فخم ، بينما ثبتت إلى الجدار المقابل لها قطعة من الصوف نسجتها المتوفاة بيديها . كما كان الصوان يضم أساورها وحليها ومخلفاتها الشخصية ، وقد تركت على حالها . ووقفت همنالينى خلف أبيها ، وراحت تمسح شعره برفق ، ثم قالت : « ما رأيك يا أبت فى أن نتناول الشاى مبكراً هذا الصباح ، ثم نجلس فى غرفتك ، فتحدثنى عن الأيام الخالية . ليس بوسعك أن تتصور مدى شغفى بقصصك هذه ! » . وكان إدراك الشيخ لحالات ابنته قد غدا مرهفاً إلى درجة مكنته من أن يلمس الحافز الذى حملها على أن ترغب فى التعجيل بتناول الشاى . فإن أكشاى لن يلبث أن يفد لتناول الشاى معهم على عادته ، وقد رغبت (هيم) فى أن تتحاشى لقاءه ، وذلك بأن تمكث ما استطاعت فى غرفة



نهضت (همنالينى) فى الصباح ، وسعت الى أبيها ، فالفته فى غرفة نومه ، وقد جلس فى مقعد مريح الى جوار النافذة ..

أبيها . وأحزن الشيخ ما صارت إليه أعصاب ابنته . كانت دائماً وجلة ، كغزال خائف .

ولم يكن الماء المغلى للشاى قد أعد بعد ، فابتكر أنادا حجة لحث الخادم المسكين على إعداده ، فسرعان ما وافاهما به . وبدلا من أن يقبل أنادا بابو على ارتشاف مافى قدحه فى بطء ، وهو يلعق شفتيه تلذذاً ، ويتحدث إلى ابنته ، عمد فى ذلك اليوم إلى إفراغ القدح فى جوفه بسرعة لا داعى لها ، مما جعل ابنته تسأله فى دهشة : « أفى عجلة أنت يا أبى ، هل تريد الخروج ؟ » .. فأجاب : « لا ! .. ولكن عندما يكون الجو بهذه البرودة ، أحب أن أشرب الشاى دفعة واحدة ، فإن دفئه ينشر العرق على جسمى ، فيدفئنى ! » . ولكن جوجندرا لم يلبث أن أقبل ، وأكشاى فى أثره ، قبل أن يتفصد العرق المنشود . وكان أكشاى بادى الأناقة ، وقد أمسك فى يده بعصا ذات مقبض فضى ، وزين صدره بسلسلة ذهبية ، بينما حمل فى يسراه كتاباً لف فى ورقة سمراء . وبدلا من أن يتخذ مجلسه المعهود ، جر مقعداً إلى جوار مجلس (همنالينى) ، وقال فى تلطف : « لابد أن ساعتكما متقدمة اليوم » . فلم تجب همنالينى ، ولا نظرت إليه . بينما قال أنادا بابو : « لنصعد إلى الطابق العلوى ياعزيزتى هيم » ، إذ لابد من أن نعرض ثياب الشتاء للشمس » ، فقال جوجندرا : « لا داعى للعجلة يا أبت ، فلن تهرب الشمس . هلا صببت لأكشاى قدحاً من الشاى يا هيم ؟ .. كذلك أريد قدحاً لنفسى ، ولكن الضيف مقدم بالطبع ! » . وضحك (أكشاى) قائلا لهمنالينى : « هل رأيت فى حياتك مثل هذا الإيثار ؟ » .

وصبت (همنالينى) الشاى دون أن تحفل بأكشاى ، ثم ناولت جوجندرا قدحاً ، ودفعت نحو أكشاى بآخر ، وهى تنظر إلى أبيها ، فقال هذا : « إذا تلكأنا فسوف يشتد الحر على سطح الدار . هيا يا هيم، يحسن بنا أن نصعد فى الحال ! » . فصاح جوجندرا : « أف لك ! .. لقد جاء أكشاى ... » ، وتملك الغضب أنادا بابو ، فصاح : « إنكما تحاولان أن تضايقانا ! .. ليس من حقكما أن تدفعا المرء — إذا ما كان يعانى آلاماً نفسية — إلى أن ينصاع لرغباتكما . لقد تحملت لجاجكما أياماً ، ولكنى لم أعد أطيقه . لسوف نتناول الشاى فى المستقبل يا هيم وحدنا فى الطابق العلوى ! » .. وحاول أن يجرها إلى خارج الغرفة ، ولكنها توقفت فى هدوء وقالت : « لا تخرج الآن يا أبت ، فأنت لم تفرغ من تناول الشاى .. هل لى أن أسألك يا أكشاى بابو عما فى هذه اللفافة العجيبة ؟ » .. فبسط يده باللفافة قائلا : « ليس لك أن تسألى فحسب ، وإنما بوسعك أن تتبينى ! » . ونزعت (هيم) الورق ، فكشفت عن نسخة من أشعار (تنيسون) ، داخل غلاف من الجلد . وبهتت وشحب وجهها ، إذ كانت قد تلقت من قبل نسخة مثلها ، كهدية .. ولم يكن أحد ليعرف أنها تحتفظ بها ككنز ثمين فى غرفتها !

وابتسم جوجندرا وهو يرفع إحدى دفتى الكتاب ، عن صفحة العنوان ، فإذا مكتوب عليها : « إلى الآنسة همنالينى ، رمزاً لتقدير أكشاى » . وأفلتت الفتاة الكتاب كما لو كان جمرة متقدة ، وأشاحت ببصرها عنه قائلة : « هيا يا أبى ! » .. وغادر الأب وابنته الحجرة .

وتطاير الشر من عينى (جوجندرا) ، وقال : « [illegible]

واحدة تحت سقف هذا البيت . سأرحل عنه ، وأكسب عيشى من العمل كمدرس ! » ، فقال أكشاى : « إنك تبالغ فى الغضب يا صديقى لقد أنبأتك بأننى أعتقد أنك مخطئ ، وقد انصعت لإلحاحك ، ولكنى رأيت الآن أن همنالينى لن تحفل بى مطلقاً ، فدع هذه الفكرة عن بالك . وإذا شئنا أن نسلك المسلك الصائب ، فيجب أن تتجه خطوتنا التالية إلى حملها على نسيان رامش » . فقال الآخر : « هذا صحيح ، ولكن كيف نحملها على ذلك ؟ » .. قال : « يجب أن لا نعتقد أننى الشاب الوحيد فى الدنيا الذى يصلح للزواج منها .. إن الذى نحتاج إليه حقاً ، هو أن نوفق إلى شاب يعجبها .. لا إلى شاب يجعلها مظهره تؤثر أن تذهب لتهوية ثياب الشتاء ! » . فقال (جوجندرا) : « ليس ثمة متجر يقصده الإنسان ويطلب عريساً (جاهزاً) ! » . ولكن أكشاى قال : « إنك سريع القنوط .. فعلى الرغم من أن هدفنا الحقيقى هو أن نجد زوجاً لهمنالينى ، إلا أننا يجب أن لا نتسرع .. وينبغى أن لا نثير موضوع الزواج ارتجالا ، وإلا أثرت مخاوف الفريقين .. بل دع التعارف يتم على مهل ، وتربص للفرصة التى تستطيع خلالها أن تقترح عليهما الزواج ! » .

وقال جوجندرا : « هذه خطة سليمة ، ولكن ما اسم المرشح ؟ » . فأجاب أكشاى : « إنك لم تتعرف إليه وإن كنت قد رأيته .. الدكتور نالينا كشا » . فردد جوجندرا : « نالينا كشا ! » . وقال الآخر : « ما الذى يدهشك ؟ .. إن طائفة البراهمة الأحرار تحيطه بفضيحة ، ولكن لا تلق لذلك بالا ! » . فقال (جوجندرا) : « ما كنت لأفلت

شخصاً موفقاً مثله .. ولكن ، هب أنه لم يوافق ؟ » . ولكن أكشاى قال : « لسنا فى عجلة .. إن الزمن كفيل بالمعجزات ! .. اسمع .. لسوف يلقى نالينا كشا محاضرة غداً ، فاصطحب همنالينى لسماعها ، فإن الشاب خطيب مصقع . وليس مثل البلاغة فى الحديث شىء يفتن النساء ! يا للمسكينات ! .. إنهن لا يدركن أن الزوج الذى يجيد الإصغاء خير ممن يجيد الكلام ! » . فقال جوجندرا : « ولكن ، حدثنى عن تاريخه ، إذ أحب أن أعرف المزيد عنه » . وبادر الآخر قائلا : « حسناً سأروى لك سيرته ، على أن تتجاوز عن النقص الذى قد تكتشفه خلالها . فإن النقص إذا كان تافهاً يعتبر — فى رأيى — ميزة ، إذ يمكن الانتفاع به ! »

ومن الممكن أن نلخص قصة نالينا كشا — كما رواها أكشاى — فيما يلى :

كان أبوه (راجبالاب) من صغار الملاك فى منطقة (فريدبور) ؛ وقد انضوى راجبالاب فى سلك طائفة البراهمة الأحرار وهو فى الثلاثين من عمره ، ولكن زوجته أبت أن تتبعه فى ذلك ، وظلت محافظة على أصول عقيدتها ، الأمر الذى لم يرض عنه (راجبالاب) بطبيعة الحال . ولقد كان لما أوتيه ابنهما (نالينا كشا) من موهبة فى الوعظ وبلاغة فى الحديث ، الفضل فى ضمه إلى الطائفة فى سن مبكرة ، وقدر له أن ينال وظيفة طبيب فى الريف ، فعاش متنقلا بين البلدان ، ككل موظفى الحكومة فى البنغال . وكان ، أينما ذهب ، ترك وراءه سمعة طيبة ، لاستقامته ، وبراعته فى مهنته ، وتقواه . ثم انقضت على الأسرة

صاعقة ، إذ قرر (راجبالاب) — عندما تقدم فى السن — أن يتزوج مرة أخرى ، ولم يقو شىء فى حمله على العدوان عن عزمه . وكان عذره الذى لم يحد عنه : « إن زوجتى الحالية لا تحل لى ، لأنها لا تتبع عقيدتى فمن الأفضل أن أتزوج من امرأة تشاطرنى عقيدتى ، وتتحد معى قلباً وقالباً ! » .. وتزوج من المرأة التى أرادها ، متبعاً الطقوس الهندوكية !

وقررت أم نالينا كشا أن تهجر زوجها وترحل إلى (بنارس) . وكان (نالينا كشا) إذ ذاك قد افتتح عيادة خاصة فى (رانجبور) ، فبادر إلى التخلى عنها ، وأعلن لأمه عزمه على أن يصحبها إلى المدينة المقدسة . وقالت العجوز وهى دامعة العين : « إن آراءنا متباينة يا بنى ، فلماذا تكبد نفسك متاعب لا داعى لها ؟ » ، فأجاب قائلا : « لن يكون ثمة تباين » ، فقد أحس بأثر غدر أبيه على نفسها ، فعول على أن يجعل سعادتها هدفه الأول . وصحبها إلى (بنارس) . وكانت من قبل قد سألته عما إذا كان لا يعتزم الزواج ، فأجابها : « ولماذا يا أماه ، إننى قانع بحالى » . ولكن ما طرأ على أمه قضى على سبب تردده ، كما أنه ، إذ اقتطع نفسه عن الوسط الذى كان يعيش فيه ، نبذ الكثير من آرائه ، ومع ذلك ، فإنه لم يكن على استعداد لأن يتزوج من غير البراهمة . وقالت له أمه وهى حريصة على أن لا تقف فى طريقه : « يا بنى العزيز ليس لك أن تنذر نفسك للعزوبة بسببى ، تزوج ممن تشاء ، ولا تخش معارضة منى » .. ففكر نالينا كشا فى الأمر يوماً أو اثنين ، ثم قال لأمه : « سأتيح لك يا أماه كنة (زوجة ابن) تروق لك .. فتاة صغيرة ،

صالحة ، لن تشعرى يوماً باستياء منها ، ولن تجدى من مسلكها ما يسبب لك ألماً ! » . ورحل إلى (البنغال) بحثاً عن عروس .

أما ما جرى بعد ذلك ، فقد اختلفت بصدده الروايات . فتزعم إحدى القصص أنه قام برحلة سرية إلى مكان ما فى الريف ، وتزوج من فتاة يتيمة ، ماتت بعد الزفاف مباشرة . ولكن الثقاة يحيطون هذه الرواية بالشكوك . وقد كان أكشاى يعتقد — فى قرارة نفسه — أن (نالينا كشا) عدل عن الزواج فى اللحظة الأخيرة !

ومهما تكن الحقيقة ، فقد كان من رأى (أكشاى) إن أم الشاب لن تعارض فى زواجه من أية فتاة تليق له ، بل إنها لن تلبث أن تغتبط إذا ما تزوج فتاة فاتنة مثل همنالينى . لن يجد خيراً منها مهما يبحث . فضلا عن أن من شأن طباع (همنالينى) الرقيقة أن تجعلها تعامل حماتها بما يحق لها من احترام . ومن ثم فإن نالينا كشا لن يلبث بعد أمد قصير من التعرف إلى همنالينى ، أن يتبين أنها أوتيت الميزات التى ينشدها فى عروسه !.. وكان من رأى أكشاى — لذلك — إتمام التعارف بين الشابين فى أقرب فرصة !

الفصل الأربعون

● لم يكد (أكشاى) يغادر البيت ، حتى صعد (جوجندرا) إلى الطابق الثانى ، فوجد أنادا بابو وهمنالينى فى حجرة الجلوس ، منهمكين فى الحديث ، وبدا على الأب شىء من الخجل حين رأى ابنه . فقد ندم لهذا الغضب الذى بدر منه على مائدة الشاى ، ومن ثم حيا (جوجندرا)

فى حفاوة أكثر من المعتاد ، وقال : « تعال يا جوجندرا .. تعال فاجلس معنا يا بنى ! » .. وقال الشاب : « إنك وهمنالينى لا تكادان تفارقان البيت فى هذه الأيام يا أبت. وطول ملازمتكما للبيت لا تفيدكما » . فأجاب أنادا : « الواقع أننا دائماً ممن يلازمون دورهم .. ثم إن المرء مضطر إلى أن يعصر فكره ليجد مناسبة تحمل هيم على مرافقته ! » . وتدخلت الفتاة قائلة : « مهلا يا أبت ، فما ينبغى أن تلقى على اللوم ، إذ أنك تعرف أننى على استعداد لأن أذهب معك إلى أى مكان ! » . وبدا من لهجة الفتاة حرصها على أن تقنعهما بأنها لا تبغى أن تدع حزنها الدفين يستبقيها أسيرة البيت ، حبيسة جدرانه الأربعة ، فقال جوجندرا : « حسناً ، سيكون ثمة اجتماع غداً ، يحسن أن تصحب هيم إليه ! » . وكان الأب يدرك نفور همنالينى من الاجتماعات العامة ، فنظر نحوها يتعرف رأيها ، وإذ ذاك صاحت الفتاة بحماس قوى : « اجتماع ! .. ومن الخطيب ؟ » . فقال (جوجندرا) : « دكتور ناليناكشا » ، فردد الأب فى عجب : « ناليناكشا ! » . قال الابن : « إنه خطيب رائع ، كما أن له تاريخاً عجيباً ينطوى على نكران الذات وعلى المثابرة .. إنه واحد فى المليون ! » .. ومع ذلك ، فقد كان جوجندرا قبل ساعتين لا يعرف عن (ناليناكشا) سوى إشاعة عابرة مبهمة !

وقالت همنالينى وهى تصطنع الاغتباط : « حسناً يا أبت ، يجب أن نذهب فنستمع إلى هذا الخطيب ! » . وما كان أنادا ليخدع بما أبدته همنالينى من لهفة ، ولكنه شعر – مع ذلك – بشىء من الارتياح . فقد خيل إليه أن همنالينى إذا ما عاودت الخروج إلى الدنيا والاختلاط مع

أندادها ولداتها – رغم ما قد يكلفها هذا من عناء وجهد – فلن تلبث أن تعود إلى حالتها الطبيعية ، فإن أضمن علاج للعلل النفسية ؛ هو الاختلاط بالناس . ومن ثم قال لجوجندرا : « حسناً ، خذنا إلى ذلك الاجتماع غداً ، ولكن ، حدثنى الآن بما تعرفه عن ناليناكشا ، فإن المرء يسمع عنه روايات متباينة » . وهنا شرع جوجندرا يشن حملة على هواة الفضائح عامة ، قائلا : « إن المتطرفين فى التدين يظنون أن السماء آثرتهم عند مولدهم برخصة تبيح لهم تقبيح أبناء جنسهم والإساءة إليهم ، دون تورع . وليس ثمة من هم أبعد عن الخير ، وأمعن فى الشر من تجار التقوى ، هؤلاء ! »

وقال الأب مجاملا : « إننى معك فى هذا الرأى .. إن مثابرة المرء على تناول سقطات جيرانه ، تجعله ضيق الذهن ، كثير الوساوس ! » . وإذ ذاك هتف جوجندرا : « ما هذا يا أبت .. أتغمزنى بهذه الوخزة ؟ إننى لست على شاكلة أولئك المتدينين ، كما تعلم ، إذ أننى أجيد الإطراء والتقدير ، بقدر ما أجيد النقد واللوم ! » . فسارع أنادا قائلا : « لا تكن غبياً .. ما كنت أقصدك فى الواقع ، فأنت أدرى منى بنفسك ! » .. وتحول جوجندرا بعد ذلك يروى قصة ناليناكشا ، مضفياً على الموضوع كل ما أوتى من بيان وبلاغة . واختتم حديثه قائلا : « لقد كبت ناليناكشا رغباته الطبيعية وذهب للإقامة فى بنارس ، لكى يسعد أمه . وقد استغل كل أصدقائه المتطرفين – يا أبت – هذه الفرصة ، ليشيعوا عنه أقاويل مشينة . والواقع أننى شخصياً أعجب بمسلكه . ما رأيك يا هيم ؟ » . فأجابت : « إننى من رأيك » . وإذ ذاك

قال : « كنت موقناً من أن هيم ستقر مسلكه . ولا يداخلني الشك فى أنها أهل لأن تبدى مثل ما أبداه من نكران الذات — لتسعد أباها — إذا ما سنحت الفرصة » . ورمق (أنادا) ابنته فى حنان ، فتضرج وجهها ، وغضت بصرها فى ارتباك .

الفصل الحادى والأربعون

● عاد أنادا بابو وهمنالينى من الاجتماع فى ساعة متأخرة من أصيل اليوم التالى . وقال الشيخ وهو يجلس إلى مائدة الشاى : « كان الحديث طيباً بالفعل ! » . ولم يدل بتعليق آخر ، ولكن عقله راح يعمل فى استغراق ، حتى أنه لم يفطن إلى همنالينى حين تسللت صاعدة إلى الطابق العلوى بعد الشاى . كان المحاضر — نالينا كشا — يبدو صغيراً على المنصة إلى درجة غريبة .. كأنه فتى يافع . فمع أنه استكمل نضوج شبابه ، إلا أن ملامحه ظلت تحتفظ بنضرة الصبا ، وكان إلى هذا محوطاً بجو من الجلال الروحى ، يبدو وكأنه ينبعث من أعماق نفسه . وكان موضوع محاضرته هو : (الخسارة) ، وملخصها أن لا كسب حقيقياً بغير خسارة . وما نحصل عليه دون جهد ليس من الكسب الحقيقى فى شىء ، فليس ثمة ما يحق لنا أن ندعى أننا نملكه — بكل ما فى الكلمة من معنى صادق عميق — سوى ما نناله بالتضحية . والذى يرى مقتنياته تتبدد وتفلت من قبضته ، تعيس حقاً . بيد أن النفس الإنسانية تسترد فى الواقع — فى عملية الخسارة والفقد — القوة على الكسب .. كسب ما فقدت ، مع الفوائد !.. وإذا استطعنا ، حين نمنى بخسارة ، أن نحنى رءوسنا ،

ونضم أيدينا فى خشوع لنقول : « إنها نعمة .. فالحرمان نعمة ، والحزن نعمة ، ودموعى نعمة ! » ، فإن كل شىء — حتى أتفه الأشياء — يكتسب فى نظرنا قيمة ومعنى .. ويتحول الشىء المحدود الأجل ، الفانى ، إلى شىء خالد ، أبدى ، وما هو مجرد أداة أو وسيلة لنفعنا اليومى ، يصبح موضوعاً جديداً يضاف إلى كل ما نعتز به ونتعبده ، وندخره أبد الدهر بين كنوز معبد قلبنا !

وتركت كلماته أثراً عميقاً فى نفس همنالينى ، وشعرت — وهى تجلس فى تفكير صامت على سطح الدار ، تحت السماء المرصعة بالنجوم — بأن قلبها كان يزخر بالعواطف ، وبأن الأرض والسماء لم تعودا خاويتين ، فارغتين ، كما كانت تراهما من قبل !

أما جوجندرا ، فقد قال لأكشاى أثناء عودتهما ، بعد المحاضرة : « لقد عرفت كيف تختار أبرع متكلم ! ولكن ، لشد ما هو متصوف فى فلسفته !.. إننى لم أفقه نصف كلامه ! » .. فقال أكشاى : « لابد للمرء من أن يشخص المرض قبل أن يتمكن من وصف الدواء الذى يحتاج إليه المريض . إن همنالينى تعانى خيبة أمل من جراء رامش ، فهى محتاجة إلى فلسفة روحية تنتشلها من قنوطها . والناس العاديون — مثلك ومثلى — لا يملكون أن يمدوها بهذه الفلسفة . ألم تتأمل وجهها أثناء حديث الخطيب ؟ » ، فقال (جوجندرا) : « بل تأملته .. كان من الواضح أنها أعجبت بمادة المحاضرة ، ولكن هذا التقدير لا يعنى أنها مستعدة لأن تمنح يدها للمحاضر ! » . وعاد أكشاى يقول : « أتراها كانت تتأثر بالمحاضرة لو أن أحداً منا ألقاها ؟ إن التصوف سحراً عظيماً

على النساء : صدقنى يا جوجن .. لو أنك قدمت أى شخص لهمنالينى لقارنت بينه وبين (رامش) ، ولما خرجت من المقارنة بنتيجة طيبة . أما نالينا كشا فليس شخصاً عادياً ، ومن ثم فلن يخطر ببالها أن تقارنه بأى شخص آخر . وإذا أنت قدمت إليها أى شاب عادى ، لاستطاعت أن تحدس الباعث ، فيهب عقلها ثائراً . أما إذا ابتكرت وسيلة تستطيع بها إحضار نالينا كشا إلى داركم ، وقدمته إليها ، فلن تخامرها أية ريبة ! ثم لا يلبث التحول أن يتم تدريجياً وبسهولة ، لمجرد الإعجاب والتقدير فقط ! » . فقال جوجندرا : « إننى لا أميل إلى التلاعب بالألفاظ ، وإنما أوثر الصراحة .. وأصارحك بأن ذلك الشاب لم يحدث أثراً كبيراً فى نفسى » !

قال أكشاى : « سيذهب كل شىء أدراج الرياح ، إذا زججت فيه بأهوائك وميولك الخاصة ، إذ ينبغى أن لا تتوقع أن تجد كل شىء وفق هواك !.. لن ننجح إلا إذا أغرينا همنالينى على نسيان رامش تماماً ولا تتصور لحظة أن بوسعك أن تحقق هذا بالشدة . يجب أن تتبع نصيحتى بحذافيرها إن شئت أن تصل إلى النتيجة المرجوة » . قال (جوجندرا) : « كل ما فى الأمر أننى أجد شيئاً من الغموض يحيط بالدكتور نالينا كشا ! » ، فصاح أكشاى : « لقد كنتم تغمضون أعينكم منذ البداية إزاء رامش .. كنتم تحسنون الظن به فى كل شىء .. كان فى رأيكم منزهاً عن الخداع ، وأعظم فيلسوف منذ عهد (سانكارتشاريا) أما أنا ، فما كنت أميل لرامش ، فقد رأيت فى حياتى كثيرين ممن على شاكلته . ولكنى لم أكن أجرؤ على أن أفتح فمى ، فما كنتم تصدقون أن

لشخص عديم القيمة ، متواضع المقام مثلى ، أى حافز على انتقاد مثل ذاك النابغة سوى الغيرة . ولعلكم تحققتم الآن من أن أولئك النوابغ المثليين يجب أن لا يمجدوا إلا على البعد ، وأن ليس من المأمون أن يقبل المرء واحداً منهم خطيباً لأخته » . فصاح جوجندرا : « لن تقنعنى مطلقاً يا أكشاى بأنك كنت أول من اكتشف حقيقة رامش ، ولو قلت ذلك ألف مرة .. إنما كنت تحقد عليه ، فلم تكن ترى فى أى عمل يأتيه صواباً ! »

* * *

● وما أن دخل جوجندرا وأكشاى غرفة أنادا ، حتى تسللت همنالينى من الباب الآخر ، فقال أكشاى فى نفسه : « لابد أنها كانت تطل من النافذة ، فرأتنا مقبلين » . وابتسم وهو يتخذ لنفسه مجلساً بجوار أنادا ، قائلا : « إن كلمات نالينا كشا تنفذ إلى القلب ، لأنها منبعثة من القلب ! » فقال أنادا بابو : « إنه موهوب بالفعل ! » .. فصاح أكشاى : « موهوب ! بل أكثر من ذلك .. إنه أكثر من يمشون على الأرض نصيباً من خصال الأبرار والقديسين ! » . ومع أن جوجندرا كان زميلا له فى المؤامرة ، إلا أنه لم يتمالك أن صاح : « لا تتكلم بالله عن الأبرار والقديسين ! .. لتحفظنا السماء منهم ! » . فقال أبوه : « لا يا جوجن ، لا تتكلم بهذه اللهجة ، فإنى شخصياً أوثر أن أعتبر جميع من يلوح عليهم الخير فى مظهرهم ، أخياراً فى باطنهم كذلك ؛ وقد أخطئ فى حكمى ، ولكن هذا بالتأكيد أفضل من أن أرتاب دائماً فى الطيبين الأبرار ! ثم إن نالينا كشا لم يجمع مادة محاضرته كيفما اتفق ،

وإنما استمدها من تجاربه الروحية . وقد وجدت رسالته جديدة ، وملهمة أيضاً ، حتى لقد ساورنى الميل إلى أن أذهب إليه فأشكره شخصياً ! » .. فقال أكشاى : « كل ما أخشاه أن لا تحتمل صحته آثار هذا النشاط الذى يبذله .. إنه يقضى كل يومه فى الصلاة والدراسة والكتابة ، دون أن يلقى بالا إلى صحته » . وقال أنادا : « هذا خطأ عظيم منه ، إننا لا نملك حق إهمال أبداننا ، لأننا لسنا خالقيها ، وبالتالى لسنا مالكيها ! .. ثم إن صون الصحة لا يتطلب من المرء سوى بعض قواعد بسيطة : أولها : ... » . وهنا نفد صبر جوجندرا فقال : « كل هذا خارج عن موضوعنا .. إن نالينا كشا فى صحة جيدة ، حتى إننى خلت — حين قابلته بعد ظهر اليوم — إن حياة النسك تعزز صحة البدن ! »

قال أنادا : « الواقع إننى أميل إلى الأخذ بصحة ما قال أكشاى ، فإن أغلب عظمائنا يموتون شباناً .. وهم يقلون من نفعهم لبلادهم حين يهملون صحتهم . أعتقد أنك مخطئ فى تقديرك لصحة نالينا كشا بابو .. إنه موهوب ، فخليق به أن يتلقى النصح للعناية بنفسه ! » .. فقال أكشاى : « اسمع .. سأدعوه إلى هنا وأقدمه إليك ، فلعلك تتحدث إليه فى هذا .. وأعتقد أنك ما إن تأخذ بيد نالينا كشا بابو ، حتى ... » . فقفز جوجندرا على قدميه قائلا : « أكشاى .. إنك توشك أن تدفعنى إلى الجنون !.. إنك تسرف فى اللغو .. لم أعد أطيق هذا » .. واندفع إلى خارج الغرفة ، متمادياً فى التظاهر بأنه غير راغب فى تردد نالينا كشا على دارهم !

الفصل الثانى والأربعون

● كان أنادا بابو — قبل الأزمة التى اعترضت (همنالينى) — يستمتع بصحة جيدة ، ومع ذلك فإنه لم يكن يكف عن تناول الحبوب المهضمة التى يصفها أطباء الشرق والغرب ! على أنه أصبح يعاف كل الأدوية . متاعبه الصحية شغله الشاغل حين كانت مجرد أوهام ، أما حين صارت واقعية . فإنه لم يعد يحفل بأمراضه مطلقاً !

وكان قد استسلم للنعاس — فى مقعده — حين سمعت (همنالينى) وقع قدمى (جوجندرا) على السلم، فأسرعت إلى الباب تنبهه حتى لا يزعج النائم . واستاءت إذ فوجئت (بنالينا كشا) مع أخيها . وأوشكت أن تدعوهما إلى غرفة أخرى، لولا أن بادرها (جوجندرا) قائلا: « هيم .. لقد أحضرت (نالينا كشا بابو)، فتعالى أقدمه إليك ! » .. ووقفت الفتاة مستاءة ، بينما انحنى القادم يحييها دون أن يرفع بصره إلى وجهها . واستيقظ (أنادا بابو) فى تلك الأثناء ، فنادى ابنته .. وأسرعت إليه هامسة بأن (نالينا كشا بابو) فى البيت ، بينما دعا (جوجندرا) الضيف إلى الدخول.

فنهض (أنادا بابو) مرحباً ، وهو يقول : « إننا سعداء حقاً بزيارتك لنا .. أعرفك بابنتى (همنالينى) يا(نالينا كشا بابو) .. لقد كانت معى تستمتع بمحاضرتك منذ أيام ، وقد أفدنا منها حقاً . على أننى أعجبت بنقطة فى المحاضرة ، وهى التى ذكرت فيها أننا لا نفقد ما يتاح لنا يوماً كسبه فحسب ، وان الكسب غير الكامل هو فى الواقع خسارة ! إنها الحقيقة بالفعل ، ألا توافقين يا هيم ؟ .. إن الإنسان لا يشعر بالخسارة

إلا إذا أفلت من يده ما كان يقتنيه . إن لى رجاء يا (نالين بابو) ، ذلك هو أن تزورنا من وقت لآخر ، لنتجاذب أطراف الحديث .. لسوف نعد هذا صنيعاً كبيراً ، فنحن لا نغادر البيت عادة ! » .

ورمق (نالينا كشا) وجه (همنالينى) الذى كان ينم عن اعتداد صاحبته بنفسها ، وقال : « لاتظنونى متحذلقاً لأننى استخدمت فى محاضرتى عبارات علمية معقدة ، فما فعلت ذلك إلا لأحمل الطلبة على أن لا يعودوا إلى إحراجى لألقى عليهم محاضرات !.. والحق أنهم لم يكتموا أن ثلاثة أرباع ما قلت تعذر عليهم فهمه . ولقد لاحظت عليك الشىء ذاته يا(جوجن بابو) فلم تفتنى نظراتك إلى ساعتك! » .. وهم (جوجندرا) بأن يعتذر ، فقال (أنادا) : « لا عليك يا(جوجن) فهناك أمور لا يفهمها الناس إلا فى سن معينة ! » .. فقال(نالينا كشا): « أجل .. وفى سن معينة لا يحتاج المرء إلى فهم كل شىء ! » .

وقال أنادا : « وبهذه المناسبة يا (نالين بابو) أحب أن أحدثك فى أمر ما . أن الخالق يرسل من هم على غرارك إلى الدنيا لأداء رسالات معينة ، ومن ثم لا ينبغى أن تستهين بحقوق بدنك عليك ! » . فقال نالينا كشا : « ما أعتقد إلا أنك لن تلبث — إذا ما توثق تعارفنا — أن تتبين أننى لا أستهين بشىء فى الدنيا . إننى حين ولدت كنت عالة على سواى ، فتطلبت تربية عقلى وجسمى جهوداً ورعاية من كثيرين ، ومن ثم فإنى أؤمن بأن ليس من حق المرء أن يقضى على الشىء الذى لا يستطيع بنفسه إنشاءه ، وإنما يعتمد فى ذلك على سواه ! » .

وهنا استأذن (جوجندرا) فى الانصراف للحاق بموعد فهم (نالينا كشا)

أن يحذو حذوه ، ولكن (أنادا) قال له : « أرجو ألا تحفل (بجوجندرا) فإنه يجىء وينصرف على هواه ، ومن العسير أن يستقر فى البيت ! » . وإذ انصرف جوجندرا ، تحول أنادا بابو يسأل (نالينا كشا) عن المكان الذى يقيم فيه ، فضحك هذا قائلا : « فى الواقع لا أستطيع أن أقول أنى أقيم فى مكان معين ، فإن لى معارف كثيرين ، وهم يتنافسون فى استضافتى . على أن المرء يحتاج إلى شىء من الهدوء والدعة ، بين آن وآخر ، ومن ثم فقد استأجر لى(جوجن بابو) المسكن المجاور لداركم » . وسر (أنادا بابو) . ولو أنه التفت نحو ابنته إذ ذاك ، للاحظ الألم الذى غشيها . فقد كان ذلك المسكن لرامش يوماً !

وأعد الشاى فى تلك الأثناء ، فدعا أنادا بابو ابنته إلى أن تقدم للضيف قدحاً ، ولكن نالينا كشا اعتذر .. ثم خيل إليه أنه قرأ على ملامح همنالينى أنها أساءت تفسير اعتذاره ، فقال ونظراته على وجهها : « لا تظنى لحظة أنى أضمر شيئاً من التحامل على عاداتكم ، فالواقع أنى اعتدت فى فترة من حياتى أن أتناول الشاى بانتظام ، ولكنك لا تعرفين ولا شك أن آراء أمى بشأن الطهر الروحى شديدة العنت . وهى الآن وحيدة ، ليس لها فى الحياة سواى . ومن ثم فلا بد لى من أن أتجنب كل ما يعرقل الود بيننا . ولهذا امتنعت عن الشاى ، وإن كنت أشارككم المتعة إذ أراكم تنعمون بشربه ! » .

وكانت عبارات (نالينا كشا) الأولى أشبه بصدمة لهمنالينى . فقد تبينت أنه فى محاضرته لم يكشف شيئاً عن حقيقة نفسه ، وإنما كان يخفى شخصيته الحقيقية وراء ستار الحديث . أما الذى لم تتبينه ، فهو أنه كان

عاجزاً بطبيعته عن أن يتحدث إلى الأغراب دون أن يلزم شيئاً من الكلفة ، وأن الخجل كان يحمله فى لقاءاته الأولى بالناس على أن يتشبث باعتداد مصطنع يجافى حقيقة فطرته . وكان هذا هو السر فى أنه حين تهيأ (جوجندرا) للانصراف ، أراد أن ينصرف معه إذ أوحت إليه نفسه بأن (جوجندرا) يريد أن يغدر به ويتخلى عنه ! على أنه حين تحدث عن أمه ، بدا شخصاً آخر ، حتى أن همنالينى لم تتمالك أن راحت تحملق فيه بإعجاب . وخفق قلبها إشفاقاً عليه ، حين تبينت ما تجلى على وجهه من إخلاص صادق عندما ذكر أمه ! وأوشكت أن تسأله عنها ، لولا أن منعها الحياء .

وأخذت همنالينى — بعد انصراف الضيف — تقرأ على أبيها مقالاً فى مجلة بنغالية ، حتى أغفى فى مقعده .. فقد أصبحت الغفوات الطارئة من عادات الشيخ فى الفترة الأخيرة .

الفصل الثالث والأربعون

● لم يلبث التعارف بين ناليناكشا وبين أنادا بابو وابنته أن تطور سريعاً إلى مودة . وكانت الفتاة قبل أن تعرفه تخال أن أحاديثه كلها مقصورة على النواحى الروحية ، فلم تكن تتصور أن بوسعها أن تتناول معه — فى حرية — كافة المسائل والموضوعات . ولكنها سرعان ما تبينت أن اللباقة لا تعوزه فى الأحاديث العادية ، وإن لاحظت أنه كان يجنح أحياناً — فى أوج الحديث — إلى لون من الانطواء والتحاشى . وحدث فى إحدى المرات أن قال جوجندرا فجأة ، موجهاً الكلام إلى أبيه : « إن أبناء الطائفة يا أبت بدأوا يسموننا « تلاميذ ناليناكشا بابو » ، وقد

تشاجرت مع فتى منهم لذلك ؟ » . فابتسم أنادا بابو قائلا : « لست أرى فى هذا ما يؤذى الشعور ، بل إنه ليخجلنى أن أنتمى إلى طائفة كل أهلها أساتذة ، وليس بينهم تلاميذ ! » .

وهنا قال ناليناكشا : « وأنى لأنضوى تحت لوائك يا أنادا بابو ، فلنكن جميعاً تلاميذ ، ولنقم بجولات نتوقف فيها عند كل موضع نرى أن بوسعنا أن نتعلم فيه شيئاً ! » .. ولكن جوجندرا لم يكن يرمى إلى هذا ، فعاد يقول : « ولكنها مسألة خطيرة . إن كل أصدقائك يا (نالين بابو) لا يستطيعون أن يزوروك دون أن يدمغوا بأنهم تلاميذك ! وعندى أنه يجدر بك أن تتخلى عن بعض تصرفاتك التصوفية .. لقد بلغنى أنك تتنفس كما يفعل أفراد مذهب (اليوجى) ، وأنك تطيل تأمل الشمس فى شروقها ، وأنك لاتقدم على أكل أو شراب ألا بعد طقوس خاصة .. ولن يؤدى هذا إلا إلى أن تعتبر « خارج غمدك » بالنسبة للمجتمع ، على حد هذا التعبير الدارج ! » .

وغضت (همنالينى) حياء من لهجة أخيها ، ولكن (نالينا كشا) ابتسم قائلا : « إننى أقر بأن الرجل الذى لا يتمشى مع المجتمع العادى غالباً ما يكون منحرفاً . ولكن ، هل من المؤكد أن ليس فى وسع إنسان أن يظل دائماً خارجاً على مجتمعه ، كما لا يمكن للسيف أن يظل بعيداً عن غمده وقرابه ؟ ! .. إن الجزء الذى يخفيه الغمد من السيف ، هو أهم أجزائه .. أما الجزء الذى يظهر منه — وهو المقبض — فهو الجزء الوحيد الذى تبدو فيه الصنعة ، إذ ينقش عليه الصانع ما يروق له من نقوش ، وفق مزاجه الخاص . كذلك الأمر بالنسبة للإنسان ، فهو لا يستطيع أن

يعرض ميزاته الخاصة إلا خارج غمد المجتمع . فما أراك راغباً فى أن تحرمه هذه الحرية ! .. على أن الذى يدهشنى هو كيف يتسنى للناس ، بل كيف يجدون الفرصة ليناقشوا فيما بينهم ما أفعله فى خلواتى بعيداً عن عيون الملأ ؟ » .

فقال (جوجندرا) : « لعلك لا تدرك أن أولئك الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تغيير الدنيا ، يرون أن من واجبهم أن يتبينوا مايجرى فى بيوت جيرانهم ، فإذا أعوزتهم المعرفة ، استعانوا بموهبة أخرى لسد هذا النقص . ثم لاتنس يا نالين بابو أن إقبال المرء على أمور غير عادية — ولو فى خلواته — هو الذى يجذب انتباه الناس إلى أعماله . ولو أنك سرت على العرف المألوف ، لما التفت إليك أحد . ألا ترى أن (هيم) لاحظت التمرينات التى تقوم بها على سطح دارك ، وتحدثت مع أبى بشأنها ، رغم أنها لم تدع لنفسها الحق فى إصلاحك ! » .

وبدأ على همنالينى الاستياء ، وهمت بأن ترد على أخيها . لولا أن التفت إليها نالينا كشا قائلا : « ليس ثمة ما يدعو إلى الاستياء .. فأى ذنب فى أن تستروحى النسمات على سطح دارك عند المساء ، بينما أكون منهمكا فى تدريباتى ؟ .. وليس يعيبك أن تكون لك عينان تبصران ! » .. فقال (أنادا) : « ولكنها لم تخبرنى مطلقاً بأنها ترى فى طقوس عبادتك ما يعيب ! » .. وإذ ذاك قال جوجندرا : « لست أفهم ما الذى يضايقك من السير العادى للحياة البشرية ، فلماذا لا تسلك مسلك الناس العاديين .. وأى نفع فى أن تمارس طقوساً غريبة فى خلوة تحرص على تكتمها ! .. أرجو ألا تغضب من قولى هذا ، فأنا إنسان جد عادى . أقنع بمكانى فى

الصفوف المتواضعة ، ولا أطمع فى التطلع إلى المقاعد الرفيعة ، اللهم إلا لأرجمها بالطوب ! ولا حصر لمن هم على شاكلتى ، فإذا أنت تركتهم وراءك لترقى إلى عالم بعيد عن الواقع ، أصبحت هدفاً لما لا حصر له من الطوب ! » .. فقال (نالينا كشا) : « ولكن الطوب أنواع .. فلن يضير المرء أن تنعته بأنه مجنون ، أو قاصر العقل ، ولكنك حين ترميه بأنه متهوس دينى فإنما تتهمه بأنه يقيم نفسه نبياً ويحاول أن يجمع حوله حواريين ، ولن يقوى شىء على تبرئته من هذا الهزل ! » .

ولم يشأ جوجندرا أن يمضى فى الجدال ، فالتمس حجة للانصراف . ولبثت همنالينى منكسة الرأس وهى تعبث بطرف غطاء المائدة . ولو أن أحداً أنعم النظر فى عينيها ، لرأى دمعتين تتراقصان على أطراف أهدابها ! .. كان اتصالها اليومى بنالينا كشا قد كشف لها عن مواطن النقص فى شخصيتها ، فراحت تكافح جاهدة لتسلك الدرب الذى سلكه ! .. فلقد أظهر نالينا كشا الدنيا لها — فى ساعة محنتها ، وهى تتلفت حولها تنشد شيئاً من العون — فى ضوء جديد ، فأخذت تزداد انصياعاً للفكرة التى تولتها ، والتى راحت توحى إليها بأن تلزم نفسها نظاماً قاسياً لترويض هذه النفس ، عسى أن يكون فى الترويض عون . ثم أن الأسى ليس من المشاعر التى تقنع بأن تقوم كمجرد إطار يحيط بالذهن ، وإنما هو يبحث عادة عن متنفس له ، خلال الإيحاء لصاحبه بأن يشغل نفسه بعمل صعب . وكانت همنالينى حتى ذلك الوقت تخشى العلانية ، وتكتم حزنها فى أعمق الغرف الخفية من قلبها . ومن ثم كان ارتياحها كبيراً حين قررت أن تقفو خطوات نالينا كشا ، وأن تروض نفسها على نظام تصوفى

روحى : فجردت غرفتها من زينتها ، ولم تستبق فيها سوى سريرها الذى أخفته وراء ستار . وأصبحت تنثر الماء على أرض حجرتها وتكنسها بيدها فى كل صباح . ولم تحتفظ من زينة الغرفة بغير آنية للزهور . وصارت ترتدى — بعد الاغتسال فى الصباح — ثوباً ناصح البياض ، ثم تجلس على الأرض ، والشمس تتدفق خلال النافذة ، ثم تسبح بروحها فى ضياء السماء وهوائها ! .. واغتبط (أنادا بابو) للإشراق الذى أضفته هذه الرياضة الروحية على محياها . وعندما كان نالينا كشا يفد على الدار ، كان ثلاثتهم يجلسون على أرض حجرة (همنالينى) ليتجاذبوا أطراف الحديث .

ولم يكتم جوجندرا استهجانه ، فقال ساخراً : « لست أدرى ما الذى أصابكم جميعاً ؟ .. أنكم — فيما بينكم — قد حولتم البيت إلى أرض مقدسة ، فلم يعد فيه موطئ لقدم شخص مثلى ! » . وكانت همنالينى تشعر فى بعض الأحيان بأن فى حديث أخيها ما يجرح شعورها ، ولكنها أصبحت تحذو حذو نالينا كشا فى هدوئه وتسامحه ، فتكتفى بأن تبتسم . لقد عثرت أخيراً على عون أكيد ، لا يخيب . فأصبحت ترى فى الخجل أو الاستحياء ضعفاً مزرياً ! .. وكانت تدرك كل الإدراك أن معارفها اعتبروا تقشفها هذا ضرباً من التهوس ، ولكن ثقتها فى نالينا كشا وإعجابها بمبادئه منحاها السلاح الذى تحصنت به ضد الجنس البشرى بأسره ، فأصبحت تواجه الدنيا غير متحرجة . وحدث ذات صباح أن اغتسلت وأدت طقوسها ، ثم جلست فى خلوة على أرض غرفتها ، أمام النافذة المفتوحة ، مستغرقة فى التأمل ، وإذا بأنادا بابو يقبل مصطحباً (نالينا كشا)

وكان قلب همنالينى قد أفعم بالتجرد والتواضع ، فسجدت أمامهما ، ومست الغبار العالق بأقدامهما ، الأمر الذى جعل نالينا كشا يشعر بالاستياء . ولم يكن من عادته أن يزورهما فى مثل هذه الساعة المبكرة ، فأخذت همنالينى تتطلع إليه متسائلة . وما لبث أن قال أنه تلقى نبأ من (بنارس) بأن أمه مريضة ، ومن ثم قرر أن يغادر (كلكتا) بقطار المساء ، ولما كان سيقضى يومه فى التأهب للرحلة ، فقد رأى أن يفد مبكراً ليودعهما .

وقال أنادا بابو : « شد ما يحزننى أن أسمع بمرض أمك . فعسى أن تهبها السماء شفاء عاجلا . وأحب بهذه المناسبة أن أذكر لك أننى لن أستطيع قط أن أوفيك جزاء ما بذلت لنا من عون فى الأسابيع الأخيرة» . فقال نالينا كشا : « بل أنا المدين لكما .. فلقد أوليتمانى أسمى مشاعر الجيرة ، وتجشمتما المتاعب فى سبيل توفير مسكن مريح لى بجواركما . ثم إن إخلاصكما أضفى معانى جديدة على المسائل العويصة التى كنت عاكفاً على تأملها والتفكير فيها منذ زمن ! » . وهنا قال أنادا بابو : « من الغريب أننا — قبل أن نعرفك — كنا نعانى حاجة ماسة إلى شىء ما لم نكن ندرى كنهه ، ولا نعرف سبيلا إلى تحديده . وفى تلك الآونة الخيرة ، ظهرت أنت على مسرح حياتنا ، فشعرنا بأن لا غنى لنا عن عونك . إننا قوم لانكاد نبرح دارنا ، ولا نكثر من الاختلاط بالمجتمع . ولم يسبق لنا أن أغرمنا بحضور الاجتماعات والاستماع إلى الأحاديث والمحاضرات . وكانت همنالينى أكثرمنى بعداً عن هذه المناسبات . ومن ثم كان ما حدث نوعاً من المعجزات .. إذ ما نكاد نسمع من (جوجن)

عن محاضرتك . حتى ذهبنا لسماعها دون أقل تردد . فكان هذا تصرفاً لم يسبقه مثيل فى حياتنا !.. مثل هذا الأمر لا يحدث مالم يكن القدر قد ساقه إلينا ، ليساعدنا فى حيرتنا ! » . فقال نالينا كشا : « إذن دعنى بدورى أذكر لكما أمراً .. لم يسبق فى حياتى أن أدليت ببعض شئونى الخاصة لأحد غيركما ، إذ لابد لمن يريد بلوغ أسمى درجات الصدق أن يكشف كل مافى سريرته . وقد كان لمعونتكما الفضل فى تمكينى من تحقيق هذا الواجب . وهكذا أؤكد لكما أننى لم أكن لأستطيع أن أستغنى عن مساعدتكما ! » .

ولم تشترك همنالينى فى الحديث ، ولكنها ظلت جالسة فى أشعة الشمس ، مستغرقة فى التأمل ، حتى آن لنالينا كشا أن ينصرف ، وإذ ذاك قالت له ببساطة : « لا تقصر فى أن تطمئننا على صحة أمك » . ومرة أخرى سجدت أمامه تواضعاً حين هم بالخروج !

الفصل الرابع والأربعون

● كان أكشاى قد غاب عن البيت فى الفترة الأخيرة ، فلما رحل (نالينا كشا) إلى (بنارس) ، عاد جوجندرا يدعوه إلى الشاى . وداخل أكشاى الأمل فى أن يستبين — من تصرفات همنالينى — إلى أى مدى كانت ذكرى رامش لا تزال متسلطة على أفكارها . ولكنها فى الواقع بدت له فى خير حال . وقالت فى صداقة خالصة : «لم نعد نراك إلا لماماً» ! فرد متسائلا : «وهل ترينى أهلا لأن ترونى فى كل يوم»؟ ، فضحكت قائلة : « إذا كنت ترى حقاً أن المرء يجب أن لا يزور أحداً إلا إذا

كان جديراً بأن تقع عليه الأبصار ، لوجب على الكثيرين منا أن يقضوا أيامهم فى عزلة ! » . وإذ ذاك قال جوجندرا : « لقد ظن أكشاى أنه يستطيع أن يظفر بجائزة فى التواضع » ، فإذا همنالينى تتفوق عليه! «على أننى أحب أن أعرب عن رأيى فى هذا الصدد . إن أمثالى من الناس العاديين ، رفاق مناسبون فى كل يوم ، ولكن هناك أفذاذا ، شواذاً ، لا يستطيع المرء احتمالهم إلا لماماً ، ولا يطيق لقاءهم كثيراً ، ومن ثم فهم يهيمون فى الغابات . والجبال ، والوهاد . ولو أن المقام استقر بهم فى البيوت كبقية الناس ، لاضطر المتواضعون من أمثال جوجندرا وأكشاى إلى أن ينطلقوا بدلا منهم فى الغابات ! » .

ولم يفت همنالينى ما انطوى عليه حديثه من غمزة لاذعة ، ولكنها لم ترد عليه ، وإنما تحولت فصبت الشاى فى الأقداح للرجال الثلاثة . حتى إذا سألها أخوها : « ألن تتناولى نصيباً من الشاى ؟ » ، قالت فى ثبات وهى تدرك أنها لن تنجو من تقريعه : « لقد عدلت عن تناول الشاى » فهتف : « إذن ، فقد أصبحت زاهدة بمعنى الكلمة . لعل أوراق الشاى لا تحتوى على مقدار كاف من النكهة الروحية الصادقة ! لا ، هذا أكثر مما يحتمله المرء ، فدعى هذا التهوس ياهيم ، بحق السماء ! » .. وصب الشاى فى قدح وضعه أمامها . ولكنها قالت دون أن تمسه : « عجباً يا أبت .. إنك لم تأكل شيئاً مع الشاى ! » ، فأجاب أنادا بابو وصوته ويداه ترتجف : « صدقينى يا عزيزتى إذا قلت أن أى شىء آكله الآن سوف يقف فى حلقى فيخنقنى . لقد ظللت أمداً طويلا أحاول أن أتقبل فى صمت خشونة جوجن ، حتى بلغت حالا أخشى معها إذا تكلمت أن أقول فى وطيس اللحظة ما قد أندم عليه فيما بعد ! »

إذ ذاك نهضت همنالينى ، فسارت إلى مقعد أبيها ، وقالت : « لاتغضب يا أبى . كان كرماً من جوجن أن قدم لى القدح ، ومن ثم لم أشعر بأقل استياء . هيا ، تناول بعض الطعام ، فأنا أعرف أن الشاى لايناسب معدتك ، ما لم تأكل معه شيئاً ! » . ووضعت أمامه طبقاً مليئاً بالكعك ، فشرع يأكل فى تثاقل . وعادت همنالينى إلى مقعدها ، وهمت بأن تشرب قدح الشاى الذى صبه لها جوجندرا ، لولا أن قفز أكشاى قائلا : « اسمحى لى بهذا القدح ، فقد فرغت من قدحى ! » . ونهض جوجندرا فأخذ القدح من أخته ، وتحول إلى أبيه قائلا : « آسف ، اغفر لى ! » .. ولم يتمالك أنادا صوته ، وترقرقت الدموع فى عينيه ، فانسحب جوجندرا وأكشاى من الغرفة فى صمت . وبعد لحظات ، نهض أنادا بابو فتأبط ذراع ابنته ، وصعدا معاً إلى الطابق العلوى ..

وفى تلك الليلة ، انتابت أنادا بابو نوبة من الألم ، فاستدعى الطبيب الذى ذكر أنه مصاب بالتهاب معوى ، ونصح له بأن يمكث عاماً — أوستة أشهر على الأقل — فى مكان ريفى للاستجمام . وقال الشيخ بعد أن خفت وطأة الألم وانصرف الطبيب : « لنذهب إلى بنارس فنقيم بها فترة من الزمن يا عزيزتى هيم ! » .. وكانت هذه الفكرة قد خطرت ببال (همنالينى) فى الوقت نفسه . إذ أنها كانت قد شعرت عقب رحيل (نالينا كشا) بتراخ فى عبادتها ورياضتها الروحية . كأنما أصاب تحمسها فى غيابه نوع من الفتور . ولقد حاولت فى اليوم التالى أن تتبع تعاليمه فى اهتمام متضاعف ، وأخذت تجهد نفسها فى ذلك ، بيد أنها أحست بقنوط دفع الدموع إلى عينيها . وعندما حان موعد الشاى ، حاولت أن تبدى

مرحاً وكرماً ، ولكنها أحست بكابوس يجثم على قلبها وعاودها ألم الذكريات القديمة ، ولوعة الحيرة التى اكتنفتها من قبل . لذلك جاء اقتراح أبيها فى موعده الملائم ، وصادف هوى من نفسها . فاحتضنته قائلة : « أجل ، دعنا نرحل إلى هناك يا أبت ! » .

وإذ لاحظ جوجندرا الاستعدادات التى كانت تجرى فى اليوم التالى ، سأل عما هناك ، فقال له أبوه أنه وهمنالينى راحلان إلى الريف ، فسأله (جوجندرا) : « وإلى أى مكان فى الريف ؟ » .. فأجاب أنادا ، وهو غير راغب فى أن يصارحه : « سنقوم بجولة فى الريف قبل أن نستقر فى مكان » .. فقال جوجندرا : « كم يؤسفنى أن لا أستطيع أن أصحبكما . فقد قدمت طلباً لأحصل على منصب فى التدريس ، ولا بد لى من أن أنتظر الرد ! » .

الفصل الخامس والأربعون

● عاد رامش من (الله آباد) إلى (غازيبور) فى ساعة مبكرة من الصباح . وكانت الطرقات شبه خالية ، وبدت الأشجار التى كانت تحف بها منكمشة كما لو كانت تنشد الدفء من البرد اللاذع ! وخيم على كل مكان ضباب بدأ كالبجعة الراقدة على بيضها . ولم يكن رامش — وهو ملتف فى معطف فضفاض ، فى العربة التى أقلته إلى داره — ليشعر بغير وجيب قلبه الملهوف . وتوقفت العربة لدى الباب الخارجى فغادرها . لابد أن كمالا قد سمعت صوت العجلات ، فخفت لانتظاره فى الشرفة . وكان قد حمل لها من (الله آباد) قلادة ثمينة تناول صندوقها من جيب

معطفه إذ ذاك . ولكنه حين ازداد اقتراباً من المبنى ، ألفى جميع الأبواب مغلقة ، وقد استسلم (بيشان) – الحارس – للنعاس فى الشرفة . وتوقف برهة مكتئباً ، ثم صاح ينادى (بيشان) ، وهو يرجو أن يوقظ صوته نائماً آخر كان يهفو إلى لقائه ! .. ما كان أبرد هذا الاستقبال لشخص سهدته اللهفة والشوق ! .. وعاد يكرر النداء ، ولكن (بيشان) لم يستيقظ ، فاضطر فى النهاية إلى أن ينهره . وما لبث الحارس أن استوى جالساً ، وتلفت حوله فى حيرة ، فهتف به رامش : « هل مولاتك فى الدار ؟ » .. فأجاب الرجل بصوت أثقله النعاس : « أجل ! » ، ثم عاد إلى نومه !

وانفتح باب الدار لأول دفعة من يد رامش ، فدخل هذا ، وراح يطل فى كل غرفة ، فإذا بها خالية . وصاح منادياً : (كمالا) ، ولكنه لم يتلق جواباً . وجاس فى أرجاء الحديقة ، وبحث فى المطبخ ، وفى غرف الخدم وفى الحظيرة ، دون أن يعثر لـ(كمالا) على أثر . وفى تلك الأثناء كانت الشمس قد أشرقت ، وانطلقت الغربان تنعق ، وظهرت فتاتان أو ثلاث من القرويات يحملن الجرار على رءوسهن ، يملأنها بالماء .

وعاد رامش إلى مبنى الدار ، فإذا بيشان مستغرق فى النوم ثانية ، فانحنى يهزه فى عنف . حتى إذا أفاق أخيراً ، قفز مستوياً على قدميه . وسأله رامش : « أين مولاتك ؟ » .. فأجاب : « إنها فى البيت بالطبع » . قال رامش : « هراء .. إنها ليست هناك ! » .. وأجاب بيشان : « ولكنها جاءت بالأمس » . فسأله : « وأين ذهبت بعد مجيئها » ؟ .. وشهق (بيشان) إذ ذاك .. وأقبل (أومش) فى تلك اللحظة ، محتقن

العينين لطول السهر ، فسأله مولاه : « أين الأم يا أومش ؟ » .. قال : « إنها هنا منذ أمس ! » ..

– وأين كنت أنت ؟

– أرسلتنى أمى لأشهد التمثيل فى دار (سيدو بابو) .

وقفز رامش إلى العربة ، وأمر الحوذى بالانطلاق إلى دار (العم) .. فإذا الاضطراب يسود الدار . واتجه فكره إلى أن (كمالا) قد فوجئت بمرض ما .. ولكنه أخطأ الحدس . فقد أصيبت الطفلة (أومى) خلال الليل بمرض جعل أهل الدار يتوقعون موتها ، فلم يغمض لأحد منهم جفن : وخطر لرامش أنهم استدعوا (كمالا) لتساعدهم فى تمريض الطفلة ، ولكن (بيبين بابو) – الذى استقبله – لم يكن يدرى إن كانت (كمالا) قد وفدت على الدار أو لم تفد . وأقبل (أومش) فى تلك الأثناء ، فنفذ إلى داخل البيت ، وسأل (سايلاجا) عنها ، فهتفت هذه : « عجباً .. ألم تذهب معها إلى داركم بالأمس ؟ .. لقد فكرت فى إيفاد الخادم إليها فى الليلة السالفة ، ولكن مرض أومى شغلنى » .. فهتف أومش فى أنين : « إذن ، فهى ليست هنا ! » .. وهنا صاحت به سايلاجا : « ما الذى تعنيه ؟ .. أين كنت طيلة الليل ؟ .. وأين كان (بيشان) ؟ » .. فقال الصبى : « لقد استحثتنى على أن أذهب لمشاهدة التمثيل .. أما بيشان فلا يدرى شيئاً على الإطلاق .. لقد أسرف فى احتساء البلح المخمر فى الليلة السالفة ! » .

وأمرته (سايلاجا) بأن يدعو إليها زوجها . وما أن عرف الرجل أن (كمالا) لم تكن فى دارها ، حتى جزع ، فهتف به : « اذهب مع

رامش بابو فابحثا عنها » . واستقل الرجلان العربة وعادا إلى دار رامش ، فراحا يستدرجان بيشان مرة أخرى ، ولكن جهودهما لم تنتزع منه سوى القصة الهزيلة التالية : « خرجت كمالا وحدها قبيل الغروب إلى النهر . وقد عرض عليها بيشان أن يصحبها فأبت . ومنحته روبية . وجثم عند الباب الخارجى يحرس الدار ، وإذا ببائع يحمل قدراً مليئاً بشراب البلح المخمر .. ولا يذكر بيشان ما حدث بعد ذلك ! » .. وأشار إلى الطريق الذى سلكته كمالا نحو النهر ، فانطلق فيه رامش وبيبين وأومش ، بين النباتات الندية ، للبحث عن كمالا . وتوقف ثلاثتهم عند ضفة النهر . فقد كانت تمتد أمامهم مساحة شاسعة من الرمال المتوهجة تحت شمس الصباح . ولم يبد خلال المنظر أثر لنفس حية !.. وصاح أومش : « أوه ، يا أماه !.. أين أنت ؟ » .. ولكنه لم يتلق رداً ، اللهم إلا رجع الصدى . وفيما كان أومش يتفرس فى المكان ، أبصر على بعد شيئاً أبيض . فاندفع إليه .. وإذا بحزمة من المفاتيح مربوطة إلى منديل ، وملقاة عند حافة الماء . ولم يكن ثمة شك فى أنها مفاتيح كمالا !.. وعلى مقربة من المكان ، رأوا آثار قدمين صغيرتين ، سارتا على الأرض الرطبة ، نحو الماء . ووقع بصر أومش فى الماء الضحل على شىء يلمع ، فأسرع إليه ، وإذا به قلادة ذهبية مرصعة بالميناء ، كان رامش قد أهداها إلى كمالا !.. وإذ بدا جلياً أن كل هذه الظواهر تشير إلى نهر (الجانجز) ، طار صواب أومش ، فقفز إلى الماء صارخاً : « أماه .. أوه ، يا أماه ! » .. وراح يغطس ويطفو وهو يتخبط كالمجنون . وكان رامش مذهولا ، مضعضع الحواس . على أن (بيبين) راح

ينادى الصبى ، فكان أومش يصرخ : « لا .. لن أخرج من الماء .. أوه يا أماه !.. كيف تتركيننى هكذا ! » .. وبعد لأى ، زحف إلى البر وارتمى على الرمل يبكى فى حرقة مريرة !

* * *

● ألقى (بيبين) يده على كتف رامش ينبهه من وجومه الآسى ، قائلا : « هيا يا رامش بابو .. إننا نضيع الوقت هنا . يجب أن نبلغ الشرطة الأمر ، ليتولوا البحث والتحرى » .

ولم يحظ أحد من المحيطين بسايلاجا بشىء من الطعام أو النوم فى ذلك اليوم ، بل راحت صيحات الحزن تدوى فى الدار .. واستؤجر بعض الصيادين ليبحثوا فى النهر ، كما أرسلت الشرطة داوريات فى أرجاء الريف ، وأجريت تحريات خاصة فى محطة سكة الحديد ، فتبين أن قطار الليل لم يقل أية فتاة تنطبق عليها أوصاف (كمالا) !

ووصل (العم) بعد ظهر ذلك اليوم ، فألم بالتفصيلات ، وسمع بما كان من تصرفات (كمالا) الغريبة قبل اختفائها ، ازداد اقتناعاً بأنها أغرقت نفسها فى النهر . وإذ ذاك قالت الخادم : « الآن عرفت لماذا صرخت (أومى) وأصابها المرض الداهم فى الليلة الماضية ! » .

وكانت الصدمة من القسوة على رامش بحيث جعلت الدموع تتحجر فى عينيه .. وأخذ يقول لنفسه : « من يتصور أن يمنحنى نهر (الجانجز) كمالا ، ثم يعود النهر ذاته فيبتلعها هكذا .. كزهرة طاهرة ألقاها إلى الماء مؤمن يعبد النهر ! » . وعاد إلى الضفة بعد الغروب ، فظل واقفاً فى البقعة التى كانت المفاتيح ملقاة عندها ، يحدق فى آثار القدمين

الصغيرتين . ثم خلع نعليه ، ونزع عنه ثيابه حتى خصره ، وخاض فى الماء حتى منتصف المجرى . وفى هدوء ، تناول القلادة من صندوقها وألقى بها فى النهر !

ولم يطل مقامه فى (غازيبور) ، ولكن أهل دار (العم) كانوا على درجة من الحزن لم يفطنوا معها إلى غيابه !

الفصل السادس والأربعون

● بدا المستقبل أمام رامش فارغاً ، فلم يعد له أمل يصبو إليه ، ولا عمل منتظم ، ولا مقام يستقر فيه . ولا ينبغى أن نظن أنه كان قد نسى همنالينى ، بل إنه كان يقصى ذكراها عن باله ، قائلا : « إن الضربة القاسية التى وجهها إلى القدر ، جعلتنى لا أصلح لهذه الدنيا ، فما أنا إلا شجرة محطمة اجتثت من غابة يانعة ! » .. وأخذ ينشد العزاء فى الترحال ، متنقلا من مكان إلى آخر .. فشاهد معابد (بنارس) الوثنية وهو فى سفينة على نهر (الجانجز) ، ثم توجه إلى (دلهى) ، ونزل فى (كتب منار) ، ثم رحل إلى (آجرا) حيث زار (التاج محل) فى ضوء القمر . ومن (أمريتسار) بمعبدها الذهبى ، رحل إلى (راجبوتانا) فحج إلى الأضرحة المقدسة على جبل (آبو) . وما كان لجسده ولا لعقله أن يعرفا الراحة ، بعد أن استبدت به روح الترحال . على أن الحنين إلى بلدته ما لبث أن خالجه .. الحنين إلى البلدة الآمنة . الوادعة ، التى شهدت طفولته ، والتى نسيها !

وأخيراً ، استقل القطار السريع إلى (كلكتا) . وظل أياماً قبل أن

يجد من نفسه الجرأة على أن يزور حى (كالوتولا) . وبلغ فى أحد الأيام مدخل الحارة التى كان يقطنها . وفى الليلة التالية ، استجمع جرأته وسار حتى بلغ دار (أنادا بابو) ، فإذا النوافذ والأبواب مغلقة وموصدة بالمزاليج ، ولا أثر لإنسان حى فى البيت . وخطر له أن (سوخان) — الحارس — قد يكون هناك ، فطرق الباب مراراً ، وراح يناديه ، ولكنه لم يحظ بجواب . وأخيراً ، فطن إليه جار يدعى (تشاندرا موهان) كان يجلس فى شرفة داره وهو يدخن الغليون ، فصاح : « أهلا بك يا رامش بابو .. أهذا أنت حقاً ؟.. كيف حالك ؟.. ليس فى دار أنادا بابو أحد » . فسأله : « أتعرف أين ذهبوا يا سيدى ؟» قال (تشاندرا موهان) : « لست أعرف .. كل ما أدريه أنهم ذهبوا إلى الريف » .. قال : « ومن الذى ذهب منهم ؟ » .. فأجاب الرجل : « أنادا بابو وابنته » .. فعاد يسأله : « أولم يصحبهما أحد ؟ » .. فقال (تشاندرا) : « لا .. فقد شاهدتهما بنفسى عند رحيلهما » .

ولم يعد (رامش) يقوى على تمالك نفسه ، فقال : « لقد قيل لى إن سيداً يدعى نالين بابو صحبهما » . وإذ ذاك قال تشاندرا : « هذا النبأ غير صحيح . لقد أقام نالين بابو فترة فى مسكنك القديم ، ثم رحل إلى بنارس قبل مغادرتهما كلكتا ببضعة أيام » . وهنا أخذ رامش يمطر الرجل بالأسئلة عن (نالين بابو) فعرف منه أن اسمه (نالينا كشا تشاتبوداياى) ، وقد عرف عنه أنه كان يمارس الطب فى (رانجبور) ، ولكنه أصبح يقيم مع أمه فى (بنارس) . وما لبث رامش أن سأل عن (جوجندرا) ، فعرف أنه يقيم فى بلدة (بيسايبور) بولاية (مايمنسينغ) حيث عين ناظراً لمدرسة ثانوية هناك .

ولم يمض وقت طويل على انصراف رامش ، حتى أقبل (أكشاى) إذ كان (جوجندرا) قد أوصاه بأن يتفقد الدار فى غياب الأسرة : فبادره (تشاندرا موهان) قائلا : « لقد كان (رامش بابو) هنا منذ دقائق .. ولم يمض وقت يذكر على انصرافه ! » . فهتف أكشاى : « أحقاً ؟.. وماذا جاء يبغى ؟ » .. قال (تشاندرا) : « لست أدرى ، ولكنى أبلغته كل أنباء الأسرة . وكان يبدو سقيماً معلولا ، حتى أننى لم أكد أعرفه ! » .. فسأله أكشاى : « أفتعرف أين يقيم الآن ؟ » .. قال : « كان فى غازيبور ، ثم غادرها ، ولم يقرر بعد أين يكون مقامه » .. فهتف (أكشاى) : « آه ! » ، ثم انصرف إلى شأنه .

أما رامش فقد عاد إلى مسكنه وهو يفكر ، قائلا فى نفسه : « لا يزال القدر يلعب بى فى قسوة . إن علاقتى بـ(كمالا) وعلاقة ناليناكشا بهمنالينى موضوع صالح لرواية .. ورواية مشوقة ، مؤثرة !.. مثل هذه العقدة لا يقوى على ابتكارها سوى القدر الذى لا يتورع عن شىء !.. إن أغرب الأمور لا تحدث إلا فى الحياة الواقعية .. أغرب الأمور التى لا يجرؤ روائى على أن يقدمها إلى الرأى العام ! » .. ومع ذلك ، فقد شعر بأنه تحرر من أضنى حيرة .. ولابد أن القدر لن يقسو عليه إذا ما شرع يؤلف الفصل الأخير من رواية حياته !

* * *

● كان (جوجندرا) يقيم فى منزل من طابق واحد . وفيما كان مستغرقاً فى مطالعة إحدى الصحف ، فى صباح يوم الأحد من أحد الأسابيع : إذا برجل من السوق يدفع إليه برسالة . وفرك عينيه غير

مصدق حين رأى الخط الذى كان على غلافها . فلما فضها ، وجدها من رامش ، يذكر فيها أنه يرتقب رده ، إذ لديه حديث هام يريد أن يفضى به إليه . وقفز (جوجندرا) عن مقعده ، وقد نسى الفراق العاصف الذى حدث بينه وبين رامش ، وتملكته ذكريات زمالة الصبا والواقع أنه ابتهج حين فكر فى لقاء رامش كما تملكه نوع من الفضول . ولم ير أى بأس فى أن يقابله لا سيما وقد كانت همنالينى بعيدة عنهما . ومن ثم انطلق مع الرسول إلى حيث كان رامش فى الانتظار ، وألفاه جالساً على صفيحة مقلوبة من صفائح البترول ، فى متجر بدال ، فسار إليه ، وشده من يده صائحاً : « لعمرى ، أننى لا أكاد أفهم طباعك ، فهى غريبة كعهدى بها دائماً .. لماذا لم تأت فوراً إلى دارى بدلا من أن تقبع فى حانوت بدال ؟ » .. وبهت رامش لهذه الحفاوة . فلم يحر جواباً ، واكتفى بالابتسام ، بينما صحبه جوجندرا فى عجلة ، وهو لا يكف عن الكلام : « ليقل علماء الدين عن القدر ما يحلو لهم ، ولكنى لا أكاد أفهمه مطلقاً . ألا انظر إلى ما صرت إليه !.. لقد نشأت فى المدينة ، على خير ما ينشأ عليه أبناء المدن ، فإذا بالقدر يأتى بى فى هذه البطاح المقفرة ، حيث تعانى روحى الجوع ! » .. فقال رامش وهو يجيل بصره فيما حوله : « ما هذه ببلدة سيئة ! » .. قال جوجندرا : « ما الذى ترمى إليه ؟ » .. فأجاب رامش : « أعنى أن الوحدة والعزلة تتوفران فيها .. والمهم فى الأمر ، هو راحة البال ! » ، فصاح جوجندرا : « لا تحدثنى عن هذا !.. لقد قضيت فترة كدت أختنق فيها براحة البال ، فلم يمض وقت طويل حتى عدت إلى هوايتى التى أقبل بها

الوقت والسأم .. هواية المشاغبة والخصام ، وأنا الآن فى شقاق محتدم مع سكرتير مجلس إدارة المدرسة ! » .. ومضى يحدثه عن متاعبه فى المدرسة ، ومع السيد الإقطاعى فى المنطقة !

وبلغا أخيراً دار (جوجندرا) ، حيث تهالك (رامش) فى مقعد . ولكن الآخر صاح : « لا تجلس الآن ، فأنا لم أنس بعد اعتزازك بحمام الصباح ، فاذهب واغتسل ريثما أضع الماء على النار ، واتخذ من وصولك حجة لأحظى بقدح آخر من الشاى ! » . وقضيا يومهما فى أكل ، وكلام، واستجمام ، دون أن يدع جوجندرا لـ(رامش) فرصة يذكر فيها المهمة التى حملته إلى (بيسايبور) . حتى إذا فرغا من العشاء ، اتخذا مجلسيهما إلى جوار المصباح . وبينما كانت الذئاب تعوى فى الخارج ، وجد رامش الفرصة ليفضى بمهمته ، فقال : « لعل غريزتك قد أنبأتك ياجوجن بما أحضرنى إلى هنا . لقد سألتنى مرة عن أمر لم يكن بوسعى أن أجيبك عنه . أما الآن، فلم يعد ثمة ما يمنعنى من الإجابة » .

وأخلد رامش إلى الصمت . ولكنه ما لبث بعد لحظات ، أن شرع يروى – فى بطء – قصة علاقته بـ(كمالا) ، من البداية حتى النهاية . وكانت العبرات فى بعض الأحيان تخنق صوته ، وفى أحيان أخرى كان هذا الصوت يتهدج . وكان الشاب يكف عن الكلام فى بعض المواضع . وجوجندرا يصغى فى صمت . حتى إذا فرغ رامش من قصته ، تنهد جوجندرا ، ثم قال : « لو أنك رويت لى هذه القصة ، فى ذلك اليوم، ما صدقتك ! » .. فقال رامش : « وإنها لا تزال اليوم ، كما كانت إذ ذاك ، بعيدة عن العقل ، ولكنى أريد أن أصحبك إلى القرية التى

تزوجت فيها ، ثم إلى خال كمالا » . فقال صاحبه : « لن أتحرك من هنا . فأنا على استعداد لأن أصدق كل كلمة ، دون أن أغادر مقعدى. ولقد كنت دائماً متعوداً على أن أصدقك دون أن أطالبك بدليل ، ولابد الآن من أن تغفر لى المرة الوحيدة التى حدت فيها عن هذه العادة ! » .. ونهض من مجلسه ، فتعانق الصديقان الحميمان . وعندما قوى رامش على الكلام مرة أخرى ، قال : « لقد أوقعنى القدر فى شباك من الزيف لا فكاك منها .. أما وقد تخلصت منها أخيراً ، فلم يعد ثمة ما يدعونى إلى الكتمان ، وها قد آن لى أن أتنفس فى ارتياح وحرية ! إننى حتى اليوم لا أعرف – ولا أظننى سأعرف مطلقاً – السبب الذى حدا بـ(كمالا) إلى الانتحار ، ولكنى موقن من أن هذا كان الحل الوحيد لها ! كنا معاً فى موقف معقد ، أرانى أرتجف كلما ذكرت الصعاب التى كانت تحوطه ، لو لم تقدم هى على قطع الخيوط . لقد انتزعت فجأة ، وعلى غير توقع ، من بين فكى الموت ، ولكنها عادت فغابت بينهما فجأة ، وعلى غير توقع .. أيضاً ! »

قال (جوجندرا) : « ما ينبغى أن تسلم بأن كمالا انتحرت .. على أن الطريق واضحة أمامك .. ليس هناك الآن سوى ناليناكشا . إننى لا أكاد أفهم هذا الصنف من الناس ، وقد اعتدت أن لا أميل إلى ما لا أفهمه !.. ولكن معظم الناس على النقيض، يستهويهم ما لا يفهمونه وهذا هو سر خوفى على هيم . فلقد بدأ تطورها يزعجنى حين امتنعت عن شرب الشاى ، وعن تناول اللحوم والأسماك !.. ثم فقدت عيناها بريقهما القديم ، وأصبحت تبتسم فى هدوء ، ولو وبخها المرء بكلامه

على أننا نستطيع أن ننقذها قبل فوات الفرصة ، إذا أنت ساعدتنى . فهيا نتعاون فى الكفاح ضد النسك والتصوف ! » ..

فضحك رامش بينما استطرد جوجندرا : « كل ما علينا هو أن ننتظر حتى تبدأ عطلة عيد الميلاد » ، فقال رامش : « لا تزال أمامنا بضعة أيام، فهلا يحسن أن أسبقك ؟ » .. ولكن (جوجندرا) أجاب : « لا ، لن يكون هذا صواباً .. أنا الذى فسخت الخطبة ، وأنا الذى يجب أن يجاهد لإعادتها . لن أدعك تسبقنى وتستأثر بشرف الفوز .. إنك ضيفى للعشرة الأيام الباقية . لقد أقصيت عنى كل الناس هنا ، بمشاكستى ، ومن ثم فأنا فى حاجة إلى زمالة صديق . لأسترد حسن المعاشرة . لم يكن لدى ما يؤنسنى فى الليالى سوى عواء الذئاب . وقد أوحشنى سماع الأحاديث ، حتى إن صوتك ليبدو فى أذنى أعذب من الموسيقى ! »

الفصل السابع والأربعون

● كان النبأ الذى تلقاه (أكشاى) من (تشاندرا موهان) مادة لتفكير عميق . فقد راح يسائل نفسه : « ترى ما وراء هذا الأمر ؟ .. لقد كان رامش يمارس المحاماة فى غازيبور ، كما قال لتشاندرا ، فما الذى جعله يترك عمله ، ويجسر على أن يظهر بوجهه فى هذا الشارع ؟ .. إنه لن يلبث أن يتبين أن أنادا بابو وهمنالينى فى (بنارس) ، فيطير إلى ذلك المكان ! » . ومن ثم قرر أكشاى أن يرحل إلى (غازيبور) ليجمع ما يمكن أن يصل إليه هناك من أنباء ، ثم يتجه إلى (بنارس) ، حيث يقابل (أنادا بابو) .

وهكذا لم يلبث — بعد أيام — أن رؤى يهبط فى (غازيبور) فى أصيل يوم من أيام شهر ديسمبر وشرع يستدرج أصحاب المتاجر فى السوق ، سائلا عن عنوان محام من البنغال يدعى (رامش بابو) ، بيد أن مساعيه المرهقة أسفرت عن أن أحداً فى المنطقة لا يعرف محامياً بهذا الاسم . فعمد إلى السؤال فى المحاكم ، واستطاع أن يعرف أن ذلك (الرامش) كان يقيم بعض الوقت فى دار (العم) ، ولكن أحداً لا يعرف إن كان لا يزال هناك .. فقد اختفت زوجته ، ومن المعتقد أنها غرقت . ومن ثم يمم شطر بيت (العم) ، وهو يحدث نفسه : «الآن عرفت لعبة رامش .. لقد ماتت زوجته ، ولن يلبث أن يقنع همنالينى بأنه لم يتخذ يوماً أية زوجة . ولسوف تصدق (همنالينى) — فى حالها الحاضرة — أى شىء يقوله رامش . إن هؤلاء الطيبين متعبون حقاً! » . وهنأ نفسه على سعة تفكيره !

وما أن سأل أكشاى (العم) عن رامش وكمالا ، حتى عجز الرجل عن كبح عواطفه ، فتدفقت الدموع من عينيه ، وهو يقول : « أما وقد كنت صديقاً حميماً لـ(رامش بابو) ، فلابد أنك عرفت العزيزة كمالا معرفة وثيقة . لذلك لن يدهشك أن تعلم أننى لم أكد أعرفها يوماً ، أو يومين ، حتى نسيت تماماً أنها ليست ابنتى . وكيف كان بوسعى أن أتنبأ بأن تقدم فتاة رقيقة مثلها على توجيه مثل هذه الصدمة لشخص أسرت عواطفه فى مثل هذه الفترة الوجيزة ! » .. فقال (أكشاى) متظاهراً بالعطف : « إن الأمر كله يبدو متعذراً على الفهم ، ومن الواضح أن (رامش) ما كان ليستطيع أن يسىء معاملتها ! »

فقال الشيخ : « إن رامش صديق لك ، فلا تستأ إذا قلت لك إننى فى الواقع لم أستطع أن أفهم هذا الشاب . كان لطيفاً حقاً ، ولكن من المستحيل أن تعرف ما يدور بخلده ، ولابد أنه إنسان غير عادى ، وإلا فكيف يفسر المرء إهماله مثل تلك الزوجة الصغيرة الفاتنة ؟.. لقد كانت وفية له ، ولكن ابنتى تستطيع أن تجزم أن (كمالا) كانت تبدو فى بعض الأحيان مهمومة من أجل مسألة تكتمها فى نفسها .. لشد ما يحطم قلبى أن أتصور ما عانته فتاة مثلها من عذاب قبل أن تضع لحياتها مثل هذه الخاتمة . ولعل أقسى ما فى الأمر أننى كنت فى (الله آباد) . ولو أننى كنت هنا ، لما صدقت بأن قلبها يطيعها على أن تهجرنى ! »

وفى الصباح التالى ، اصطحب (العم) أكشاى إلى دار رامش ، كما زارا البقعة التى اختفت عندها كمالا . ولم ينبس أكشاى ببنت شفة ، حتى عادا إلى دار (تشاكرا بارتى) ، وإذ ذاك قال الشاب للشيخ : « أتعرف يا سيدى .. أننى لا أعتقد أن كمالا قد انتحرت فعلا بإغراق نفسها فى الجانجز » ، فقال العم : « وما رأيك إذن ؟ » . قال أكشاى : « إننى أميل إلى الأخذ بأنها فرت من البيت ، ومن الواجب أن نمعن فى البحث عنها » . وقفز العم من مكانه فى انفعال ، وهتف : « ربما كنت على حق !.. إنه أمر ليس ببعيد الاحتمال » .. فقال أكشاى : « إن بنارس ليست بعيدة عن هنا . وثمة أسرة كانت صديقة لـ(رامش) ولى ، تقيم هناك ، فلعلها لجأت إليها ! » ، فصاح العم : « كيف ؟.. إن رامش بابو لم يحدثنى قط عن هذا ؟ .. ولو عرفت ، لما توانيت فى السؤال

عنها هناك » . وإذ ذاك قال (أكشاى) : « بوسعنا أن نذهب معاً إلى بنارس ، وأنت خبير بهذا الإقليم ، ففى وسعك أن تقوم بكل التحريات الممكنة » .

وبادر (العم) إلى الموافقة . وما كان أكشاى ليطمع فى أن تصدقه (همناليني) ، ولكنه أيقن بأن شهادة (العم) كفيلة بأن تعزز أقواله ، فتتأكد همنالينى من خداع رامش . ومن ثم رحل الشيخ إلى (بنارس) دون أن يفطن إلى أنه اتخذ شاهداً لإثبات إدانة صديقه !

الفصل الثامن والأربعون

● كان أنادا بابو قد استأجر داراً فى مكان منعزل من الضاحية القائمة خارج المدينة . وكان عند وصوله إلى (بنارس) قد علم أن الحمى والسعال البسيطين اللذين أصابا (كشمنكارى) — أم ناليناكشا — قد تطورا إلى التهاب رئوى ، وضاعفت رطوبة الجو من وطأة الحمى ، كما ساعد على استفحالها تشبث السيدة بالاغتسال فى نهر (الجانجز) فى كل صباح ، وفقاً للتقاليد الدينية !.. على أن أخطر مراحل المرض لم تلبث أن ولت بفضل ما بذلته همنالينى من رعاية لا تهن . بيد أن المرض خلف السيدة العجوز فى ضعف شنيع . وهنا لم تكن لهمنالينى حيلة ، إذ كانت (كشمنكارى) متعصبة لتقاليد دينها ، فكانت ترفض أن تتناول الأدوية المقوية والأغذية التى وصفها الطب لها ، من يدى فتاة براهمية . ولقد اعتادت فى حياتها أن تطهو طعامها بنفسها ، فأصبح ناليناكشا — فى مرضها — يعد لها القوت ويقدم لها الوجبات جميعاً .

وكانت تأسى لهذا وتقول له : « كان ينبغى أن أموت منذ زمن .. لماذا شاء الرب أن يستبقينى على قيد الحياة ، ويجعلنى عبئاً عليك ؟ » .

ولقد كانت العجوز — رغم زهدها وتقشفها — دقيقة فى حرصها على أن توفر الجمال والنظافة فيما حولها ، وعلمت (همنالينى) من (نالليناكشا) بهذه الخصال ، فحرصت على أن تعنى بالبيت وتنظمه بنفسها . وكانت تهتم باختيار ثيابها إذا ما تأهبت لزيارة السيدة العجوز . وكان (أنادا بابو) يوافيها بالزهور ، التى اعتادت (همنالينى) أن تنسقها فى ذوق بديع حول فراش المرض .

وكان (نالليناكشا) يحاول أن يغرى أمه على أن تسمح باستئجار خادم للعناية بها ، إذ لم تكن تقبل أن تتلقى خدمة من أجير ! .. ومع أن البيت كان يضم عدداً من الخدم بالفعل ، إلا أن السيدة العجوز كانت تحرص على أن يقتصر عملهم على المهام الخشنة . أما الأعمال التى تتعلق بها شخصياً ، فكانت تأبى أن يقوم بها أجراء ، طبقاً لتقاليدها الدينية . وكانت مولعة بذوى الحسن من الأطفال ، من الجنسين . وفى أثناء عودتها من الاغتسال فى (الجانجز) ، فى كل صباح ، كانت لا تلبث — وهى ماضية تنثر الزهور والماء المقدس على كل صورة أو تمثال للإله (سيفا) — أن تلتقط ضبياً فلاحاً مليحاً ، أو فتاة براهمية بيضاء البشرة ، لتصحب هذه اللقية إلى البيت . وبفضل ما كانت تغدقه من لعب ، ونقود ، وحلوى ، استطاعت أن تكتسب قلوب أطفال الجيرة . وكان هؤلاء الصغار يقبلون على البيت فى بعض الأحيان ، فينتشرون فى أرجائه ، مما كان يبعث الاغتباط فى نفس السيدة العجوز

وكانت لها هواية أخرى ، تلك هى أنها لم تكن تمر بأية سلعة بديعة — مهما تكن تافهة الشأن — إلا وبادرت إلى شرائها ، لا لتدخرها كتحفة ، وإنما لتخلعها على واحد من أولئك الذين كانت تعرف أنهم يقدرون هداياها . وكثيراً ما كان أقرباؤها ومعارفها يتلقون لفافات ثمينة لا يعرفون مرسلها .. وهى صاحبتها فى الواقع ! .. وكانت تقتنى صندوقاً من الأبنوس تحتفظ فيه بعدد من الأساور البديعة ، والثياب الحريرية الجميلة ، استعداداً لتقديمها إلى الزوجة التى يبنى بها (نالليناكشا) يوماً ، وكان تصور هذه العروس يمد السيدة العجوز بأحلام بهيجة !

ومع أن (كشمنكارى) كانت حريصة على التزام الزهدوالتقشف إلا أنها كانت تعارض — فى شدة — حياة التقشف التى جنح إليها (نالليناكشا) ، وكانت ترى أن الإمعان فى هذا اللون من التصوف لا يليق بالرجال ، لأن الرجال — فى نظرها — كانوا مجرد أطفال كبار ومن ثم كانت تبدى إشفاقاً وتسامحاً نحو من يبدى منهم زهداً وتقشفاً فيما يتعلق بالطعام والشراب . وكانت تتساءل فى استنكار : « لماذا يقسو الرجل على نفسه ؟ » .. وما كانت لترضى عن تنكب التقوى ، ولكنها كانت ترى أن قواعد التزمت فيها لم توضع للرجال . ولو أن نالليناكشا أبدى شيئاً مما يبديه الشباب من نزق وأنانية ، لاغتبطت فى قرارة نفسها . وهالها — عندما غادرت فراش المرض — أن ألفت أن همنالينى لم تكن وحدها المتحمسة لتعاليم نالليناكشا ، وإنما شاركها أبوها الكهل فى ذلك .

ومن ثم انتحت بـ(همنالينى) جانباً، ذات يوم، وقالت ضاحكة:

« إنكما يا عزيزتى تشجعان (نالينا كشا) فى تزمته الأحمق ، لماذا تلقين – أنت بالذات – بالا إلى اللغو الذى يقوله ؟ .. إن فتاة فى مثل سنك يجب أن تستمتع بالحياة كل استمتاع ، وأن تتجه بفكرها إلى الثياب ، وإلى اللهو لا إلى الدين ! وقد تقولين : لماذا لا أفعل أنا ما أوصيك به. على أن لى عذرى الخاص ، فإن أبوى كانا شديدى التعصب ، وقد نشأنا – فتياناً وفتيات – فى جو من التقوى المتزمتة . ولو أننا غيرنا عاداتنا ، لارتبكت حياتنا . أما أنت فقد كانت نشأتك تختلف ، وإنى لأرى أن كل امرئ خليق بأن يتبع ما فطر عليه فى مثل هذه المسائل . يجب أن تكفى يا عزيزتى عن تقشفك ، فإن الصلاة والصوم لا يناسبانك وما صار نالينا كشا واعظاً وصاحب تعاليم إلا منذ عهد قريب ، وكان قبل ذلك يسير وفق هواه . ولعله ما اتجه هذا الاتجاه إلا إرضاء لى ، وأخشى أن ينتهى يوماً إلى الجموح والانطلاق ! »

* * *

● جرى هذا الحديث عصر ذات يوم ، والسيدة العجوز منهمكة فى تنسيق شعر (همنالينى)، إذ لم ترض عن البساطة التى عقصت بها الفتاة شعرها . وعادت تقول : « قد تعتقدين أنى من طراز عتيق يا عزيزتى وأننى لا أدرى شيئاً عن آخر المبتكرات فى هذا الصدد . ولا أظننى مغرورة إذا قلت أنى أعرف أكثر مما تعرفين . ولقدكنت أعرف يوماً سيدة إنجليزية لطيفة ، اعتادت أن تأتى فتلقى دروساً فى الحياكة ، وقد علمتنى الكثير عن تنسيق الشعر كذلك . وكنت بطبيعة الحال أغتسل

بعد انصرافها وأستبدل ثيابى[1] بعد كل من هذه الزيارات .. هكذا نشأت ! .. لقد كانت صدمة مروعة لى أن كف أهل زوجى عن أن يكونوا من الهندوكيين الأتقياء ، ولكننى لم أعترض أو أحتج . كل ما قلته هو : ليطع كل ضميره ، وأنا امرأة جاهلة ، وليس بوسعى أن أتحول عما اعتدت » .

وكانت العجوز تجد متعة فى أن تبسط شعر همنالينى ثم تعود فتعقصه وتجدله على نمط حديث . بل إنها لم تلبث أن فتحت صندوقها الأبنوسى وأخذت تستمتع بأن ترى الفتاة فى الثياب البراقة التى كانت تدخرها لعروس ابنها !

كذلك كانت (كشمنكارى) مولعة بقراءة الروايات البنغالية ، فحملت إليها همنالينى كل ما كانت تقتنى من كتب ومجلات . وكانت الفتاة تعجب من دقة تعليقات المرأة العجوز على القصص والمقالات ، مما لا يتسنى إلا لسيدة إنجليزية التربية . وقد ساعدت لباقة الحديث – مع التقوى – على إظهار أم نالينا كشا كسيدة جد رائعة فى نظر همنالينى ، فكان الكلام معها مبعث غبطة وسرور للفتاة !

(١) ترى بعض الطوائف الهندوكية أن أبناء الطوائف الأخرى غير طاهرين ، وأن مجرد الاجتماع بهم يجلب الدنس ، ولذلك يتطهرون عقب لقائهم !

الفصل التاسع والأربعون

● لم تلبث كشمنكارى أن وقعت صريعة الحمى من جديد ، ولكن هذه النوبة لم تكن طويلة المدى كسابقتها . وفى ذات صباح — أثناء فترة النقاهة — أقبل (نالينا كشا) فحياها كما ينبغى أن يحيى الابن الصالح أمه . إذ مس قدميها فى احترام . ثم أخذ يهيب بها أن تسمح بأن تتلقى ما ينبغى لمريضة مثلها أن تتلقاه من علاج ، وأن تتخلى عن تقشفهـا المفرط .. فصاحت العجوز : « أفتريدنى على أن أنبذ عاداتى القديمة ، فى الوقت الذى تنبذ أنت فيه الدنيا .. ليس بوسعك يا عزيزى نالين أن تمضى على هذا النسق . ألا افعل ما توصيك به أمك . فتزوج ! » .. وسكت نالينا كشا . ولكن كشمنكارى مضت تقول : « إنك لتعلم يا عزيزى أن جسدى العتيق لن يعيش طويلا . ولن أموت هانئة إلا إذا كنت متزوجاً . لقد مرت بى فترة من الزمن كنت أتطلع فيهـا إلى زواجك من فتاة صغيرة أستطيع أن أعلمها بنفسى . ولكن عينى تفتحتا خلال نوبة المرض الأخيرة . فلم أعد أدرى إلى أى أجل أعيش . ولم يعد من المضمون أن يطول عمرى . وليس من الإنصاف أن أتركك بين يدى فتاة غير ناضجة . ومن ثم يحسن بك أن تتزوج فتاة تضارعك فى السن . لقد كنت أقضى الليل مسهدة — خلال مرضى — أفكر فى هذا . لأنى أشعر كل الشعور بأن هذا هو آخر واجب أدين لك به . ولابد لى من أن أعيش كى أؤديه . وإلا فلن أموت قريرة البال ! » .. فسألهـا نالينا كشا : « ولكن . أين لى بالفتاة التى تسعد بالاستقرار معى

فى حياة واحدة ؟ » .. فقالت : « لا تشغل بالك ، فسأدبر كل شىء » . ولم تكن كشمنكارى قد قابلت أنادا بابو شخصياً ، إذ كانت تلزم مخدعها كلما زار البيت . ولكنها أعربت عن رغبتها فى مقابلته عنـدما أقبل فى ذلك المساء ؛ فسرعان ما اقتيد إليها . وبادرت إلى مفاتحته فيما أرادت ، إذ قالت : « إن ابنتك جد فاتنة ، وإنى لجد مشغوفة بهـا . ثم أنكما تعرفان ابنى نالين ، فليس فى مسلكه ما يعيب ، كما أن سمعته ذائعة فى مهنته . أفلا ترى معى أن من العسير أن ترى زوجاً أفضل منه لابنتك ؟ » . فهتف الرجل : « أحقاً تعنين هذا !؟ .. ما جرؤت على أن أتمنى شيئاً كهـذا .. إننى لأعتبر نفسى حقاً محظوظاً إذا ما كان نالينا كشا زوجاً لابنتى .. ولكن ، ما رأيه هو ؟ » . قالت : « لسوف يوافق نالين ، فهو على العكس من معظم شبان العصر الحاضر ، ينصاع لما تطلبه إليه أمه . ثم إن أحداً لا يملك إلا أن يحب ابنتك العزيزة . على أننى أحب أن تتم خطبتهمـا فى أقرب وقت ممكن ، فقد لا يطول بى العمر ! »

وعاد (أنادا بابو) وقد استخفه الفرح ، فاستدعى (هيم) ، وقال لهـا : « إننى كهل يا عزيزتى ، وصحتى ليست بالجيدة ، ولن أختم أيامى بسلام ما لم أطمئن إلى حياتك . فدعينى أصارحك يا هيم : لقد فقدت أمك ، فاضطلعت وحدى بأعبائك .. وكل ما أخشاه أن يحدث ما يحول دون أن أستمر فى ذلك . وقد خطبتك أم نالينا كشا لابنها الليلة ! » . وتضرج وجه همنالينى ، وقالت متلعثمة : « كيف ؟.. هذا مستحيل !.. نالينا كشا !.. كيف يمكن هذا ؟ » .. ولاذت الفتاة بالشرفة تفكر فى

الأمر . وتحطمت آمال أنادا بابو ، فما كان يتوقع هذه المعارضة ، بل ظن — مطمئناً — أن ابنته ستسر بخطبتها إلى (ناليناكشا) . وراح الكهل يتأمل ذبالة المصباح المتراقصة ، وهو مشدوه ، يعجب من طباع الأنوثة ، ويرى فيها لغزاً مستعصى الحل .

وجلست همنالينى فى الشرفة المعتمة ، وهى لا تفطن إلى مرور الساعات . وأخيراً ، حانت منها التفاتة إلى داخل الغرفة ، وما أن رأت أمارات الأسى على وجه أبيها ، حتى تمرد عليها ضميرها ، فأسرعت ووقفت خلف مقعده ، تمسح رأسه متمتمة : « هيا يا أبت ، لقد أعد عشاؤك منذ زمن ، ولابد أنه برد » . ونهض (أنادا بابو) بحركة آلية ، فسار إلى قاعة الطعام ، ولكن نفسه عافت العشاء : كان قد اطمأن إلى أن الغيوم انقشعت عن حياة همنالينى ، فأسرف فى تخيل آمال المستقبل ، ومن ثم كان رفضها الخطبة مبعث أسى مرير له : وقال لنفسه آسفاً : « إذن ، فهمنالينى لم تنس رامش بعد ! »

وكان من عادته أن يأوى إلى فراشه بعد العشاء مباشرة ، ولكنه فى ذلك المساء تلكأ ، واستلقى فى مقعد قماشى فى الشرفة ، مسرحاً بصره فى الحديقة : وراحت همنالينى تتحايل لتحمله على أن يأوى إلى سريره ، حتى نهض أخيراً وسار إلى مخدعه صامتاً . وكانت همنالينى قد قررت فى حزم أن تقصى رامش عن بالها ، حتى لا تحيد عما أخذت به نفسها من تقشف وإنكار للذات .. ولقد كبدها هذا صراعاً نفسياً قاسياً . ولم يكن الأمر يتطلب أكثر من صدمة خارجية كى يعود الجرح إلى النزيف ! كانت قد عانت حيرة بالغة فى تدبر مستقبلها والمسلك الذى

تنتهجه ، فلما استقرت فى النهاية على أن ترى فى ناليناكشا رائداً روحياً وأن تكيف حياتها وفقاً لتعاليمه ، ظنت أنها تخلصت من حيرتها : فلما جاء حديث هذا الزواج ، وحاولت أن تجتث الحب القديم من منبته ، تبينت أنه أمنع من أن يجتث !.. كان مجرد احتمال قطع الرباط القديم أدعى لأن تتشبث به (همنالينى) فى استماتة وعزم أكثر من ذى قبل !

الفصل الخمسون

● أرسلت كشمنكارى — فى تلك الأثناء — تستدعى ناليناكشا ، ثم أفضت إليه بأنها عرضت مشروعاً لزواجه ، وأن الخطبة لقيت قبولا ، فابتسم قائلا : « هل دبرت كل شىء نهائياً ؟.. ما أسرعك ! » : قالت : « أجل ، فإننى لن أعمر مدى الدهر . لقد أعجبت جداً بـ(همنالينى) فهى فتاة فذة . صحيح أن شكلها ليس غاية فى الجمال ... » . فقال : « اعفينى من هذا يا أماه ، فلست أفكر فى شكلها ، وإنما أنا أفكر فى استحالة زواجى منها .. لا أستطيع حقاً ! » .. فهتفت : « لا تهرف !.. لست أرى ما يمنع ! » . ولم يكن من السهل على ناليناكشا أن يصوغ أسباب معارضته ، ولكن هذا هو ما جال بخاطره فى صمت : « لقد كانت همنالينى فتاة قام بدور المرشد الدينى لها ، فكان مجرد التفكير فى أن يتحول إليها فجأة ليعرض عليها الزواج ، أمراً مستهجناً » ولكن أمه حملت صمته على محمل القبول ، فشرعت تقول : « لن أقبل أى اعتراض فى هذه المرة . كأنى بك مصر على أن تنبذ الدنيا وتصبح ناسكاً من أجلى . هذا عبث لم أعد أقبله ، فلا تدع الفرصة تفلت من

يديك فى هذه المرة . ولابد من أن تنفذ المشروع فى أول يوم سعيد الطالع ! »

ومضت فترة قبل أن يجرؤ نالليناكشا على أن يقول : « هناك أمر لابد من أن أصارحك به يا أمى . ولكنى أستحلفك أن لا تكربى أو تحزنى . إن ما سأقصه عليك قد وقع منذ تسعة شهور أو عشرة ، فمن غير المجدى أن تأسى عليه الآن . ولما كنت أعرف أنك تجزعين من المصاب ، حتى بعد حدوثه ، فقد أشفقت أن أروى لك هذه القصة من قبل ! » ..

وأزعج كشمنكارى حديثه ، فقالت : « لست أدرى ما الذى تزمع قوله يا بنى ، ولكن المقدمة تجعلنى أتوقع أسوأ الاحتمالات : فهات ما عندك ، ولا تهتم إذا كان النبأ طيباً أو سيئاً » : ومن ثم شرع نالليناكشا يقول : « لقد بعت فى فبراير الماضى عيادتى فى رانجبور ، وأجرت بيتى ، واتجهت إلى (كلكتا) . فلما بلغت نقطة عبور النهر عند (سارا) ، خطر لى أن أتحول عن السفر بالقطارات ، وأن أتم الرحلة عن طريق النهر . ومن ثم استأجرت قارباً ريفياً ، حتى إذا قضينا يومين فى النهر ، رسونا عند جزيرة نهرية ، فهبطت إلى البر ، وإذا بى ألتقى بصديقنا القديم (بوبن) يحمل بندقية . وظهر أنه كان (نائب حكمدار) المنطقة ، وأنه كان فى جولة تفتيشية . ولما كنا لم نلتق منذ سنوات ، فقد رفض أن يتركنى ، وأصر على أن أرافقه فى جولته . وفى ذات يوم هبطنا قرية (دوبا بوكور) ، وانطلقنا نجوس خلالها . وما لبث (بوبن) أن قادنى فجأة إلى ساحة ذات سياج تتصل ببيت يقوم على حافة أرض

محروثة ، وأحضر لنا صاحب الدار مقاعد ، وجلس معنا . وما لبث الرجل — وكان يدعى (تادينى تشاتورجى) — أن استدرج (بوبن) حتى عرف جلية أمرى وسيرتى :

وفيما كنا عائدين إلى معسكرنا ، قال بوبن : « إنك اليوم محظوظ فلن تلبث أن تتلقى عرضاً للزواج .. إن هذا التارينى تشاتورجى مراب لم يخلق من هو أبخل منه . وقد كانت له أخت خلفها زوجها — عند موته — معدمة ، فأواها تارينى . وكانت حاملا .. ثم ماتت بعد أن وضعت ابنة . وكان موتها نتيجة حرمانها من الرعاية الطبية . وكانت له أخت أرملة أخرى تقوم بأعباء البيت ، وتوفر عليه أجر الخادم ، فتولت المسكينة أمر الطفلة اليتيمة ، ولكنها ما لبثت بدورها أن ماتت بعد سنوات . ومنذ ذلك الحين ، عاشت الفتاة عيشة الكلاب ، تعمل كالجارية فى خدمة خالها وزوجته ، دون أن تحظى بغير الجحود : ولقد أوشكت أن تجتاز سن الزواج ، ولكن من العسير أن نعثر على زوج ليتيمة لا حول لها ولا نصير ، لا سيما وأن أحداً من أهل القرية لا يعرف أبويها . ثم إنها ولدت بعد موت أبيها ، مما أثار الأقاويل فى القرية حول أصلها !

ولما كان (تارينى تشاتورجى) يتقلب فى الثراء ، فقد عمد أهل القرية إلى تحقير الفتاة ، ليحملوه على أن يجزل العطاء ويمنحها (دوطة) كبيرة فى سبيل تزويجها . ولقد كان — منذ أربع سنوات — يزعم أنها فى العاشرة ، فلو حسبنا هذه الفترة ، لوجدنا أنها الآن فى الرابعة عشرة من عمرها على الأقل : ومع ذلك ، فهى أجمل فتاة رأيتها . إنها تدعى

(كمالا) ، تيمناً بالربة (لاكشمى) ، وأنها لأكمل صورة لمعنى اسمها ! وكلما وفد شاب براهمى على القرية ، ركع تارينى أمامه ، ضارعاً إليه أن يتزوج منها ، ولكن شائعات القرية لا تلبث أن تنفر الشاب ولو كان راغباً . وها قد حان دورك ! » .. وكنت إذ ذاك يا أماه فى حال لا يعلم بها إلا الشيطان ، فبادرت قائلا دون ما تفكير : « حسناً ، سأتزوج من الفتاة ! » .. مع أنى كنت دائماً أتوق إلى أن أفاجئك بزوجة هندوكية ، إذ كنت أوقن أن أحداً منا لن يسعد إذا تزوجت من براهمية وذهل (بوبن) وصاح : « ما أظنك جاداً ! » . فأكدت له أننى جاد .. وفى ذلك المساء زار معسكرنا تارينى ، وراح يعرض على الفتاة وهو يضم يديه إلى صدرى ضارعاً على طريقة البراهمة . وتقرر أن يتم الزواج فى اليوم بعد التالى . وكان من الطبيعى أن يدرك المرء سر ضراعته ، وتعجله . كان يريد أن يتفادى الإنفاق على الفتاة ، وإقامة حفل عرس لها . وتم الزواج فى الموعد ! » . فصاحت (كشمنكارى) فى جزع ! أحقاً تم الزواج ؟ .. أجاد أنت ؟ » . فقال (نالليناكشا) : « كل الجد يا أماه . وعدت إلى قاربى بعروسى ، ثم أقلعنا بعد ظهر اليوم التالى للعرس . وكنا قد أصبحنا فى شهر مارس . وفى مساء ذلك اليوم ، ولما ينقض على رحيلنا أكثر من ساعتين ، انقضت علينا ريح لافحة قلبت القارب بطريقة ، لا أدرك كنهها ، وغيبت كل أثر له ! »

وصاحت كشمنكارى مذعورة : « يا للسماوات الرحيمة ! » .: فقال نالليناكشا : « وعندما أفقت ، وجدت نفسى أكافح التيار ، ولا أثر هناك للقارب أو ركابه . وأخطرت البوليس ، فقام ببحث دقيق

دون ما ثمرة ! » . واكفهر وجه الأم ، وقالت : « ما فات قد مات ، فلا تذكره ثانية » .. فقال : « ما كنت لأروى لك هذا يا أماه ، لولا إصرارك على زواجى » . فهتفت : « وكيف تمنعك هذه النكبة عن الزواج ؟ » .. قال : « ربما كانت الفتاة قد نجت . وهذا ما يصدنى عن الزواج » . وصاحت (كشمنكارى) : أمجنون أنت؟ .. لو أنها كانت على قيد الحياة ، لسمعت عنها » . فقال : « ولكنها لا تعرف عنى شيئاً ، لأنى كنت غريباً عنها ، وما أظنها عرفت ملامحى . ولقد كتبت إلى (تارينى) عندما وصلت إلى (بنارس) ، ولكن رسالتى لم تصل إلى يديه ، إذ ردت إلى ، لأنه مات ! . وقد قررت أن أنتظر عاماً ، قبل أن أعتبرها ميتة ! » . فقالت فى لوم : « إنك دائماً تعقد الأمور . لماذا تتريث عاماً بأكمله ؟ » . قال : « لن يلبث العام أن ينتهى يا أماه ، فنحن فى شهر ديسمبر : ولما كان الشهر الذى يليه منحوساً ، بالنسبة للزواج ، لذلك لن يبقى سوى فبراير ، ثم ينتهى العام فى مارس » .

قالت (كشمنكارى) : « جميل جداً .. إذن فاعتبر نفسك خطيباً لـ(همنالينى) ، وقد طلبت يدها رسمياً من أبيها » . فقال نالليناكشا : «إن العبد يدبر ، ولكن هناك من يدبر فوق تدبيره ، فلندع الأمر له ! » .: قالت : « فليكن !.. ولكن ، ما أرهب ما رويت لى يا عزيزى ! » . قال : « ولعلك فهمت الآن سر ترددى فى إنبائك بالقصة » :

الفصل الحادى والخمسون

● كانت شمس ديسمبر القصيرة العمر قد هبطت إلى حافة السماء الشاحبة ، عندما بلغت (كمالا) ضفة نهر (الجانجز) ، فأدت الفتاة للشمس تحية الغروب ، ونثرت بعض قطرات من ماء النهر المقدس على رأسها ، ثم خاضت فى مجرى النهر ، مغترفة من مائه ، ناثرة الزهور على صفحته . وانحنت إجلالا لكافة القوى السماوية ! وفيما هى ترفع رأسها ، تذكرت كائناً آخر تدين له بالإجلال والتوقير .. إنها لم تجرؤ قط على أن تتفرس فى وجهه . وما وقعت عيناها — طوال الليلة الوحيدة التى قضتها إلى جواره — على وجهه ، بل ولا على قدميه . لقد سمعته يقول كلمة أو اثنتين لمن رافقوها إلى غرفة الزفاف ، ولكن صوته لم يكد ينفذ خلال حجابها ، ولا خلال تحفظها وصدها : وأخذت تحاول جاهدة — وهى تقف على حافة النهر — كى تذكر صوته ، ولكنها لم توفق ! .. كان الزفاف بمراسمه قد امتد إلى ساعة متأخرة من الليل ، وكانت منهوكة القوى ، فانقض عليها النعاس بغتة . واستيقظت فى الصباح التالى ، لترى جارة شابة متزوجة تهزها لتوقظها وهى تضحك . وألفت نفسها وحيدة على أريكة فى المخدع .

أجل ، كان السيد الذى تربع على عرش حياتها كالكتاب المغلق بالنسبة لها ، فهى لا تكاد تذكر وجهه ، ولا صوته ، ولا ملامحه .. لا شىء قد علق بذاكرتها !

وكان الخطاب الذى كتبه رامش لـ(همنالينى) لا يزال مربوطاً إلى طرف من ثوبها ، فجلست على رمال الشاطئ ، وأعادت قراءة صفحة

منه على ضوء الغسق . كانت تلك الصفحة هى التى تضمنت ذكر زوجها ، فلم تجد شيئاً عنه اللهم إلا أنه كان يدعى (نالينا كشا تشاتوباديای) ، وأنه كان طبيباً فى (رانجبور) ، وأن رامش لم يستطع أن يعثر له على أثر . نالينا كشا ! .. كأنما كان الاسم بلسما لجراح نفسها ! .. بل خيل إليها أنه يملأ قلبها حتى ألا تراع . وانهمرت الدموع مدرارة من عينيها ، فخففت من وطأة أساها . وهتف صوت فى أعماقها : « لقد امتلأ الفراغ ، وانجاب الظلام . الآن عرفت أننى الأخرى جزء من العالم الحى ! » .. وهتفت من أعماق فؤادها : « إذا كنت زوجة صادقة له ، فلا بد لى من أن أعيش لأسجد عند قدميه . إننى لن أفقد الأمل فى العثور عليه ما امتد بى العمر . ما أنقذنى الرب من الموت ، إلا لأعيش وأخدمه ! » . وتناولت حزمة المفاتيح فرمتها بعيداً . وتذكرت أنها تضم طرفين من ثوبها بقلادة أهداها إليها رامش ، فخلعتها هى الأخرى ، وألقت بها فى الماء . ثم تحولت نحو الغرب ، وسارت دون أن تكون لديها فكرة واضحة عن وجهتها ، ولا عن الطريقة التى ستسلكها فى البحث عن رجلها ! .. كل ما كانت تعرفه هو أن لابد لها من أن تمضى قدماً ، وأن لا تتلكأ لحظة حيث كانت !

وسرعان ما خبا الشفق من سماء الشتاء ، وبدت حافة النهر الرملية متلألئة بوميض خافت فى غمرة الظلام ، وكأنما محا رسام ما معالم المنظر الذى كان قد رسمه ، ولم يترك سوى صفحة اللوحة الخالية من كل لون ! .. وكانت السماء التى غاب قمرها ، وبدت نجومها غير متألقة ، تحنو على ضفة النهر الصحراوية فى حنان : ولم يكن فى وسع كمالا أن تتبين



وكانت تقف الى جوارها امرأة مسنة ، تمطرها بأسئلة باللغة البنغالية ..

أمامها سوى فضاء موحش ، مهجور ، لانهاية له . ولكنها كانت تدرك أن لابد لها من المضى قدماً ، فلم تتوقف لتفكر فيما وراء سيرها هذا . على أنها قررت أن تتبع ضفة النهر ، حتى يعفيها هذا من الحاجة إلى السؤال عن طريقها ، وحتى إذا تهددها خطر ، لاذت بصدر (الجانجز) الحانى العطوف ! .. وكان الظلام يلف كمالا ، ولكنه لم يكن مدلهماً بدرجة تحرمها من الرؤية . وكانت الذئاب تخرج خلال الليل من حقول القمح : وتروح تعوى بأصوات رهيبة . وبعد ساعات ، تبينت أن الأرض المنبسطة انتهت بها إلى ضفة عالية ، وأن الرمال أفضت بها إلى أرض زراعية . واعترضت طريقها قرية ، ولكنها حين اقتربت منها بقلب واجف ، تبينت أن أهلها فى نوم عميق : وبدأت قواها تخور ، فدرات حول القرية فى إعياء ، وصعدت إلى قمة ما بدا لها كثيباً مهجوراً ، ثم تهالكت تحت شجرة ، ونامت نوم المرهقة المكدودة .

وعندما استيقظت قرب الفجر ، كان القمر قد بزغ واهناً ، فبدد بعض الظلمة . وكانت تقف إلى جوارها امرأة مسنة ، تمطرها بأسئلة باللغة البنغالية : « من أنت ؟ .. ما الذى تفعلينه هنا ؟.. وكيف تنامين تحت شجرة فى ليلة باردة كهذه ؟ » .. وأجفلت كمالا مذعورة ،فتلفتت حولها ، وإذا بها ترى مرساة استقرت فيها مركبان من مراكب نقل البضائع . وكانت السيدة العجوز مسافرة على إحداهما ، وقد نهضت مبكرة لتغتسل قبل أن يستيقظ مرافقوها . وعادت المرأة تسألها : « يبدو أنك بنغالية .. ألست كذلك ؟ » ، فأجابت : « بلى » ..فسألتها : « وماذا تفعلين هنا ؟ » .. فقالت : « كنت فى طريقى إلى بنارس ،

فدهمنى النوم فى أواخر الليل » .. صاحت المرأة : « يا للعجب ! .. تسافرين إلى بنارس على قدميك ؟ .. يحسن بك أن تصعدى إلى تلك المركب ، وسألحق بك بعد أن أغتسل » ..

وبالفعل ، لم تلبث السيدة المسنة أن لحقت بها ، وأخذت تحدثها عن نفسها ، فعرفت كمالا أنها تدعى (نابينكالى) ، وأن زوجها يدعى (موكوندالال داتا) ، وأنهما ينتميان إلى طائفة (الكايستا) ، ومن أبناء (البنغال) ، ولكنهما يقيمان مؤقتاً فى (بنارس) . ثم تحولت (نابينكالى) تسألها عن اسمها ، وقالت : « أراك تلبسين خلخالا من حديد ، إذن فزوجك حى ؟ » .. فأجابت كمالا : « لقد اختفى صبيحة زفافنا » . فهتفت السيدة : « ما رأيت رجلا يفعل ما فعل ، لاسيا وأنك تبدين صغيرة ! .. لا يمكن أن تكونى قد تجاوزت الخامسة عشرة ! » .. وأخذت تفحصها من رأسها إلى قدميها ، بينما قالت كمالا : « لست أدرى عمرى تماماً ، ولكنه لابد أن يكون حوالى الخامسة عشرة ! » . وعادت نابينكالى تسألها : « إنك براهمية .. ألست كذلك ؟ » ، فأجابت : « بلى » .. قالت : « وأين يعيش قومك ؟ » ، فقالت كمالا : « ما ذهبت قط إلى موطن زوجى . أما أبى ، فقد كان من بيسوكالى . على أن أبى وأمى قد ماتا » . فهتفت السيدة : « وما الذى تنتوين عمله ؟ » .. فأجابت كمالا : « لست أرجو سوى سقف يظلنى ، ووجبتين فى اليوم . فإذا وجدت قوماً طيبين فى بنارس يكفلون لى هذا ، عملت بنفقات إقامتى . فأنا أجيد الطهو » .

* * *

• واغتبطت (نابينكالى) فى سريرتها لما بدا لها من أنها ستحظى بخدمات طاهية براهمية بغير مقابل . على أنها حرصت على أن تخفى فرحها ، قائلة : « لسنا بحاجة إليك ، فلدينا خدمنا ، فضلا عن أننا لا نستطيع أن نستخدم شخصاً لاميزات له سوى أنه براهمى .. ولكنى لا أستطيع أن أتركك فى ضيقك وأنت براهمية ، وفتاة ، لذلك فقد يكون من الأفضل لك أن تصحبينا على أية حال . إن لدينا عدداً كبيراً من الأفواه التى تنشد القوت ، كما أننا نلقى الكثير من فضلات طعامنا ، فلن يضيرنا أن نعول شخصاً فوق من نعول . ولن تجدى العمل مرهقاً ، إذ لا يقيم الآن فى دارنا سواى وزوجى ! .. لقد زوجت كل بناتى ، ولم يعد لنا سوى ابن عين أخيراً (حكمداراً) فى (سيراجحانج) ، وقد تلقينا من الحكومة قرار تعيينه منذ شهرين » .

وانطلقت السفينتان ، تدفعهما الريح سراعاً ، فوصلتا (بنارس) بعد ساعات قلائل ، فانتقل القوم إلى منزل ذى طابقين ، فى حديقة بإحدى الضواحى القائمة فى أطراف المدينة . ولم تر كمالا أثراً لطاه براهمى ، ولا لأكثر من خادم واحد ، على نقيض ما زعمت السيدة ! .. وحتى هذا لم تلبث (نابينكالى) أن سرحته بعد أيام ، دون أن تنقده أجره . واضطلعت كمالا بكل أعباء المطبخ ! .. ولم تضن نابينكالى عليها بالنصح ، فكانت تقول لها : « إنك لتعلمين يا عزيزتى أن بنارس مدينة موبوءة بالنسبة للفتيات أمثالك ، ومن ثم يجب أن لا تبرحى الدار وحيدة . ولسوف أصطحبك إذا ما ذهبت إلى (الجانجز) للاغتسال ، أو إذا ذهبت لأتعبد إلى الإله بيسويسوار » ! .. واتخذت كل احتياط

حتى لا تفلت كمالا من مخالبها ، فلم تتح للفتاة فرصة تلتقى فيها بأحد من جنسها ولا من عنصرها ، وكانت أعمال البيت تستغرق كل نهارها ، بينما تنصت فى المساء إلى نابينكالى وهى تحدثها عن النفائس والمجوهرات والذهب والفضة التى منعها الخوف من اللصوص من أن تحضرها إلى (بنارس) !

وكانت تقول : « إن زوجى لم يعتد قط أن يتناول طعامه فى أطباق من نحاس ، وكان فى البداية يزمجر غاضباً ويقول : « وما قيمة أن يسرق أحد بضعة تحف من ثروتنا ؟ .. فى وسعنا أن نعوضها بسواها ! » .. ولكننى لم أوافقه قط على هذا التبذير .. إن لنا فى بلدنا الأصلى بيتاً هائلا ، وحشداً من الخدم ، أكثر مما أستطيع إحصاءهم ! .. ولكنا لا نستطيع أن نصطحب عشرين أو ثلاثين خادماً أينما ذهبنا » .. وهكذا كانت تمضى فى أكاذيبها !

الفصل الثانى والخمسون

● كانت حياة (كمالا) فى دار (نابينكالى) تشبه حياة سمكة حبيسة فى بركة ضحلة موحلة ، ولم يكن لها من خلاص إلا فى الفرار ، ولكن الفرار كان أمراً مستبعداً ، ما دامت لا تعرف له غاية . فان تجربتها الأخيرة علمتها كيف تبدو الدنيا ــ خارج جدران الدور ــ رهيبة فى الليل ، فكانت تحجم عن أن تسلم نفسها مرة أخرى لقبضة المجهول . وكانت (نابينكالى) من ناحيتها مغرمة بـ(كمالا) ، ولكن .. على طريقتها الخاصة ، فكان عطفها يتخذ أشكالا بغيضة . كانت قد ساعدت الفتاة

فى وقت المحنة ، ولكنها ــ بتصرفاتها ــ جعلت كمالا لا تكاد تشعر بشىء من العرفان ، وحملتها على أن تؤثر أعمالها فى خدمة البيت ، على سويعات الفراغ المضجرة ، التى كانت تضطر إلى قضائها فى صحبة السيدة . وفى ذات صباح ، استدعتها السيدة العجوز وراحت تلومها على الإسراف فى استعمال المسلى . ولم تكن كمالا تجيب قط على أى تأنيب ، بل اعتادت بعد كل تقريع أن تعود فى هدوء إلى عملها ، وكأنها لم تسمع شيئاً . ولكن لهجة السيدة فى ذلك الصباح أصابت من قلبها مرمى ، فظلت كمالا مهمومة تفكر وهى عاكفة على تنظيف الخضر . وكانت قد انتهت إلى أن الدنيا مكان خلو من البهجة ، وأن الحياة عبء ثقيل ، حين التقطت أذناها كلمات استرعت انتباهها . فقد استدعت (نابينكالى) حارس البيت ، وراحت تصدر إليه أمراً : (اسمع يا تولسى .. اهرع إلى المدينة واستدع الدكتور (نالينا كشا) فوراً ، وقل له أن مولاك متوعك ! » .

نالينا كشا ! .. وتراقص شعاع الشمس أمام عينى كمالا كأنه أوتار قيثارة تعزف عليها أصابع خفية : وألقت الخضر من يديها ، ووقفت لدى باب المطبخ فى طريق (تالوسى) ، فما أن أقبل ليذهب إلى مهمته ، حتى سألته عن وجهته ، فقال : « إننى ذاهب لأستدعى الدكتور نالينا كشا » . وسألته : « ومن يكون ؟ » .. قال : « إنه خير طبيب فى المدينة ! » .. وعادت تسأله : « وأين يقيم ؟ » ، فقال : « فى المدينة .. على بعد ميل من هنا » . وكانت كمالا قد اعتادت أن توزع على من يكون فى البيت من خدم ، كميات قليلة من الغداء الذى يتبقى بعد أن يشبع سيدا الدار نهمهما .

وعلى الرغم مما كانت تلقاه من تقريع نابينكالى وخشونتها ، فإنها لم تكن ترعوى عن هذه العادة ، مما حببها إلى الخدم ، وجعلهم (عبيداً) مختارين لها . وانبعث صوت رفيع من أعلى السلم صائحاً : « ماذا تدبر عند باب المطبخ يا تولسى ؟.. أتظن أننى لا أراقبك ؟.. ألا تستطيع أن تذهب إلى المدينة دون أن تستشير الطاهية أولا ؟ .. لا عجب إذن ، إذا كانت أشياء كثيرة تختفى من الدار ! اسمعى أيتها الشابة ، تذكرى من فضلك أننى التقطتك من الطريق وآويتك ، أفهذا جزاء الإحسان ؟ » ..

كانت تؤمن بأن كل من فى البيت يتآمرون لسلبها . على أن ثورتها لم تلق من كمالا فى هذه المرة سوى إذن صماء ، فواصلت الفتاة عملها وقد تزاحمت السحب فى رأسها . ثم عادت إلى باب المطبخ تنتظر عودة (تولسى) . وجاء أخيراً ، ولكنه كان وحيداً ، وسألته عن الطبيب ، فقال أنه لم يستطع الحضور لأن أمه مريضة ، فهتفت : « أمه ؟ .. أليس لديه من يعنى بها ؟ » ، قال : « لا لأنه غير متزوج ! » . وانبعث إذ ذاك صوت السيدة ، فأسرعت كمالا إلى داخل المطبخ ، وهرع (تولسى) إلى السيدة .

واستبدت الشكوك بـ(كمالا) .. نالينا كشا .. وكان يمارس الطب فى رانجبور ! .. لذلك لم يكد تولسى يظهر مرة أخرى ، حتى سألته عما إذا كان الطبيب براهمياً ، فلما رد بالإيجاب ، سعت (كمالا) لفورها إلى نابينكالى ، وأنبأتها بأنها قد فرغت من عملها ، وأنها تريد أن تذهب للاغتسال فى النهر عند (داساسواميد غات) ، فقالت

السيدة : « هذا لا يليق ، فزوجى مريض ، ولا يدرى أحد ما قد يحتاج إليه ، ولماذا تريدين الذهاب إلى هذا المكان البعيد فى هذا اليوم بالذات ؟ » ، فقالت : « لأننى علمت أن لى قريبة فى بنارس تمس بى الحاجة إلى لقائها » ، فصاحت نابينكالى : « لا ! .. لست غضة بلهاء .. من الذى أخبرك بهذا ؟ .. لعله تلوسى ؟ .. يجب أن نطرد هذا الولد . ألا افهمى أيتها الشابة أن لا سبيل لك إلى الذهاب للاغتسال أو لمقابلة أقاربك فى المدينة وأنت وحيدة ، طالما كنت فى هذا البيت ! » .

وطرد (تلوسى) فوراً ، وتلقى الخدم أوامر صارمة بأن لا يتصلوا بـ(كمالا) ، فإذا صبر هذه ينفد وإذا بها لا تعود تطيق البقاء لحظة أخرى تحت سقف غريب ، خاصة وأن زوجها يقيم فى المدينة ! .. ومن ثم أخذ نشاطها فى العمل يخبو . ولم يفت ذلك نابينكالى فقالت : « اسمعى أيتها الشابة .. إننى لا أرتاح إلى تصرفك » . فقالت كمالا : « وأنا لم أعد راغبة فى العمل فى خدمتكم . لم أعد أطيق ، فدعينى أرحل » .. فصاحت (نابينكالى) ساخرة : « أحقاً ؟ .. هذه عاقبة الإحسان إلى الناس فى هذه الأيام ! .. أتزعمين أنك براهمية صالحة ! .. ألا حاولى الفرار ، وسوف ترين كيف يعاملك الشرطة . إن ابنى (حكمدار) ، وكم من أفراد أرسلوا إلى السجن بكلمة منه ! » .

* * *

● ونضب معين صبر كمالا ، وهى ترى أن السعادة المرتقبة أضحت على قاب قوسين منها . كان القدر يسخر منها فى قسوة ! وغدا سجنها بين جدران البيت أمراً لايطاق ، فاعتادت أن تتسلل إلى الحديقة فى

الأمسيات ، فتقف فى البرد ترقب الطريق المؤدية إلى المدينة . وكانت تقف الساعات الطويلة ، جامدة ، مستغرقة فى التفكير ، ثم لا تلبث فى النهاية أن تنحنى إلى الأرض فى طاعة ، وتدلف إلى غرفتها . بيد أن هذه السلوى الضئيلة لم تلبث أن حرمت عليها أيضاً : فقد حلا لنابينكالى ذات مساء أن تستدعيها بعد أن فرغت من عملها ، فلما لم تجدها فى المطبخ ، بحثت عنها فى كافة أرجاء البيت وقد خيل إليها أنها هربت ، وصاحت تأمر بإبلاغ الأمر إلى الشرطة .. ثم عثرت عليها فى الحديقة ، فصاحت بها : « أى سوء كنت تهمين به ؟ إلى أين ذهبت ؟ » . فقالت الفتاة : « كنت أتمشى فى الحديقة » . فصبت نابينكالى عليها جام غضبها ، ولكن كمالا لم تسعدها برؤية دموعها ، بل وقفت كتمثال جامد تحت سيل دافق ، حتى إذا فثأت السيدة غضبها ، قالت لها : « أرى أنك لست راضية عنى ، فخليق بك أن تسرحينى ! » . فصاحت السيدة : « سأفعل بكل تأكيد ، ولكننى سأعلمك أولا مع من تتعاملين ! » .

ولم تجرؤ كمالا بعد ذلك اليوم على أن تبرح باب البيت ، وأصبحت تحتبس نفسها فى غرفتها، لتتعزى بالتفكير فى أن عذابها قد بلغ ذروته ، ومن ثم فلن تلبث السماء أن تبعث إليها بالخلاص !

وحدث ذات مساء أن خرج (موكوندا بابو) للنزهة . وما لبث أن أقبل زائر توقف عند الباب الخارجى . ولم يكن حارس الباب موجوداً ونادت السيدة على الخادم الآخر ، فلم تجده . وفى تلهفها ، رأت أمامها كمالا ، فهتفت بها : « أن الدكتور نالينا كشا بالباب .. اسرعى وافتحى

له ، وأخبريه بأن زوجى قد خرج للنزهة ولن يلبث أن يعود سريعاً ، فليتكرم بانتظاره » .

وأسرعت كمالا وقد اشتد وجيب قلبها ، وتخلخلت أوصالها ، وتحولت يداها إلى كتلتين باردتين . ورفعت المزلاج ، ثم أسدلت خمارها على وجهها وفتحت الباب ، ودعت الطبيب إلى الدخول . وجلس نالينا كشا ، سارحاً فى تأملاته ، بينما تسللت الفتاة إلى ركن من الشرفة ترقبه منه ، وصدرها يتهدج بعنف ، وقلبها يخفق بقوة ، وقد سرت فى كل جسدها رعدة شديدة ! .. وراحت تنعم النظر إليه ، والدموع تفيض من عينيها دون انقطاع .. بل إنها حشدت جماع نفسها فى عينيها ، حتى خيل إليها أن قوة نظراتها لن تلبث أن تجذب نالينا كشا إليها ! ولاح لها وكان كل شىء يتضاءل ويذوب فى الفراغ المحيط بها . ولم يعد أمامها سوى وجهه المغمور بضوء المصباح الوحيد فى الحجرة .. كان هـذا هو الشىء الحقيقى الوحيد ، أما ما عداه فبعيد عن الحقيقة والواقع ! وغابت كمالا فى نوبة استيقظت منها فجأة لتجد نالينا كشا يتهيأ للانصراف وقد وقف يتكلم مع موكدندا بابو .

وتسللت إلى المطبخ ، ومنه إلى ساحة صغيرة لابد لمن يغادر الدار أن يجتازها ، وراحت تنتظر وقد سرت فى جسمها وعقلها وقدة من لهب .. كيف يمكن أن يكون مثل هذا الرجل زوجاً لتعسة بائسة مثلها؟.. كانت على محياه نفحة إلهية من جمال مهيب ووقار .. فلما تبينت كمالا أن عذابها لم يذهب هباء ، وإنما كان فى سبيل رجل يستحقه ، راحت تنحنى شكراً للسماء ! .. وعندما اتجه نالينا كشا أخيراً إلى الباب الخارجى ،

ألفت نفسها ترمقه وهى تناجيه فى أسلوب الشعراء : « يا مولاى ، إن جاريتك مستعبدة تحت سقف غريب ، وإنك لتمر بها الآن دون أن تفطن إليها ! » .. وتسللت إلى الغرفة التى كان بها ، فسجدت أمام المقعد الذى كان جالساً عليه ، وعفرت جبينها فى التراب ، وقبلت الأرض ! .. ما أشد تعاستها إذا لم تسجد له هو ! !

وعلمت كمالا فى اليوم التالى أن الطبيب نصح (موكوندا بابو) بأن يقضى فترة استجمام طويلة ، فى مكان يبعد عن المدينة بمئات الأميال غرباً ! وفيما كانت الاستعدادات للرحلة تجرى على قدم وساق ، ذهبت كمالا إلى سيدتها قائلة : « ما أرانى مستطيعة أن أغادر بنارس » ، فصاحت نابينكالى وهى تظن أن الفتاة تتخذ من الدين ستاراً للبقاء : « بل تستطيعين .. ما الذى جعلك توغلين فى التقوى فجأة ؟ » .. قالت كمالا : « قولى ما شئت ، ولكننى سأبقى هنا .. أتوسل إليك أن تسرحينى ! » ، فصاحت العجوز : « إنك فظيعة حقاً !.. لقد أعددنا عدتنا للرحيل ، فما هذا الخبل الذى أصابك بغتة ؟ .. كيف نستطيع أن نجد طاهية أخرى ، وأنت لم تخطرينا فى وقت مناسب ! » .. وذهبت توسلات كمالا أدراج الرياح ، فاحتبست نفسها فى غرفتها ، وراحت تبكى وتصلى !

* * *

الفصل الثالث والخمسون

● فى مساء اليوم التالى لحديث (أنادابابو) مع ابنته بشأن الخطبة ، عاودته نوبة الألم التى كانت قد أصابته فى كلكتا ، فقضى الليل متوجعاً ، وإن كان فى الصباح قد أحس ببعض الراحة ، فجلس فى مقعدبالحديقة ، وأخذ ينظر إلى الطريق ، ويغفو تحت شمس ديسمبر ، بينما كانت همنالينى تعد الشاى . وكان وجهه ممتقعاً ، مكفهراً من أثر العناء الذى لاقاه فى ليلته ، وقد أحاطت بعينيه هالات سوداء ، وبدا وكأنما تقدمت به السن أعواماً خلال الليل ! .. وكانت همنالينى ، كلما رمقته ، شعرت بالندم يحز فؤادها . فقد عزت النوبة إلى استيائه من رفضها الخطبة .وراح ضميرها يؤنبها ، واستولت على بالها فكرة العمل على التخفيف عنه . وفجأة ، ذهلت إذ رأت أكشاى مقبلا مع (العم) . وهمت بأن تنسحب ، لولا أن صاح أكشاى : « أرجو أن لا تنصرفى . إن هذا السيد هو مواطننا الجليل تشاكرا بارتى ، من (غازيبور) ، واسمه ذائع فى كل الإقليم .. وقد جاء فى أمر هام ! » . وجلس القادمان على مقعد حجرى بالقرب من مجلس (أنادا بابو) ، ثم شرع (العم) يوضح مهمته قائلا : (بلغنى أنكما من الأصدقاء الحميمين لـ(رامش بابو) ولذا جئت أسأل إن كان فى وسعكما أن تمدانى بأنباء عن زوجته ! » . وسلبت المفاجأة أنفاس أنادا بابو ، حتى إذا غالب دهشته ، هتف « زوجة رامش ! ».. وغضت همنالينى بصرها ، بينما استطرد (تشاكرابارتى) فى حديثه : « قد تظنانى جلفاً عجوزاً ، ولكنى أومن بأنكما لن تلبثا أن تتبينا أننى ما قطعت هذه الرحلة قادماً من (غازيبور) لمجرد الخوض فى سير الناس معكما ! ..

لقد قابلت رامش بابو ، أثناء عطلات (البوجا) ، وكان مصطحباً زوجته فى رحلة على باخرة نهرية . وأنكما لتعلمان أن أحداً لا يمكن أن يرى كمالا دون أن يقع أسير سحرها ! .. وكان رامش بابو متردداً بشأن المكان الذى يغادر فيه الباخرة ، ولكن كمالا لم تلبث أن تعلقت بشخصى المكتهل ، وأغرت زوجها على الهبوط فى غازيبور والإقامة معنا . ولست أحتمل الحديث عما جرى بعد ذلك .. لقد اختفت الفتاة العزيزة وتركتنا كسيرى القلوب ! » .

وتملك التأثر (العم) ، فسكت . وما لبث أنادا بابو أن سأل عماجرى للفتاة ، فأخذ (أكشاى) يروى القصة كلها . وبدون أن يعلق بحرف أو يضيف حرفاً ، استطاع أن يبرز تصرفات رامش فى أسود إطار : ثم قال : « لكم كنا نتخبط فى الظلام ، إذ لم نكن موقنين من أنه متزوج من كمالا ! » . والتفت إلى العم قائلا : « أواثق أنت ياسيدى من أنها كانت زوجته ، وليست أخته أو إحدى قريباته ! » .. فصاح العم : « ما الذى تعنيه يا أكشاى بابو ؟ كانت زوجته بكل تأكيد ، وكانت خير زوجة يحظى بها رجل ! » . قال أكشاى : « من الغريب أن الزوجة كلما كانت فاضلة ، كان جزاؤها سيئاً ؟ » .. فقال أنادا بابو ، وهو يتخلل شعره الناحل بأصابعه : « لم يعد ثمة مجال لعمل شىء ، ففيم التحسر ؟ » . وإذ ذاك قال أكشاى : « إننى لم أقتنع مطلقاً بأن كمالا انتحرت ، بل بدا لى من المحتمل أنها فرت من بيتها . ولذلك جئت وهذا السيد نبحث عنها فى بنارس » .

وتساءل أنادا بابو : « وأين رامش الآن ؟ » .. فأجاب العم : « لقد

غادرنا دون أن يترك عنواناً » . وتحول أكشاى قائلا : « لقد علمت أنه عاد إلى كلكتا » .. ثم توجه إلى (تشاكرابارتى) يسأله أن ينطلق معه إلى المدينة ليشرعا فى البحث ، فسأله (أنادا بابو) : « هل ستقيم معنا يا أكشاى ؟ » .. فأجاب : « أخشى أن لا أستطيع أن أجزم بذلك ، فلقد وهبت هذه المسألة كل اهتمامى ، وسأكرس كل وقتى فى بنارس من أجل البحث . تصوروا حال الفتاة الرقيقة النفس .. لابد أنها وجدت الحياة فى دارها لاتطاق ، فلاذت بالفرار ! .. تصوروا ما قد تكون فيه الآن من عذاب ! » .

* * *

● وظل (أنادا بابو) طويلا يتأمل وجه ابنته فى قلق ، بعد انصراف الرجلين . وبذلت (همنالينى) مجهوداً جباراً لتتمالك نفسها — إذ كانت تدرك مدى قلق أبيها من أجلها — ثم قالت أخيراً : « أرى يا أبت أن لابد من استدعاء طبيب لفحصك اليوم ، فإن أتفه الأمور يتعب صحتك فى هذه الأيام » .. وارتاح الشيخ إذا رأى أن ابنته ما زالت تهتم بصحته رغم ما سمعته عن رامش . فانتهز الفرصة ليقول : « هذه فكرة طيبة ، ويحسن بى أن أستدعى الدكتور ناليناكشا فوراً ! » . وأجفلت الفتاة لذكر (ناليناكشا) ، ولكنها تمالكت نفسها وقالت فى اغتباط : « هذا أفضل ، وسأبعث فى طلبه » . وشجع حال (همنالينى) أباها على معالجة المسألة الشائكة ، فقال لها : « بهذه المناسبة يا هيم ، إن مسألة رامش ... » ولكنها قطعت عليه الحديث قائلة : « إن الشمس حامية يا أبت ! » : وقبل أن يجد فرصة للمعارضة ، كانت قد تأبطت ذراعه وقادته إلى

داخل الدار ، فأجلسته فى مقعد ، وأسلمته صحيفة ، ثم قالت : « سأتركك قليلا يا أبت ! » . وحاول (أنادا بابو) أن يتمرد عليها ، فى جهد الطفل الصغير ، إذ ما لبث بعد قليل أن نهض يبحث عنها ، ولكنه وجد باب مخدعها موصداً ، فعاد إلى الشرفة ، وجلس فيها والقلق يفرى أعصابه ، حتى وصل الدكتور (نالينا كشا) .

وفحصه الطبيب فى عناية ، ثم وصف له العلاج ، وتحول يسأل (هيم) عما إذا كان ثمة ما شغل بال الشيخ أو أقلقه فى الفترة الأخيرة . وردت الفتاة بالإيجاب ، فقال : « يجب تجنيبه كل أسباب القلق ما أمكن .. إننى ألاقى نفس العناء مع أمى ، فهى تتأثر بكل مسألة إلى درجة يصعب معها صون صحتها . إننى أحاول بطبيعة الحال أن أجعلها بمنجى عن كل ما يثير الانفعال ، ولكن من الصعب تحقيق هذا فى دنيانا الحافلة بالمتاعب » ، فقالت له (همنالينى) : « إنك أنت أيضاً لا تبدو فى صحة طيبة اليوم ! » ، فقال : « آه ، إننى بخير . كل ما هنالك أننى ظللت ساهراً شطراً من الليل » . وقالت هيم : « من الأفضل أن تبحث عن امرأة ترعى أمك باستمرار ، إذ ليس بوسعك أن تعنى بها كما ينبغى ، فضلا عن أن عملك يتطلب منك جهداً » .. ولم تكن همنالينى تفكر فى نفسها حين قالت ذلك ، ولكنها ما أن نطقت بالكلمات حتى فطنت ، فتضرج وجهها حياء ، إذ خطر لها أن نالينا كشا قد يؤول قولها على غير ما قصدت . ولاحظ بدوره ارتباكها ، فتذكر ما عرضته عليه أمه بصددها ، ومن ثم حدثها عن تقاليد أمه الدينية التى تجعلها تأبى أن يقوم بخدمتها أجير . ولم تصغ (همنالينى) إلى حديثه ،

إذ شغلها أمر ، فما لبثت أن قالت : « إننى حين أعمد إلى اتباع تعليماتك لا ألبث أن أصطدم بعقبات متوالية تضطرنى إلى أن أحيد عن هدفى . إنها ترهبنى وتسلمنى إلى اليأس ! » . فقال بعد تفكير : « يجب أن تدركى أن الصعاب لا تقوم فى طريقنا إلا لتحفزنا على العمل والكفاح ! » .. ورجته أن يزورها فى اليوم التالى ، إذ وجدت فى لهجته المطمئنة الواثقة ما بعث فى نفسها السكينة المنشودة ! وظلت بعد انصرافه تشعر بأن كلماته كانت بلسماً لجراحها ! ووقفت فى الشرفة تسرح البصر فى الفضاء الذى غمرته أشعة الشمس . وفى بهاء الظهيرة خيل إليها أنها ترى عالم المخلوقات فى نصب وفى استجمام ، فى آن واحد .. تمثلته مفعماً بالقوة ولكن فى هدوء ودعة .. وأحست بأن الشمس الحامية ، والسماء ذات الصفاء الباهر ، تسبغان على نفسها بركة وأمناً !

واتجهت أفكار همنالينى إلى أم نالينا كشا . كان سبب هم العجوز وأرقها جلياً . وكانت الفتاة قد تغلبت على المفاجأة ، فلم تعد تجفل من تدبر فكرة الزواج المقترح . بل إنها كانت أكثر حاجة إلى نالينا كشا عن ذى قبل ، لا يشوب ولاءها له سوى وخزات قلقة يبعثها فى نفسها الحب المهجور ! .. وكانت تدرك أن نالينا كشا فى غير حاجة — من الناحية العاطفية — إلى حب المرأة ، ولكنه كان فى حاجة إلى خدماتها ، لا سيما وقد كانت أمه مريضة ولابد لها من رعاية . ولا شك فى أن خدمة رجل مثله تعتبر نوعاً من التقوى والعبادة ! .. ولقد كان الفصل الذى سمعته عن حياة رامش فى ذلك الصباح ، صدمة ساحقة اضطرت

إلى أن تستنجد بكل قواها لتدفع عنها وقعها . وأحست — فى حالها الراهنة — بأنها لم تعد تأسى على رامش ، ولا تجد من نفسها ميلا إلى أن تحكم على أعماله . بل إن ميلا غريزياً أوحى إليها بأن تقصى عن ذهنها كل تفكير فى رامش . وكانت إذا تصورت مصير كمالا ، ارتجفت فرقاً . ثم لا تلبث أن تسائل نفسها : أية علاقة لها بحادث الانتحار التعس ؟ .. ولكن الخزى ، والسخط ، والإشفاق ، لا تلبث أن تتنازعها ، فتضم راحتيها إلى صدرها وتهتف : « رباه ! لماذا تضنينى هذه الأفكار وأنا لم أرتكب ذنباً ؟ .. ألا خلصنى من هذه الروابط الدنيوية .. حررنى منها تحريراً كاملا ! »

* * *

● ومع أن أنادا بابو كان يتحرق شوقاً ليعرف تأثير قصة رامش وكمالا على ابنته ، إلا أنه لم يجرؤ قط على أن يمس الموضوع ! .. على أنه حين جلس إلى جوارها فى المساء — يشرب قدحاً من اللبن أذيب فيه الدواء — وجد فرصة سانحة ، إذ سأل همنالينى أن تغلق مصاريع النافذة ، فسادت الحجرة عتمة وادعة .. وإذ ذاك قال : « إن الكهل الذى زارنا اليوم رجل طيب ! » .. ولم تجب . فتشجع واتخذ خطوة أخرى ، فقال : « شد ما أذهلنى مسلك رامش ... » ، ولكنها قاطعته فى ضراعة : « دعنا من ذكره يا أبت ! » .. قال : « ما أردت أن أبحث شئونه يا عزيزتى ، ولكن القدر شاء أن ترتبط سعادتنا وتعاستنا بشخص أو بآخر ، فليس بوسعنا أن نتجاهل تصرفاته ! » .. ولكنها صاحت : « لا .. لسنا نملك أن نقيم سعادتنا وتعاستنا على أى فرد :

إنك تجعلنى أشمئز من نفسى يا أبت إذا كدرت نفسك ظناً منك أننى متأثرة بشىء ! » .. فقال : « لقد اكتهلت يا ابنتى ، ولن أهنأ حتى أراك مستقرة فى حياتك . كيف أرتاح فى موتى إذا تركتك غير متزوجة ؟ .. إن تعرضنا للأحزان والصدمات القاسية ، يجب أن لا يحولنا عما تستطيع الحياة أن تقدم لنا من أنعم أخرى ! .. إنك فى أساك قد لا تبصرين الطريق التى تؤدى بك إلى حياة سعيدة ، نافعة .. ولكن ، تذكرى أولا أن لا هم لى سوى خيرك .. وإنى لأعرف أين تكمن مصلحتك ورفاهيتك ، فلا ترفضى الخطبة التى عرضتها عليك اليوم ! » .. واختلج جفنا الفتاة ، وقالت : « ما كنت لأرفض لك طلباً يا أبت ، ولكن دع لى الفرصة كى أطهر قلبى من الهواجس وأهيئ نفسى ! »

ومد (أنادا بابو) يده فى الظلام ، فتحسس وجنتى ابنته المرطبتين بالدموع ، دون أن يتكلم !

وكان الأب وابنته يجلسان إلى مائدة الشاى ، حين أقبل أكشاى . وقال وهو يتقبل قدحاً من الشاى : « لم نعثر بعد على أثر ! .. على أن لـ(رامش) وكمالا بعض أمتعة لدى تشاكرا بارتى وأنه لحائر بصددها .. ولو أن رامش عرف بمكان وجودكما ، لأتى إليكما ، ومن ثم ... » : وهنا صاح (أنادا بابو) مغضباً : « ظننتك أكثر إدراكاً من هذا .. لماذا يأتى (رامش) إلينا ، ولماذا نحتفظ بأمتعته ؟.. إنك إنما تحاول أن تستثيرنا بالدأب على ذكره يا أكشاى . وإنى لأطلب إليك أن لا تذكر هذا الموضوع مطلقاً ، ومهما تكن الأسباب ! »

الفصل الرابع والخمسون

● وحانت الليلة السابقة على رحيل (موكوندا بابو) ، فأخذت كمالا تتوق إلى حادث يعطل الرحيل ! وراحت تصلى عسى أن يفد الدكتور نالينا كشا على الدار قبل الرحيل ، ولكن أمنيتها لم تتحققا ! .. وكانت (نابينكالى) قد حرصت على أن تستبقيها تحت رقابتها ، خشية أن تهرب خلال جلبة الاستعداد للرحيل . وأمرتها فى تلك الليلة بأن تنام معها فى غرفة واحدة ، لتصطحبها فى العربة التى تستقلها الأسرة إلى القطار فى الصباح :

وغادر القطار (بنارس) فى موعده ، فانطلق فى سرعة وضجيج ، كأنه فيل هائج يعيث فساداً . وأحست (كمالا) كأن نابى هذا الفيل يمزقان نفسها . وأخذت تطل خلال النافذة بعينين نهمتين . وعندما درج القطار فوق الجسر ، مالت (كمالا) بجذعها خارج النافذة ، تلقى نظرة أخيرة على المدينة المترامية على ضفة النهر . وصاحت نابينكالى : « عجباً ، ما الذى يدعوك إلى أن تشرئبى بعنقك هكذا ؟.. أتظنين أنك طير يستطيع أن ينشر جناحيه ويطير ؟! »

واختفت (بنارس) عن بصر (كمالا) ، فتهالكت فى مقعدها تحملق فى الفضاء . وما لبث القطار أن وصل إلى (موجالسيراى) ، وكان على القوم أن يهبطوا ليستقلوا قطاراً آخر إلى (ميروت) . وخيل لـ(كمالا) ـ وسط ضجيج المحطة وزحامها ـ أنها فى حلم !.. وفجأة ، أذهلها أن سمعت صوتاً مألوفاً يهتف : « أماه ! » .. والتفتت صوبه .. فإذا بها

ترى (أومش) وقد أشرق وجهه حبوراً . وقفز الصبى من عربة أحد القطارات ، وارتمى عند قدميها يتحسس التراب تحتهما ويحسوه على رأسه فى توقير !.. وفى اللحظة التالية ، تحرك القطار الذى كانت نابينكالى وحاشيتها قد استقلوه . وصرخت العجوز : « ماذا تفعلين؟.. هيا .. اصعدى .. لقد تحرك القطار ! » .. ولكن كمالا لم تكن تسمع شيئاً .. والقطار ماض بسرعة مطردة ، حتى غادر المحطة .

وقالت كمالا : « من أين أتيت يا أومش ؟ » .. فأجاب : « من غازيبور » .. وأمطرته بالأسئلة عن القوم ، وقد أغرورقت عيناها بالدموع .. ثم عادت تسأله : « وإلى أين ستذهب ؟ » .. قال : « معك يا أماه ! » .. فقالت : « ولكنى لا أملك شروى نقير ! » : قال : « لا تحملى هما .. إننى لم أنفق درهماً من الروبيات الخمس التى أعطيتنيها ! » .. فهتفت : « إذن ، هيا يا أومش .. لنعد إلى بنارس ؟. اذهب فابتع لنا بطاقتى سفر » . وإن هى إلا لحظة حتى عاد بالبطاقتين ، فقادها إلى القطار الذاهب إلى (بنارس) ، وبعد أن اطمأن إلى استقرارها فى المقصورة الخاصة بالحريم ، اتخذ لنفسه مكاناً فى مقصورة مجاورة .

وإذ هبطا فى (بنارس) ، قالت كمالا : « إلى أين نذهب ؟ » ، فقال الغلام : « سأصحبك إلى أصلح مكان » ، فهتفت فى عجب : « أصلح مكان ؟! » .. وقال وهو يدفع بها إلى عربة : (سترين ! » . وما لبثت العربة أن استقرت بهما أمام دار ، فدعاها (أومش) إلى الهبوط ، وصاح وهو يلج الدار : « أأنت هنا يا جداه ؟ » .. فواتاه الجواب من إحدى الغرف : « أهذا أنت يا أومش ؟! » .. وبرز (العم)

إذ ذاك من إحدى الغرف ، فأشرق محيا (أومش) :. وذهل الشيخ حين رأى كمالا أمامه تبدى له آيات التوقير ! وانقضت لحظة قبل أن يقوى الرجل على الكلام ، ولكنه لم يفقه ما بدر منه . وما لبث فى النهاية أن أمسك بذقن كمالا ، ورفع وجهها الصغير نحوه ، وهتف : « ها قد ردت ابنتى الصغيرة إلى ! » . ثم صاح بأعلى صوته : « سايلاجا سايلاجا ! .. تعالى ! » .. وأقبلت سايلاجا تطل من الطابق العلوى ، ثم طوت درجات السلم . وانحنت (كمالا) ومست قدميها ، فضمتها (سايلاجا) إلى صدرها ، وقبلت جبينها ، ثم قالت والدموع تنساب من عينيها : « يا عزيزتى ! .. كيف تتركيننا هكذا ؟ .. أما عرفت أن عملك قد حطم قلوبنا ؟ » .. وفى اللحظة التالية أقبلت (أومى) تهز ذراعيها وتصرخ فى غبطة : « خالتى ! خالتى ! » ، فاختطفتها (كمالا) بين ذراعيها ، وضمتها إلى صدرها ، وأغرقتها بالقبلات :

وكانت (سايلاجا) قد أصرت على أن تصحب أباها ، حين أخذ برأى (أكشاى) ووافق على أن يصحبه إلى (بنارس) ، وفيما كانوا يهبطون من القطار ، لمحوا (أومش) يهبط خلفهم ، إذ كان قد تسلل إلى القطار ليرافقهم خلسة . ولكن الأب وابنته ما زالا به حتى قبل أن يعود إلى (غازيبور) . بيد أن الصبى لم يطق بقاء هناك ، لا سيما وكمالا ليست فى البلدة ، فما لبث أن استغل النقود التى كان (العم) قد منحه إياها ، فى العودة إلى (بنارس) .. فكان هذا اللقاء !

الفصل الخامس والخمسون

● أقبل (أكشاى) لزيارة (تشاكرا بارتى) فى اليوم التالى ؛ فلم يقل له أحد شيئاً عن عودة (كمالا) ، إذ كان (العم) قد بدأ يحدس كراهية الشاب لرامش . ولم يسأل أحد كمالا عن سبب هربها ، ولا أين كان ملاذها ، وكان مجيئها إلى الأسرة كان أمراً طبيعياً بعد غياب عادى !..

ودعت (سايلاجا) كمالا فى تلك الليلة إلى أن تشاطرها مخدعها ، وضمتها فى أحضانها ، وراحت تمسح رأسها فى رفق وحنان ، مما هفا بأعصاب (كمالا)، فشرعت تروى لها سرها : « لست أدرى لم لم أستطع أن أروى لك القصة من قبل ؟! .. لم أكن إذ ذاك أقدر تطور الأمور ، فلقد جاءتنى الصدمة بغتة ، فشعرت بأن ليس فى وسعى أن أواجهكم ثانية !.. لقد حرمت من أبى وأمى يا ديدى ، ولكنك لى أم وأخت ، ولهذا أرانى على استعداد لأن أروى لك ما لم أكن لأرويه لأى مخلوق!»

واستوت كمالا جالسة فى الفراش ، فحذت (سايلاجا) حذوها . وراحت الأولى تروى قصتها مذ تزوجت . وعندما ذكرت كيف أن الرجل الذى وقعت بين يديه عقب نجاتها من الغرق ، والذى ظننته زوجها ، لم يكن زوجها البتة ، حملقت فيها (سايلاجا) فى دهشة ، وأحاطت عنقها بذراعيها ، قائلة : « واهاً لك يا مسكينة !.. الآن فهمت كل شىء !.. ولكن ، ألم يفطن رامش بابو إلى الحقيقة ؟ » .. فقالت كمالا : « فى ذات يوم – بعد الزواج بمدة – نادانى باسم (سوسيلا)، فقلت له : « لم تدعونى سوسيلا ، وأنا أدعى كمالا ؟ » . وأنى لأدرك الآن أنه فطن إلى الأمر » .

وانتزعت (سايلاجا) القصة كلها منها ، قطعة فقطعة ، حتى إذا فرغت (كمالا) منها ، قالت (سايلاجا) : « إنه لأمر فظيع بالنسبة لك يا عزيزتى ، ولست أملك إلا أن أرى أنك كنت محظوظة حين وقعت بين يدى رامش بابو دون سواء .. لكم أنا آسفة لحال ذلك الرامش بابو المسكين ! »

وكانت كمالا ما تزال تحتفظ بالخطاب الذى كان رامش قد كتبه لهمنالينى . فلما أفضت (سايلاجا) لأبيها بالقصة فى الصباح التالى ، قرأ الخطاب فى إمعان ، ثم وضعه فى مظروف ، وخلع نظارته عن عينيه ، وقال لابنته : « وما الذى ينبغى عمله الآن ؟ » .. فقالت : « لقد أصيبت (أومى) ببرد فى الليلة الماضية ، وأحب أن أدعو الدكتور (نالينا كشا) ، فإن المرء يسمع كثيراً عنه وعن أمه فى (بنارس) ! » .

وأقبل الطبيب ، ففحص الطفلة .. وأظهرت (سايلاجا) تلهفاً إلى رؤيته ، وهتفت بكمالا كى تصحبها ، ولكن (كمالا) التى لم تقو على مقاومة شوقها إلى رؤيته فى دار نابينكالى ، لم تقو فى هذه المرة على رؤيته لفرط حيائها !

* * *

● وفى ذات يوم ، سعى (العم) بنفسه إلى دار الطبيب ، متخيراً وقتاً لا يجده فيه هناك . والتمس رؤية أم (نالينا كشا) ، فلما اقتيد إليها ، قدم إليها نفسه قائلا : « إن المرء ليسمع عنك فى بنارس كثيراً يا أماه ، ومن ثم جئت ألتمس حظوة لقائك . إن لى حفيدة مريضة ، وقد جئت أنشد ابنك ، فإذا هو غير موجود ، ولم أر أن أنصرف قبل أن أرفع

إليك احتراماتى » . وارتاحت إليه كشمنكارى ، فدعته إلى الجلوس ريثما يعود ابنها .. وقالت : « يجب أن تأتى غداً لتتناول الغذاء هنا ، إذ أننى غير متأهبة لاستضافتك اليوم ! » ، فقال العم : « أرجو أن لا تنسى الشيخ الماثل أمامك ، حين تكونين فى حاجة إليه .. بوسعى أن أصحب خادمك فأريه دارى .. وهى جد قريبة من هنا » . وبعد عدد من الزيارات ، أصبح (العم) من أصدقاء الأسرة المترددين على البيت !

وظل الأب وابنته يرسمان خطتهما بدقة وحذر ، إلى أن كان ذات صباح ، إذ قال العم لـ (كمالا) : « هيا يا فتاتى ، يجب أن نذهب للاغتسال فاليوم عيد دساسواميد » .

وتخلفت سايلاجا عن مرافقتهما متعللة بتوعك ابنتها . حتى إذا آن لها أن يعودا ، سلك العم بكمالا طريقاً غير التى سلكاها فى المجىء . والتقيا فى تلك الطريق بالسيدة العجوز عائدة من النهر ، ترفل فى غلالة من الحرير ، وتحمل جرة مليئة بماء (الجانجز) ، فاعترض العم طريقها وقال لكمالا : « هذه أم السيد الطبيب يا عزيزتى ، فحييها ! » .. وأجفلت الفتاة مأخوذة ، ثم سجدت عند قدمى كشمنكارى ، ومست الغبار العالق بهما ، فهتفت السيدة : « يا عجباً !.. من هذه ؟.. يا لجمالها ! » .. وانزاح النقاب عن وجه (كمالا) . وسألتها العجوز : « ما اسمك يا عزيزتى ؟ » . وقبل أن تجيب كمالا ، قال العم : « اسمها هاريداسى وهى ابنة ابن عم لى ، فقدت أبويها فكفلتها ! »

ودعتهما إلى دارها . وهناك قال العم : « أحب أن أذكر لك أن

قريبتى هذه كانت منحوسة الحظ . ففى صبيحة يوم زواجهـا ، زهد زوجها الدنيا ، وفارقها فلم تره منـذ ذلك الحين . وقد اعتزمت أن تكرس حياتها للعبادة فى أحد الأماكن المقدسة . ولكننى لا أقيم هنا ، ولا أستطيع أن أستغنى عن عملى فى (غازيبور) . ولهذا أسألك أن تسدى لى صنيعاً . لسوف أزيح عن رأسى عبئاً يشغلنى ، إذا استطاعت أن تمكث معك وتغدو ابنة لك . فإذا سئمت يوماً عشرتها ، فرديها لى فى غازيبور . ولكننى أؤكد لك أنك لن تلبثى أن تتبينى — خلال يومين — أنها كنز غال ، ولن تطيقى فراقها لحظة واحدة ! » .. فهتفت السيدة : « هذا اقتراح طيب ، فكم من مرة سرنى أن ألتقط الغريبات من الطريق فكنت آتى بهن لأمنحهن الكساء والقوت ، ولكنى لم أكن أستطيع استبقاءهن معى . أما وقد أسلمتنى (هاريداسى) ، فلا تحمل لها هماً : ولابد أنك سمعت عن تقوى ابنى .. وليس سوانا يقيم هنا ! » .. فقـال العم : « كل إنسان سمع عن نالىناكشا ، وأنى لمغتبط من صميم فؤادى إذ أعرف أنه مقيم معك . لقد سمعت أن زوجته غرقت بعد زواجهما ، وأنه يعيش ناسكاً ! »

وما أن انصرف (العم) ، حتى أدنت (كشمنكارى) الفتاة منها قائلة : « دعينى أنظر إليك .. أنك طفلة .. أى زوج غبى هذا الـذى فارقك ! .. إنى لأدعو أن ترده إليك السماء ، فإن القدر لم يخلق مثل جمالك ليذهب هباء .. إنك لن تجدى لدات من سنك هنا ، فهل تطيقين العيش معى وحيدة ؟ » .. فقالت (كمالا) وعيناها الجميلتان تفيضان بالرضى : « أجل يا أماه .. ولسوف أؤدى لك كل الأعمال ! » .

وإذ ذاك هتفت السيدة : « أهكذا ؟! » .. وتحولت تحدثها عن زهـد ابنها ، وأنه لا يسر خاطرها مرة بطلب نوع من الأكل ، ثم قـالت : « إذا كنت ستقضين ساعات اليوم الأربع والعشرين معى ، فـدعينى أنذرك مقدماً بأنك لن تلبثى أن تسأمى سماعى وأنا أتغنى بمديح ابنى : ولكن عليك أن تحتملى ! »

وسألتها إن كانت تعرف الحياكة ، فقالت كمالا : « إلى حد ما » . قالت السيدة : « سوف ألقنك دروساً فى ذلك . وهل تجيدين القراءة؟ » . فقالت (كمالا) : « أجل .. كذلك تعلمت الطهو والتدبير المنزلى » . وأحست بأن أمامها فرصة لكى ترضى رغبة تملكت فؤادها فهمست : « ألا دعينى أقوم بالطهو اليوم يا أماه ! » .. فابتسمت (كشمنكارى) قائلة : « إن مخزن المؤن والمطبخ هما مملكة الزوجة الصالحة » . ومن ثم انهمكت (كمالا) فى أعمال المطبخ ، بينما آبت العجوز إلى الغرفة التى أعدتها لتتعبد فيها .

وكان من عادة (نالىناكشا) — إذا ما عاد إلى البيت — أن يبادر إلى رؤية أمه قبل كل شىء ، إذ كانت صحتها شغله الشاغل . فما أن دخل الدار فى ذلك اليوم ، حتى أنبأه أنفه وأذناه ، بأن الطهو يجرى على قدم وساق فى المطبخ ، فظن أن أمه هناك ، وسعى فوقف فى مدخل المطبخ . وانتبهت (كمالا) إلى وقع قدميه ، فالتفتت ، وإذا بها تجد نفسها وجهاً لوجه مع (نالىناكشا) ، فتركت المغرفة من يدها وحاولت أن ترخى القناع على وجهها ، ولكنها أخفقت .. بينما استدار (نالىناكشا) وانصرف .

* * *



● لم يمض وقت طويل حتى فرغت (كشنكارى) من عبادتها ، وعادت إلى المطبخ ، فإذا كمالا قد فرغت من الطهو ، ونظفت المطبخ تماماً . وعندما أعد الطعام ، جلس ناليناكشا وأمه إلى المائدة ، بينما وقف شخص صغير ، منفعل، يتسمع خارج الباب . وسمعت (كمالا) (كشمنكارى) تقول : « ما رأيك فى الطعام اليوم يا نالين ؟ » .. ولم يكن (ناليناكشا) نهماً بطبعه ، ولا كانت الأم قد عرفت أن ابنها قد علم بوجود فتاة غريبة فى المطبخ ، وأنه سر لذلك ، إذ كان دائماً يسعى لإغراء أمه على استخدام طاهية ، بعد أن ضعفت قواها . ولم يتمالك الشاب أن قال : « إن الطعام رائع يا أماه ! » .. ولاذت كمالا بأقرب غرفة ، وعقدت ذراعيها على صدرها تحاول أن تخفف من تهدجه . وما لبث ناليناكشا أن لاذ بغرفة مكتبه ، فعكفت أمه على تنسيق شعر كمالا ، فى فترة ما بعد الظهر ، ثم راحت تدير رأسها يمنة ويسرة ، تتأمل منظرها ، و (كمالا) فى درجة من الخجل لا تقوى معها على التطلع . وأرسلت السيدة العجوز زفرة حرى ، وهمست لنفسها : « آه ، ليتنى أجد لابنى زوجة مثلها ! »

وفى تلك الليلة ، اقترح (ناليناكشا) على أمه أن ترافقه بعيداً عن (بنارس) بضعة أيام للاستجمام ، ولكن (كشمنكارى) هتفت : « لا يا بنى .. إننى لا أضمن أن أعيش أياماً ، ولا أريد أن أقضى آخر عمرى فى مكان غريب ! » .. ثم التفتت إلى كمالا ، قائلة : « أسرعى يا عزيزتى إلى غرفتك ، ولا تضيعى شيئاً من وقت النوم . وأنت يا نالين .. إلى غرفتك ، فقد آن لك أن تنام ! » .. ولكن كمالا ظلت

حتى أسلمت العجوز إلى سريرها ، وجلست تدلك لها قدميها . وقالت السيدة : « ما الذى فعلت لأكون جديرة بهذا ؟.. لقد فطرت بحيث لا أطيق أن يخدمنى غريب ، ولكن لمستك تبعث القوة فى كيانى ! .. ما أغرب أن أحس بأننى عرفتك منذ سنوات ، فلست أراك غريبة عنى !.. والآن ، هيا إلى فراشك يا عزيزتى ، ولا تخفلى ، فإن مخدع نالين لصق مخدعى ، وهو لا يسمح لأحد غيره بالسهر على أمه .. فمن فضائله وميزاته أنه يستطيع أن يقضى الليل ساهراً ، وأن يحتمل كافة المتاعب ، دون أن يبدو عليه أثر لذلك . أحسبك ستضحكين فى قرارة نفسك لأننى لا أكف عن الحديث عنه .. ولكنه ابنى الوحيد . بل إننى أخال أحياناً أنه أبى ، وأننى عندما أكبر سأستطيع أن أجزيه عن كل ما يفعله من أجلى ! »

وعكفت (كمالا) فى اليوم التالى على أعمال البيت . وعندما دخل (نالين) حجرة مكتبه فى الصباح ، وجدها رائعة النظافة ، وقد أزيل الغبار عن الكتب التى رتبت على الأرفف بعناية . وكشفت أشعة الشمس المنسابة عن مدى نظافة أرض الغرفة . كذلك وجدت كشمنكارى — عند استيقاظها — أن كمالا تجثم فى انتظارها ، حاملة جرة من مياه (الجانجز) ، فهتفت بعد أن غسلت وجهها : « هل ذهبت إلى النهر وحيدة يا عزيزتى ؟ .. إنك صغيرة وما ينبغى ... » ، فقالت كمالا : « لقد عجز أحد خدم عمى يا أماه عن أن يكبح نفسه عن المجىء لزيارتى ليلة أمس ، فاصطحبته إلى النهر » .. وكان ذلك (الخادم) هو (أومش) ، الذى سرت السيدة العجوز لمرآه فسمحت

لـ(كمالا) بأن تستبقيه فى البيت ليساعدها فى أعمالها . وهكذا استطاعت كمالا أن تفرغ من أعمال البيت مبكرة بمساعدته . ثم تحولت فجمعت ثياب (نالينا كشا) المتسخة فغسلتها وجففتها ونسقتها :

* * *

● أقبلت همنالينى – بعد ظهر ذلك اليوم – تحمل باقة من الزهور، فانحنت راكعة لـ (كشمنكارى) ، التى جلست فى فراشها قائلة: « تعالى يا هيم .. اجلسى .. هل أنادا بابو بخير ؟ » ، فأجابت الفتاة : « كان متوعكاً أمس ، ولهذا لم أستطع الحضور ، ولكنه تحسن اليوم » .

وتحولت السيدة العجوز تعرفها بـ (كمالا) ، قائلة : « إنك لتعرفين يا عزيزتى أن أمى ماتت فى طفولتى ، وها هى ذى قد بعثت بعد كل هذه السنين ، فالتقيت بها فى الطريق بالأمس ، على غير توقع !.. لقد كان اسمها هاريباجينى ، فاتخذت فى تقمصها اسم هاريداسى .. أرأيت من قبل مثل هذا الجمال يا هيم ؟ » .. ونكست كمالا رأسها فى استحياء ، ولم تستطع أن تتخلص من خجلها فى حضرة همنالينى إلا بعد وقت . وسألت همنالينى السيدة عن صحتها ، فأجابت : « إن المرء إذا بلغ ما بلغت من السن ، لم تعد ثمة حاجة للسؤال عن صحته . والواقع أننى قانعة بأنى ما زلت على قيد الحياة ، ولكنى لن أستطيع أن أخدع الزمن طويلا !.. وبهذه المناسبة ، أحب أن أتحدث إليك فى أمر طال ترقبى الفرصة الملائمة لمفاتحتك فيه .. هل ذكر لك أبوك الاقتراح الذى عرضته عليه منذ أيام ؟ » .. فأجابت(همنالينى) وقد غضت بصرها : « أجل ، ذكره لى » .

فقالت كشمنكارى : « ولكنك على ما يبدو لم توافقى يا عزيزتى ، لأن أنادا بابو لم يوافنى برد . لقد حسبت نالين ناسكاً يقضى نهاره وليله مستغرقاً فى العبادة ، فشعرت بأن لا قبل لك بالزواج منه . والواقع أن من لا يعرفه يظنه عاجزاً عن الحب ، ولكن الناس يخطئون فى هذا .. إن عواطفه لعارمة ، ولهذا فهو دائماً يحرص على السيطرة على مشاعره !. إنك لست طفلة يا عزيزتى هيم ، بل إنك فتاة مثقفة ، وقد ارتحت إلى تعاليم نالين ، وأنى لأموت راضية إذا وجدتك مستقرة فى بيته !.. صارحينى يا عزيزتى، ما الذى لا يروق لك منه ؟ » .. فقالت همنالينى وهى تغض بصرها : « ليس لدى اعتراض إذا رأيتنى صالحة له يا أماه ! »

وإذ ذاك ضمت كشمنكارى الفتاة إليها ، وطبعت قبلة على جبينها ثم التفتت إلى (هاريداسى) ، ولكنها لم تجد لها أثراً . فقد تسللت الفتاة من الحجرة وهما تتحدثان . وما إن انصرفت همنالينى ، حتى استدعت السيدة العجوز نالينا كشا ، وهنأته . وتقبل الشاب النبأ فى هدوء ،وهو يرجوها أن لا تنفعل ، وأن تستسلم للنعاس . وإذ خرج ، نادت السيدة (كمالا) ، وأسلمتها الزهور التى أحضرتها همنالينى ، فوضعت بعضاً منها فى آنية للزهور على مكتب نالينا كشا ، كما وضعت بعضاً آخر فى مخدعه ، ووضعت الباقى على نعلين كانا فى صوان ملابسه ، ثم ركعت أمامهما ، والدموع تنحدر من عينيها ، وهى تفكر فى أنها لن تعود تملك أن تعبد .. حتى النعلين !.. وفجأة ، سمعت وقع قدمى نالينا كشا فأسرعت تغلق الصوان ، والتفتت ، فإذا به لدى الباب ، وتمنت لو أنها



فوضعت بعضا منها فى آنية للزهور على مكتب (نالليناكشا)، كما وضعت بعضا آخر فى مخدعه ..

ذابت فى أشباح الليل المقبل !.. أما هو ، فقد تحول عن الغرفة فجأة حين رآها . وإذ ذاك غادرتها كمالا مسرعة ، فأسرع بدوره إلى الصوان يحدوه الفضول إلى معرفة ما كانت تفعل . وما إن أبصر النعلين وقد غطتهما الزهور اليانعة ، حتى تحول إلى النافذة ، وكأنه يريد أن يعب من آخر أشعة الشمس المحتضرة !

الفصل السادس والخمسون

● أخذت همنالينى – بعد أن وافقت على الزواج من نالليناكشا – تحاول أن تقنع نفسها بأنها كانت سعيدة الحظ ، وشرعت تحاول التحرر من الماضى وأشجانه . وداخلتها السكينة التى تعقب اختتام فصل من فصول الحياة البشرية . حتى إذا عادت إلى دارها فى ذلك المساء ، كانت تشعر براحة سابغة . ووجدت أباها قد أوى إلى مخدعه مبكراً ، فأوت بدورها إلى غرفتها ، وعكفت – حتى ساعة متأخرة – على تسجيل مشاعرها فى مذكراتها ، فكتبت : « كنت قد قطعت كل الروابط الإنسانية ، واعتبرت نفسى ميتة بالنسبة للدنيا ، وما خطر لى قط أن الله قد ينقذنى ويكتب لى حياة جديدة ! » .

وكان أنادا بابو وهمنالينى يهمان بمبارحة دارهما – بعد ظهر اليوم التالى – قاصدين إلى دار نالليناكشا ، حين أقبلت على الدار عربة يقودها أحد خدم نالليناكشا ، فهبطت منها كشمنكارى . وأسرع أنادا بابو إلى استقبالها ، فبادرته قائلة : « لقد جئت أبارك ابنتك ! » .. وأحاطت معصمى الفتاة بزوج من الأساور الذهبية الثقيلة ، فركعت (همنالينى)

عند قدميها ، وإذ ذاك احتضنت السيدة وجهها بين يديها ، وطبعت قبلة على جبينها .

وفى الصباح التالى ، جلس الأب وابنته فى الحديقة يتناولان الشاى والشيخ فى أقصى درجات الغبطة ، يتأمل وجه ابنته ، ويخال أن روح زوجته المتوفاة قد هبطت على الفتاة وخففت من فورة الفرح لديها ، بمسحة من وجوم !.. وفجأة ، وقفت عربة أمام الباب الخارجى ، وقد ظهرت فوقها بعض الحقائب ، فصاحت همنالينى : « هذا جوجن ولابد ! » .. وخفت إلى الباب ، فإذا جوجندرا يهبط من العربة ، بادى البشر والسرور ، وسألته وهو يحييها فى مودة : « هل معك أحد ؟ » ، فضحك قائلا : « أجل ، لقد أحضرت هدية عيد الميلاد لأبى ! » . وبرز رامش إذ ذاك من العربة ، فما أن وقع بصر همنالينى عليه حتى نكصت على عقبيها وأسرعت بالدخول . وأسرع جوجندرا خلفها يناديها ، ولكنها لم تحفل به .

ووقف (رامش) حائراً ، فارتد إليه (جوجندرا) قائلا : « تعال يا رامش ، فإن أبى يجلس فى الحديقة » . وتأبط ذراعه ، وقاده إلى (أنادا بابو) . ولم يصدق الشيخ عينيه .. وأخذ يتمتم لنفسه فى استياء : « ها هى ذى عقبة جديدة ! » .. وانحنى رامش أمام الشيخ ، فدعاه هذا إلى مقعد ، وقال لابنه : « جئت فى موعد مناسب يا جوجن ، فقد كدت أبرق لك » .. وهتف الابن : « لماذا ؟ » ، فقال الشيخ : « لقد اعتزمنا تزويج همنالينى من نالينا كشا » .. قال جوجندرا : «أتقصد أنكم اتخذتم قراراً نهائياً يا أبت ؟.. أما كان ينبغى أن استشار فى

الأمر ؟ » .. فقال الأب : « إن أحداً لا يعرف لك قولا يا جوجندرا ! .. ألم تكن متحمساً لهذا الزواج ؟ » . قال الشاب : « هذا حق ، ولكن دع الماضى .. إن لدى حديثاً طويلا ، فاسمعنى .. » ، فقال (أنادا بابو) وهو ينهض عن مقعده : « سأسمعه فيما بعد ، فإننى وهيم مدعوان لتناول الفطور لدى أم (نالينا كشا) » .

الفصل السابع والخمسون

● كانت كشمنكارى قد قالت لـ(كمالا) فى اليوم السالف : « لقد دعوت همنالينى وأباها لتناول طعام الفطور غداً ، فماذا نعتزم أن نقدم إليهما ؟.. على أننى أعرف أنك طاهية بارعة يا عزيزتى .. ما سمعت قط ابنى يبدى رأياً فى الطعام ، ولكنه لم يجد ــ أمس ــ العبارات التى يطرى بها طعامك !.. ولكن ، لم لا تبدين مشرقة الوجه يا عزيزتى؟ ». فاغتصبت كمالا ابتسامة وهى تقول : « إننى بخير يا أماه ، فشكراً ! ». ولكن كشمنكارى هزت رأسها قائلة : « بل أراك مهمومة من أجل أمر ما . لا داعى لأن تكتمى عنى .. لا تعتبرينى غريبة عنك يا عزيزتى فإنى أعتبرك ابنة لى ! » .. ولما عجزت السيدة العجوز عن حملها على الكلام ، قالت : « قد يكون من الخير أن تذهبى لعمك فتمكثى لديه بضعة أيام ، ثم تعودى إن شئت ! » ، فصاحت (كمالا) فى لوعة : « أماه !.. طالما أتيح لى أن أمكث معك ، فلست بحاجة إلى أن أرى فى الدنيا سواك ! » .. فربتت العجوز خدها قائلة : « هذا مما يجعلنى أزداد اعتقاداً بأنك كنت أمى فى حياتك السابقة يا عزيزتى ! »

وأوت (كمالا) إلى غرفتها فى تلك الليلة ، فأطفأت المصباح ، وأغلقت الباب ، وجلست على الأرض تفكر فى الظلام . وانتهت بها أفكارها إلى هذه الصيغة : « لن أستطيع أن أواصل رعايته ، إذا كانت السماء ستحرمنى هذا الحق . يجب أن أروض نفسى على اليأس منه ، وأن أقنع بأن أؤدى له خدمة بين آن وآخر . فليهبنى الله القوة على أداء هذه الواجبات بوجه باسم !.. ومن الغد ، يجب أن أتخلص من حسرتى وأن لا أبدو مطلقاً شقية . لن أسمح أبداً لزفرة حزينة بأن تنبعث من صدرى . سأقنع بأن أخدمه طوال أيام حياتى ، ولن أطمع فى مزيد أبداً .. أبداً .. أبداً ! »

وأخذت تردد هذه العبارة وهى تتقلب فى فراشها . حتى إذا أسفر الصباح ، نهضت مستجمعة كل ما لديها من قوة الإرادة ، وهى لا تزال تردد العبارة . وأسرعت تغتسل فى (الجانجز) ، حتى إذا عادت سعت إلى كشمنكارى بوجه باسم ، فهتفت السيدة : « لماذا بكرت وسبقتنى إلى النهر ؟ » ، فقالت : « لم يكن بوسعى أن أتلكأ يا أماه ، فهناك عمل كثير لإعداد الفطور للضيوف » . وخرج (نالينا كشا) من غرفته إذ ذاك ، فقالت له أمه : « أخارج أنت الآن ؟.. إذن لا تتأخر فى الخارج ! » ، فسألها : « ولماذا يا أماه ؟ » .. قالت : « لقد نسيت أمس أن أنبئك بأن أنادا بابو قادم ليباركك ! » ، فقال : « ليباركنى ؟ كيف أصبح مباركاً إلى هذه الدرجة فجأة ؟ » .. فصاحت به : « لقد ذهبت أمس فأهديت (همنالينى) سوارين وباركتها ، وهو قادم بدوره

ليباركك ، فلا تتأخر ! » .. وسار نالينا كشا خافض الرأس ، مستغرقاً فى التفكير !

الفصل الثامن والخمسون

● ما أن فرت همنالينى من أمام رامش ، حتى أوت إلى حجرتها ، وأوصدت بابها خلفها . وساءلت نفسها بعد أن غالبت انفعالها : « لماذا عجزت عن أن أقابل (رامش بابو) دون أن أفقد جلدى ؟.. لماذا أقدمت على هذا التصرف المؤسف عندما حدث الشىء الذى لم يكن مرتقباً ؟ » . ونهضت ، فاستجمعت جأشها ، وخرجت لتقابل (رامش بابو) وقد عولت على أن تصمد للموقف : ثم تذكرت أمراً ، فعادت إلى غرفتها وأحاطت معصميها بالسوارين اللذين تلقتهما من كشمنكارى ، وهبطت إلى الحديقة ، ولكن رامش وجوجندرا كانا قد انصرفا .. فتأهبت لمرافقة أبيها إلى دار (نالينا كشا) .

ولم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة والنصف حين بلغا الدار : ولم يكن الطبيب قد عاد بعد ، فتولت كشمنكارى استقبالهما والحفاوة بهما . وأدهشها أن لا ترى الفتاة بالغة الابتهاج فى ذلك الصباح ، فأثقل وجوم همنالينى استبشار السيدة العجوز ، إذ خيل إليها أن الفتاة غير راضية عن الزواج من ابنها ، وأنها ترى نفسها أهلا لمن هو أفضل منه !.. وأفلت منها عنان الحديث فى غمرة أفكارها . وفجأة ألفت نفسها تقول : « لا داعى هناك للتعجيل بالزفاف ، فهما فى سن يستطيعان أن يقررا فيها شئونهما ، ولا يليق بنا أن نوجههما . ولست

أدرى بالطبع ما تشعر به (هيم) إزاء هذا الأمر ، ولـكنى أستطيع أن أقول إن نالين لم يرض نفسه تماماً على تقبل الفكرة بعد ! » .. وكان كلامها موجهاً إلى همنالينى أكثر منه إلى أبيها ، فقد رأتها موزعة البال ، فشاءت أن تشعرها بأن ابنها لم يطر فرحاً بالزواج المرتقب !

والواقع أن همنالينى كانت قد أقبلت فى ذلك الصباح وهى تغتصب الابتهاج اغتصاباً ، ولكنها لم تكد تجتاز عتبة دار كشمنكارى ، حتى دهمها ذعر طارئ ، وبدت لهـا الطريق الجديدة — التى وجهت إليهـا حياتها — مليئة بالصخور ، والمفاوز . وعندما أبدت السيدة العجوز فتورها نحو الزفاف ، استولى على الفتاة شعوران متضاربان : فقـد رأت — من ناحية — أن التعجيل بالزواج يتيح لهـا التحرر الذى تنشده من حالهـا الراهنة ، ومن تشتت بالهـا ، وحيرتها ! ولكنها — من ناحية أخرى — وجدت راحة فى الإشارة إلى احتمال العدول عن المشروع ! وكانت العجوز ترمقها من طرف خفى ، فخيل إليها أن أسارير الفتـاة اكتست هدوءاً وطمأنينة عقب قولهـا ذاك ، فإذا قلبها يقسو عليهـا ، وقالت لنفسها : « لقد أوشكت أن أبيع ابنى الحبيب بثمن بخس ! » . وسرها أنه تأخر عن الحضور ، فتحولت إلى همنالينى قائلة : « هكذا هو نالينا كشا .. إنه يعرف تماماً أنكما قادمان اليوم ، ومع ذلك فلم يبد له أثر » . ثم تعللت بتفقد العمل فى المطبخ ، وغادرت الضيفين وقد اعتزمت أن تستدعى كمالا لتشغل بها همنالينى ، ريثما تخلو إلى الشيخ فى حديث خاص .

ووجدت كمالا قد فرغت من إعداد الطعام وجلست فى ركن من

المطبخ ، وقد استغرقت فى التفكير ، إلى درجة أنها ذعرت حين فطنت إلى وجود السيدة العجوز ، فقفزت من مكانها وهى تبتسم فى ارتباك : وسألتها السيدة : « لمـاذا تجلسين هنا واجمة يا عزيزتى ؟.. إن (هيم) هنا ، وأرى أن تصحبيها إلى غرفتك فتجاذبيها الحديث ، حتى لا تضجر من حديث عجـوز مثلى ! » .. وأحست السيدة بعد هـذه العبارة بأن الفتور الذى بدا على همنالينى قد ضاعف من عطفها على كمالا . وقالت هـذه مراوغة : « ولكنى لن أجيد الحديث معهـا ، فهى متعلمة وأنا لا أعرف شيئاً ! » .. فصاحت العجـوز : « ماذا تعنين ؟ .. إنك لا تقلين عنها شأناً . ومع ذلك ، فإن اللاتى يفخرن بتعليمهن كثيرات .. أما اللاتى أوتين مثل جمالك ، فقليلات ! » .. وعقدت (كشمنكارى) عزمها على أن تظهر جمال (همنالينى) باهتاً إلى جوار الجمال الغض الذى أوتيته هذه الفتاة غير المتعلمة ، فقادتها إلى غرفتها ، وخلعت عليها ثوباً من الحرير الأصفر ، وعقصت لهـا شعرها على أحدث نسق ، وتأملتها طويلا ، ثم طبعت على خدها قبلة وهى تقول : « لعمرى ، أن لك من الجمال ما يرشحك لقصر ملك ! » . حتى إذا فرغت من تزيينها ، قالت لهـا : « هيا بنا الآن يا عزيزتى ، ولا تخجلى . إن فتاة الجامعة لن تلبث أن تشعر بالغيرة إذا رأتك . ارفعى رأسك عالياً أمامها ! »

* * *

● وكان نالينا كشا قد وصل فى تلك الأثناء ، واندمج فى حديث مع الضيفين . وما إن رأته كمالا ، حتى استدارت تهم بالفرار ، ولكن أمه أمسكت بها قائلة : « ليس ثمة ما يدعوك للخجل يا عزيزتى ! » .

وراحت كشمنكارى تغبط نفسها على جمال الفتاة ، وتمنى نفسها بأن ترى أثره على الآخرين :. فإن ما خالته من فتور لدى همنالينى ، أيقظ الأمومة فى أعماقها ، فرأت فى إظهار الفارق بين الفتاتين نوعاً من الثأر لما اعتقدته إهمالا نحو ابنها من ضيفتها !.. وبالفعل ، أذهل جمال كمالا الحضور !.. وشعرت كشمنكارى بالفوز :. فما كان أحد ليرى كمالا دون أن يؤمن فى قرارة نفسه بأن جمالها هبة من هبات الآلهة . وما لبثت السيدة أن قالت لها : « خذى (هيم) إلى غرفتك ، وسأعد المائدة بنفسى » . وكانت لحظة حرجة لـ (كمالا) . فقد راحت تسائل نفسها عما قد يكون رأى همنالينى فيها ، وهى التى لن تلبث أن تدخل الدار زوجة لـ (نالينا كشا) ، وسيدة للبيت ! وأبت أن تقر نفسها على أنها هى السيدة الشرعية للبيت !.. وأخذت أوصالها ترتجف وهى تبرح الغرفة مع همنالينى ، التى راحت تقول لها فى لطف : « لقد عرفت كل شىء عنك من الأم ، وأرجو أن تعتبرينى أختاً لك يا عزيزتى ! إننى لم أحظ بأخت ، وقد ماتت أمى فى طفولتى . وكم من مرة تمنيت لو كان لى أخت أبثها ما فى نفسى ، سواء فى سعادتى أو فى حزنى » !

وتطرقت فى الحديث إلى الزواج ، فسألتها عما كان عليه زوجها . ولم تشأ كمالا أن تجيب على السؤال مباشرة ، بل قالت : « ما عرفت أننى يجب أن أذكره يا أختاه !.. وعندما ذهبت للعيش فى دار عمى ، توثقت الصلات بينى وبين ابنة عمى سايلاجا ، فرأيت بنفسى كيف تكرس حياتها لزوجها ، وإذ ذاك تفتحت عيناى إلى ما ينبغى على الزوجة نحو زوجها . إننى لم أر زوجى حقاً ، ولكنى مع ذلك تعلمت

كيف أعبده بكل قلبى . ولقد كافانى الله على هذا الولاء ، إذ أصبحت أتمثل فى ذهنى صورة واضحة لزوجى . إنه لم يحظ بزوجة فى شخصى – فى الواقع – ولكنى أرى الآن أننى قد عثرت على زوجى ! » :.

ووجد ولاؤها هذا استجابة من قلب همنالينى التى قالت : « إننى أفهم ما تعنين :. إن الحصول على الشىء بالطريقة التى ذكرتها هو الفوز الحقيقى .. أما أى نوع آخر من الزواج ، فمجرد علاقة مادية لا يمكن أن تدوم ! » .. فأطالت كمالا النظر إليها لمدة دقيقة أو اثنتين ، ثم قالت : « إننى لا أحزن لفقده الآن ، فأنا جد سعيدة ، وأرى فيما حصلت عليه جزاء حقاً ! » .. فقالت همنالينى : « إن أستاذى يقول : إنه إذا استوى الكسب والخسارة لدى المرء ، فهذا هو الكسب الحق !. لو أننى حصلت على قدر ما لديك من قناعة ورضى لكنت مجدودة حقاً أتعلمين يا عزيزتى أن قلبى كان مثقلا اليوم ، ولكن الهم زال عنه مذ رأيتك ، وأصبحت أشعر بأننى أسترد قواى النفسية ! » .

الفصل التاسع والخمسون

● عندما عادت همنالينى من دار كشمنكارى ، وجدت على مائدة غرفة الجلوس مظروفاً سميكاً يحمل اسمها بحروف عرفت فيها خط رامش ، فتسارعت دقات قلبها ، وحملت المظروف إلى مخدعها ، حيث أغلقت الباب ، وأقبلت تقرأ محتوياته ، فإذا رامش قد أفضى إليها بكل قصته مع (كمالا) ، دون أن يكتم شيئاً ، واختتم رسالته بقوله : « لقد فسخت الظروف ذلك الرباط الذى وصلت السماء به حياتى وحياتك ،

وها قد منحت قلبك لرجل آخر ، ولست ألومك مطلقاً على ذلك ، ولكن يجب أن لا تلوميني أيضاً . ومع أنني وكمالا لم نعش يوماً كزوجين إلا أنني أرى أن أعترف لك بأنني كنت أميل إليها مع مرور الزمن . ولست أدرى بالضبط حقيقة مشاعرى اليوم ؛ ولكن قلبى كان خليقاً بأن يجنح إلى مرفأ حبك ، لو لم تنبذيه . وبهذا الأمل هرعت إليك فى حيرتى وأشجانى ، فلما سمعت أنك قبلت الزواج من رجل آخر ، عاودتنى كل هواجسى وحيرتى ، ووجدت أن ليس بوسعى أن أنسى كمالا ، ولكن أحداً فى الدنيا لن يتعذب لذلك سواى . أما إننى أتعذب فلأننى لن أنسى المرأتين الوحيدتين اللتين قدر لهما أن تعمرا قلبى ، وستظل ذكراهما مبعث سعادة لا تقدر لى ، طوال حياتى .. ومن ثم فإننى أودعك وأنا قرير البال ، فشكراً لك ولها ، وشكراً للقدر الذى يجعلنى لا أحس شقاء فى ساعة الفراق هذه . وإنى لأتمنى لك كل سعادة وهناء ، وأرجو أن لا تقسى على فى تفكيرك ، لأننى لم أرتكب ما يدعوك لهذا ! »

وانزعج أنادا بابو حين رأى همنالينى تدخل عليه فجأة ، فسألها : « أأنت بخير يا هيم ؟ » .. قالت : « أجل يا أبت .. لقد تلقيت خطاباً من رامش بابو » .. وناولته الخطاب ، فقرأه ، ثم أعاد قراءته وكانت همنالينى قد عادت إلى غرفتها ، فأرسله لها مع خادم ، وجلس يفكر . وما لبث أن قال لنفسه : « لا بأس ! .. إن نالينا كشا خير من رامش ! » .. وفى اللحظة التالية ، أقبل نالينا كشا بالذات : وعجب الشيخ مما دفع بالشاب إلى المجىء . وقبل أن يرسل فى استدعاء ابنته ، بادره نالينا كشا

قائلا : « هناك مشروع لزواجى من ابنتك يا أنادا بابو ، على أننى أريد أن أروى لك — قبل أن نسير خطوة أخرى فى هذا الصدد — حديثاً لابد لك من أن تعرفه ! » .. وعجب الطبيب حين أجابه أنادا بابو بأنه يعرف قصة زواجه الأول ، فقال : « المهم أنكم تعتبرون زوجتى الأولى فى عداد الأموات ، ولكن ليس ثمة ما يؤكد ذلك ، بل إننى أعتقد أنها على قيد الحياة .. وهتف الشيخ وقد أومض فى ذهنه خاطر : « أسأل السماء أن يكون هذا حقيقة .. هيم ! .. هيم ! .. » : وأقبلت الفتاة ملبية نداءه ، فقال لها : « أين الخطاب الذى كتبه إليك رامش ... » ، فدفعت إليه الخطاب ، وناوله بدوره إلى نالينا كشا . وحين قرأه هذا بإمعان ، سلبه الذهول كل مقدرة على الكلام ! .. وما لبث — بعد فترة واجمة — أن نهض منصرفاً . ولمح فى طريقه (همنالينى) واقفة فى الشرفة ، فإذا منظرها يسترعى انتباهه ، وساءل نفسه : كيف تقف هكذا هادئة ، فى الوقت الذى يجب أن يكون قلبها فى مهب العاصفة ! .. وحدثته نفسه بأن يذهب إليها فيواسيها ، ولكن قلبه الحائر هتف به : « لا .. إن الحواجز التى تقوم بين نفس بشرية وأخرى لا يمكن اختراقها .. يا للوحدة الرهيبة التى تحيط بالنفس ! » . وتعمد أن يمر أمامها وهو فى طريقه إلى عربته ، فإذا بها تبادر إلى دخول الغرفة ، فقال لنفسه : « ليس من اليسير لنفس أن تلتقى بنفس أخرى ، فإن الرابطة التى تقوم بين إنسان وآخر من أشد الروابط تعقداً ! » .. وسار إلى عربته بقلب مثقل !

* * *

● ولم يكد نالينا كشا ينصرف ، حتى أقبل جوجندرا ، فهتف أبوه حين رآه : « أعدت وحيداً يا جوجن ؟ .. وأين رامش ؟ » ، فأجاب الشاب : « إن لقاء مثل الذى استقبلتماه به كفيل بأن يجعله يدرك لنفسه قدرها ، ولست أدرى ماذا فعل ، اللهم إلا أن يكون قد فاز بالراحة الأبدية ، بأن ألقى نفسه فى (الجانجز) . إننى لم أره ثانية ، ولكنه ترك لى قصاصة قال فيها : « إننى راحل — رامش » !.. إننى لم أقو قط على استمراء هذه المأساة العاطفية ، وسأرحل أنا الآخر ! » .. فصاح (أنادا بابو) : « وهيم؟.. يجب أن تقرر .. » . ولكن جوجندرا قال : « ما الذى بوسعى أن أفعله ، وأنتما تحرصان على أن تفسدا كل قرار أتخذه ، أرجو أن لا تقحمانى فى الأمر مرة أخرى . لسوف أرحل فى صباح غد ، وسأعرج فى الطريق على بانكيبور » .

ولم يجد أنادا بابو ما يفعله سوى أن يمسح رأسه ، وإن يتخبط فى أفكاره . كانت دنياه مليئة بألغاز عليه حلها !

الفصل الستون

● ذهبت (سايلاجا) مع أبيها إلى بيت نالينا كشا ، بعد يومين أو ثلاثة وجلست سايلاجا مع كمالا فى إحدى الغرف الجانبية ، وأخذتا تتهامسان بينما استغرق تشاكرابارتى فى الحديث مع كشمنكارى ، فقال لها : « لسوف أعود إلى غازيبور غدا ، فإذا كانت هاريداسى تضايقك...» ، وصاحت السيدة : « ها أنت ذا تعود ثانية لهذا الموضوع . ما الذى ترمى إليه يا سيدى العزيز ؟ .. أهى حيلة لتسترد ابنة ابن عمك ؟ .. لقد كنت

صريحاً معى حتى الآن ، وأصارحك بأنه ليس أشهى على النفس من أن يحظى المرء بربة بيت شابة مثل هاريداسى ، و ... » . فقال تشاكرابارتى : « حسناً ، لنكف عن هذا الموضوع .. إنها كانت حيلة منى لأسمع مديح هاريداسى على لسانك . بقى أمر واحد يشغلنى ، هو أن نالينا كشا بابو ربما وجدها مبعثاً لضيقه والحد من حريته فى البيت . ثم إنها مرهفة المشاعر ، ولو أن نالينا كشا أبدى أتفه ما ينم عن غضب ، لحز ذلك فى قلبها ! » . فصاحت السيدة : « عجباً ! .. أيغضب نالين ؟ .. إنه لا يملك أن يغضب » . فقال العم : « أصبت ! .. ولكنى كما تعلمين شديد الحب لـ(هاريداسى) ، ومن ثم لا يسهل على أن اطمئن إلى حالها . وليس يكفينى أن تقولى أن نالين لا يغضب قط ، وأنه سيتجاهل الفتاة فلا يحس بوجودها مطلقاً . لن أهنا حتى أعرف أنها — فى مقامها بهذه الدار — تشعر كما لو كانت هى وهو فردين فى أسرة واحدة ! . إنها ليست قطعة من أثاث ، وإنما هى كائن بشرى .. فإذا هو تجاهل وجودها ...» .

فقطعت عليه كشمنكارى استرساله قائلة : « لا تشغل بالك ياسيدى العزيز . لن أتردد فى أن أؤكد لك أن نالين يعدها من أفراد الأسرة ، وليست العبرة بالاهتمام الظاهرى ، فأنا واثقة من أنه بحث أمر هناءتها وراحتها . وليس من المستبعد أن يكون قد اهتم بعمل أشياء من أجلها ، دون أن ندرى ! » . فقال تشاكرابارتى : « يسرنى أن أسمعك تقولين هذا . ومع ذلك فإنى أرى أن أتحدث مع (نالينا كشا بابو) على حدة قبل رحيلى . إن الرجال الذين يحملون مسئولية سعادة امرأة ما ، قليلون فى الدنيا ! .. وإذا كانت السماء قد أنعمت على نالينا كشا بابو بهذه الشيمة

التى تدل على رجولة حقة ، فأحب أن أوصيه بأنه ينبغى فى البداية أن
لا يبقى هاريداسى بمنأى عنه ، تحت سلطان الحياء الكاذب . وإنما يجب
أن يعتبرها ويعاملها كعضو حقيقى فى الأسرة ! » ؟

وبعثت هذه الثقة — من الشيخ — بـ (نالينا كشا) شعوراً من الزهو
فى صدر أمه ، فقالت : « بل إننى كنت أخشى أن لا تقر اختلاطهما
فكنت استبقى هاريداسى بمعزل عن نالينا كشا إذا ما كان فى البيت ،
وإن كنت أعرف ابنى ، وأثق فى رجاحة عقله ! »، فقال تشاكرابارتى :
« إذن ، سأصارحك بما فى ذهنى . لقد سمعت أن « نالينا كشا بابو »
سيتزوج ، وأن عروسه أكبر سناً مما ألفنا أن تكون عرائسنا عليه ،
كما أنها أوفر ثقافة .. لذلك ظننت أن هاريداسى .. » . فقطعت عليه
الحديث قائلة : « إننى أقدر هذا .. لابد أن ثمة داعياً يدعوك للقلق فى
هذا الصدد ، ولكن هـذا الزواج لن يتم ! » .. وصاح الشيخ : « هل
فسخت الخطبـة ؟ » ، فأجابت : « أنهـا لم تقم حتى تفسخ .. لم يكن نالين
راغباً فيها على الإطلاق ، وكنت أنا التى أستحثه ، ولكنى عدلت عن
الضغط عليه .. إذ لا جدوى من دفع الناس إلى مالا يحبون .. وقد أفارق
الحياة دون أن أراه متزوجاً ! » .. وصاح تشاكرابارتى : « لاتتحدثى
هكذا » .. قالت : « إن نالين يكبر مع السنين ، وقد أكربنى أن أشعر
بأن عدم زواجه راجع إلى أنا ، ومن ثم اندفعت — فى عجلة — أبحث له
عن عروس ، دون أن أجيل البصر حولى أولا ، وأتأمل ، وأفكر ! » .
وقال الشيخ : « لسوف تقرى عيناً بشريكة حياته ، وإنى لأعرف النوع
الذى يروق لكما .. ليست صغيرة جداً ، ولكنها قادرة على أن تؤدى

واجباتها ، وعلى أن تطيع .. دعينا نبحث عن عروس من هذا النوع
ولا تشغلى بالك ! والآن اسمحى لى بأن أوصى هاريداسى قبل انصرافى ،
وسأرسل لك سايلاجا تؤنسك » .. فقالت العجوز : « بل تحدثوا ثلاثتكم
معاً ، وسوف أؤدى أنا بعض الأعمال » .

* * *

● ووجدت تشاكرابارتى الفتاتين معاً ، والدموع تترقرق فى عينى
كمالا . وبادرته سايلاجا قائلة : « كنت أقول لـ(كمالا) يا أبت أن الوقت
قد حان للإفضاء لـ(نالينا كشا بابو) بكل قصتها ، فإذا بها تثور على ! » ..
فهتفت كمالا : « لا يا ديدى .. أتوسل إليك أن لا تفضى بشىء ! » :
وصاحت (سايلاجا) : « يالك من رعناء ! .. كيف تجلسين ساكنة
وتتركين (نالينا كشا بابو) يتزوج من (همنالينى) ؟ . لقد عانيت منذ
زواجك أفظع التجارب ، حتى أوشكت أن تلاقى حتفك ، فكيف
تريدين أن تتحملى عذاباً جديداً ؟ » .. وهنا قال تشاكرابارتى : « حسناً ،
ليتبارك الإله ، فإن الزواج الذى ذكرته لن يتم .. لا تخشى شيئاً
يا عزيزتى كمالا ، فقد انتصر الحق ! » .. وحملقت فيه كمالا ، عاجزة عن
أن تفقه ما كان يعنى ، فعاد يقول : « لقد فسخت الخطبة ، لا لأن
نالينا كشا لا يوافق عليها فحسب ، وإنما لأن الأم أيضاً عادت إلى
رشدها ! » . فهتفت سايلاجا فى صوت متهدج : « لقـد نجونا يا أبت ! ..
إننى لم أنم الليل بعد أن علمت بنبأ الخطبة . ومع ذلك ، فهل ستظل كمالا
تعيش غريبة فى البيت الذى هو بيتها شرعاً ؟ » .. فقال أبوها : « لاتتعجلى
الأمور يا سايلاجا » .

وقالت كمالا : « ولكنى قانعة بالوضع الحالى ، ولابد تبديلا :. أرجوك يا عمى العزيز أن لا تنبىء أحد بشىء . كل ما عليكما هو أن تتركانى فى ركن من البيت وتنسيانى .. فأنا سعيدة بهذا ! » .. وتدفقت الدموع من عينيها ، فأخذ تشاركرابارتى يواسيها . وفى هذه الأثناء ، اندفع أومش إلى الغرفة مبتسماً وقد فغر فمه عن آخره ، فسأله العم عما هناك ، وإذ ذاك قال الصبى : « إن رامش بابو فى الطابق الأرضى يسأل عن السيد الطبيب » .

وغاض الدم من وجه (كمالا) ، وقفز العم قائلا : « لا تنزعجى يا عزيزتى ، سأهبط وأسوى الأمر معه » . وهبط السلم ، فتناول ذراع رامش قائلا : « تعال نتمشى يا رامش بابو ، فإن لى معك حديثاً .. وصاح (رامش) فى دهشة : « من أين أتيت يا عماه ؟ » .. قال : « إنما أنا هنا من أجلك ، وكم يسرنى أن قابلتك . تعال ، فلابد من أن نسوى هذا الأمر قبل فوات الوقت » . وجر الشاب إلى الحديقة ، ثم سأله : « ما الذى أتى بك إلى هذه الدار يا رامش بابو؟ » .. قال رامش : « جئت أسعى للقاء نالينا كشا بابو ، فقد قررت أن أصارحه بكل شىء عن كمالا ، لأننى لا أكف عن الاعتقاد بأنها على قيد الحياة ! » . فقال الشيخ : « وهب أنها على قيد الحياة ، وإن نالينا كشا التقى بها ، فهل من الخير أن يسمع القصة من فمك أنت ؟ .. إن له أماً عجوزاً ، وقد يشق على (كمالا) لو أن السيدة عرفت الحقيقة ! » .. فقال رامش : « إنما أردت أن يعرف (نالينا كشا) أن ليس على (كمالا) ظل من شك أو لوم .. فإذا كانت غادرت الحياة ، فإن شهادتى ستجعله يقدس ذكراها ! » :

وصاح العم : « عجباً يا أبناء العصر لتفكيركم . إذا كانت كمالا قد ماتت ، فلست أرى داعياً لأن تزعجه بذكراها ، لاسيما وأنه لم يكن زوجاً لها لغير ليلة واحدة . أترى البيت القائم هناك ؟ .. إننى أنزل فيه ، فإذا جئتنى صباح غد ، رويت لك كل شىء . على أن لا تسعى للقاء نالينا كشا بابو قبل ذلك ! » .. ثم عاد « العم » إلى كمالا ، فقال لها : « أريدك على أن تأتى لدارنا صباح غد ، فقد اعتزمت أن أجعلك توضحين الموقف لـ(رامش بابو) بنفسك .. إننى أؤمن بأن هذا هو الحل الأخير ، فإن شباب اليوم لا يراعون قيم الماضى وأساليبه . لا تخفلى يا عزيزتى ، إذ لا ينبغى أن تدعى سواك يستحل حقوقك ، ومن حقك أن تتولى الإيضاح بنفسك ! » .. ولم ترفع كمالا بصرها عن الأرض ، بينما استطرد الشيخ : « لقد طهرنا الأرض ، فلا تتردد فى كنس العقبات القليلة الباقية ! » .

* * *

● وسمعت كمالا فى تلك اللحظة وقع قدمى نالينا كشا ، فرفعت بصرها ، فإذا نالينا كشا واقف فى فراغ الباب . والتقت عيناها بعينيه ، فلم يبادر إلى الإشاحة بوجهه كما كان يفعل فى المرات السابقة ! ولم تدم النظرة لأكثر من لحظة ، ولكنها بدت وكأنها كانت تضم وجه كمالا بدلا من أن تقصيه كما كان الحال من قبل ! .. ولمح نالينا كشا فى اللحظة التالية (سايلاجا) ، فهم بأن يتراجع ، لولا أن صاح به العم : « لا تهرب يا نالينا كشا بابو ، فنحن نعتبرك واحداً منا . هذه ابنتى سايلاجا ، التى عالجت أنت ابنتها منذ أيام » .. وانحنت له سايلاجا ، فرد التحية متسائلا عن الطفلة . وقال

الشيخ : « إنك لا تتيح لى مطلقاً فرصة للشبع من صحبتك . فلتدع لى هذه الفرصة الآن ! » . وحمله على الجلوس ، ثم التفت فإذا (كمالا) قد تسللت من الحجرة .

كانت نظرة نالينا كشا قد بعثت فى نفسها مالا قبل لها باحتماله من الدهشة والفرح ، فسعت إلى خلوة تستوعب فيها المفاجأة على مهل ! .. وأقبلت كشمنكارى فى تلك اللحظة تدعو تشاكرابارتى إلى أن يعود لمجالستها فى غرفة الجلوس ، فصحبها مع نالياكشا . وما أن وصلوا إلى الغرفة ، حتى قال العم لصاحبيه : « سألحق بكما سريعاً » .. وغاب دقيقة أو اثنتين ، ثم عاد ممسكاً بيده (كمالا) ، تتبعهما سايلاجا . وشرع (تشاركرابارتى) يقول : « يجب أن لا تعامل ابنتنا هاريداسى كما لو كانت غريبة يا دكتور .. إن كل ما تنشده (كمالا) هو أن تتاح لها الفرص لتخدمكما معاً ، ولن ترتكب قط خطأ عن عمد ! » فصاحب كشمنكارى : « لا داعى لأن تقلق يا سيدى الجليل ، لقد أنزلنا هاريداسى منزلة الابنة فى دارنا ، ولم يعد لى مكان فى المطبخ ومخزن المؤن اللذين ظللت كل هذه السنين لا أفرط فيهما ! ... بل أن الخدم لم يعودوا يعتبروننى سيدة الدار ! إن هاريداسى قد سلبتنى كل سلطانى ، فأى شىء آخر ترجوه لهذه السارقة ؟ .. فأجاب نالينا كشا : « وأنتما بدوركما فرضتما عليها سحراً أنساها وجود أى امرئ سواكما فى الدنيا .. يا للمسكينة ، لقد عانت أوقات عصيبة ، وآن لها أخيراً أن تطمئن ! » .. واغرورقت عيناه .

وكان نالينا كشا ينصت فى صمت وهو شارد الفكر . فلما انفض الجمع ،

سار فى تثاقل إلى غرفته . وكانت شمس ديسمبر تجنح للمغيب فتملأ الحجرة بفيض من الضوء الأرجوانى الشبيه بحمرة الخجل على وجه عروس ! .. وكانت كمالا قد بثت له الورد فى أرجاء الغرفة ، فإذا أرجوانية الشمس وعبير الورد يثيران أحاسيسه . لقد ظل طيلة السنين الماضية يرى الدنيا عالم زهد وتقشف ، أما الآن ، فقد خيل إليه أن أذنيه تفعمان بأنغام أخذت تتردد فى الكون كله ، يخالطها صليل الصناعات (الصاجات) فى أيدى راقصات مستترات ! .. وتحول نالينا كشا عن النافذة ، فوقع بصره على الورود المنسقة عند رأس سريره ، فبدت له كعيون تتطلع إليه فى رجاء صامت مسّ أبواب قلبه . وأمسك بوردة لم تتفتح أكمامها ، وقد بدا لونها ذهبياً غير براق وإذ أخذ يداعبها بأنامله ، خيل إليه أنها تستجيب له بملمس بشرى ، فسرت فى جسمه رعشة ، وضم الوردة إلى شفتيه ، ثم مس بها جفنيه ! .. وعندما هم بأن يغادر الحجرة ، سار إلى السرير فرفع الغطاء ، ووضع الوردة على الوسادة . وعندما رفع رأسه ، وقع بصره على شبح منكمش فى أحد الأركان . كانت كمالا ، وقد غاب وجهها فى طيات خمارها ، وأوشكت أن تنهار على الأرض حياء فلقد كانت فى الغرفة عند مقدمه ، فلم تجد فرصة للتسلل ومن ثم ظلت منزوية فى أحد الأركان والحياء يكاد يخنقها؟ .. وأسرع نالينا كشا نحو باب الغرفة ليعفيها من خجلها . ولكن فكرة خطرت له حين بلغ الباب ، فتوقف لحظة متردداً ، ثم استدار نحو (كمالا) قائلا : « انهضى ... لا تخجلى منى ! » .

الفصل الحادى والستون

● ذهبت كمالا فى الصباح التالى إلى منزل العم . وما أن سنحت لها فرصة حتى انتحت بـ (سايلاجا) جانباً، فسألتها هذه : « ما الذى يسعدك اليوم يا حبيبتى ؟ » .. فقالت الفتاة : « لست أدرى يا ديدى ، ولكنى أشعر كأن متاعبى قد انتهت ! .. إننى أشعر أنه قد صار رجلى الآن بالفعل ! لقد أشفقت على السماء أخيراً ! » .. قالت سايلاجا مداعبة : « ما ينبغى أن تخفى عنى أمراً » . فقالت (كمالا) : « لست أخفى شيئاً يا ديدى . لقد خيل إلى — عندما استيقظت اليوم — أن الحياة أصبحت تحمل معنى جديداً لى . شعرت أنى أكثر هناءة ، وإنى لا أطمع فى مزيد ! كل ما أخافه الآن هو أن أفقد ما حصلت عليه ! »

وأقبل العم عند هذا الحد من الحديث، فقال لـ (كمالا) : « يجب أن تأتى الآن لحظة يا عزيزتى ، فإن رامش بابو هنا » . وكان (العم) قد تحدث إلى (رامش) عند وصوله فى ذلك الصباح ، وقال له : « إننى أعرف حقيقة علاقاتك بـ(كمالا) ونصيحتى لك أن تبدأ الحياة من جديد وأن تنفض يديك من هذه المسألة ، وإذا كانت ثمة مشكلة باقية فدعها للقدر يحلها ، ولا تحاول أنت أن تعالجها ! » .. فأعرب رامش عن أنه إنما أراد أن يروى القصة كلها لـ (نالينا كشا) ، ليبرئ كمالا من أى ريب ، وليرضى ضميره . وهنا ذهب (العم) لينادى كمالا — كما أسلفنا — فوقف (رامش) فى النافذة يسرح بصره فى المارة وهو شارد الذهن ، حتى سمع وقع أقدام ، فالتفت . خلفه ورأى فتاة تنحنى أمامه

محيية ، حتى إذا رفعت رأسها ، صاح مأخوذاً : « كمالا ! » .. وقال العم : « شكراً للسماء يا رامش بابو ، لقد انقضت متاعب كمالا ونحس طالعها .. لقد أنقذتها أنت حين كانت معرضة للأخطار ، فجلبت لنفسك التعاسة !.. أما وقد آن لكما أن تفترقا ، فإنها لم تشأ أن تصمت على ما هى مدينة لك به ، فجاءت تودعك ! .. وجاهد رامش حتى انبعث صوته من حلقه قائلا : « ليباركك الله يا كمالا : اغفرى لى ما قد أكون ارتكبت من أخطاء فطنت لها أو صدرت عفواً ! » .. فاستندت كمالا إلى الجدار ، ولم تنبس ببنت شفة .. واستطرد رامش بعد لحظة : « إذا كان ثمة سوء تفاهم أستطيع أن أجلوه ، فليس عليك سوى أن تأمرينى ! » .. فضمت كمالا راحتيها إلى صدرها وقالت : « أرجو أن لا تنبس بكلمة لأحد » . قال : « لقد ظللت زمناً طويلا لا أبوح لأحد بكلمة عنك ، ومكثت صامتاً ، حتى عندما كان الصمت سبباً فى تعاستى . ولم أرو قصتك إلا منذ أيام قلائل ، حين اطمأننت إلى أنك بمأمن من كل سوء . وحتى إذ ذاك ، لم أروها إلا لأفراد أسرة واحدة . وأعتقد أن هذا لن يضرك فى شىء ، بل أعتقد أنه قد ينفعك . فإن (العم) يدرك كل شىء . أما أنادا بابو وابنته .... » ، فقال العم : « هل سمعا القصة ؟ » ، قال رامش : « أجل ، وإذا كان ثمة شىء آخر تحبان أن أضيفه لها ، فأنا على استعداد لأن أفعل . أما من ناحيتى ، فلست أرجو شيئاً . لقد فقدت قطعة من حياتى ، ومن عواطفى !.. وكل ما أصبو إليه الآن هو أن أتخلص من أى شىء يثقل ضميرى ! »

فشد العم على يده قائلا : « لا يا رامش بابو .. لسنا نطمع فى شىء

منك . لقد تعذبت كثيراً ، بل أكثر مما تحتمل ، وأنى لأدعو السماء أن
تجعل حياتك منذ الآن سعيدة لا تعترضها المتاعب أو الهموم :

قال رامش : « سأفارقكم الآن » .. وتحول نحو كمالا ، فلم تفتح
فمها ، ولكنها انحنت أمامه فى احترام . وانطلق رامش فى طريقه وكأنه
فى حلم ، وقد راح يردد لنفسه : « إننى مغتبط لأنى قابلت كمالا ، فإن
هذا اللقاء خير ختام للفصل الذى انقضى . والآن ، لم يعد هناك من
يحتاج إلى ، ولا من يريدنى . فلأنطلق فى الحياة ، ولأشق طريقى ..
ولا ضرورة لأن ألتفت إلى الماضى كى أنظر إليه ! »

الفصل الثانى والستون

● وجدت كمالا — حين بلغت البيت — أن أنادا بابو وهمنالينى كانا
يجلسان مع (كشمنكارى) . وقالت السيدة العجوز بمجرد أن رأتها :
« ها هى ذى هاريدامى » .. ثم التفتت إليها قائلة : « هلا اصطحبت
صديقتك إلى غرفتك يا عزيزتى ريثما أقدم الشاى لـ(أنادا بابو) ! » .

وما أن أصبحت الفتاتان فى غرفة كمالا ، حتى تحولت همنالينى
فطوقت عنق صاحبتها ، وضمتها إليها هاتفة : « كمالا » ! .. فسألتها
كمالا دون أن تبدى أية دهشة : « كيف عرفت أن هذا اسمى ؟ » ..
فقالت (همنالينى) : « لقد روى لى شخص ما كل قصتك .. وما أن
سمعتها حتى أيقنت أنك أنت كمالا ، وإن لم أدر كيف أبرر يقينى ! » :
وعندئذ قالت (كمالا) : « لا أحب أن يعرف أحد اسمى ، فإن اسمى
الحقيقى هو مبعث أساى ! » .. فجادلتها (همنالينى) قائلة : « ولكنه

يساعدك على إثبات حقوقك ! » . وهنا هزت كمالا رأسها ، وقالت :
« لست أنظر للأمر من هذه الناحية .. ليست لى حقوق أثبتها ، ولا أنا
راغبة فى أية حقوق ! » .. فصاحت همنالينى : « ولكن ، أى مبرر
لديك فى أن يبقى زوجك فى الظلام ؟ .. لماذا لا تصارحينه بكل
شىء ؟ .. ما ينبغى لك أن تكتمى عنه شيئاً ! » .

وغاض الدم من وجه كمالا دفعة واحدة ، وتطلعت إلى همنالينى
فى حيرة وعجز ، وكأنما كانت تبحث فى محياها عن رد ، دون أن
تجد . واستندت إلى السرير تتشبث به ، ثم قالت : « لا يعلم إلا السماء
سر ما بى من خجل . على أنى لم أرتكب ذنباً ، فلماذا أتلقى القصاص
وأنا بريئة ؟ .. كيف أجسر على أن أروى له قصتى بأسرها ؟ » ..
فتناولت (همنالينى) يدها ، وقالت : « إنه ليس قصاصاً ، وإنما هو
اختبار وتطهير . على أنك الآن مقيدة بأغلال غير حقيقية ، ولن
تتحررى حتى تطلعى زوجك على كل شىء .. فتوكلى على القدر ،
وحطمى أغلالك ! »

وقالت كمالا فى حيرة : « إن ما يستل قواى هو الخوف من أن
أفقد كل شىء الآن . على أننى أدرك ما تعنين . يجب أن لا أخشى
ما يخبئه لى القدر ، وأن أقص كل شىء عليه .. هو ، إذ لا ينبغى أن
يبقى فى الظلام بعد الآن ! » . وضمت يديها إلى صدرها فى حزم
وعزيمة . فسألتها همنالينى مداعبة : « وماذا كنت ترجين إذن ؟ ..
أكنت راغبة فى أن يتولى سواك مصارحته ؟ » .. ولكن كمالا هزت
رأسها بقوة ، وقالت : « لا ، لا .. يجب أن لا يسمعها من أحد سواى » .

أنا التى سأخبره بنفسى ، فلا تظننى عاجزة ! » .. فقالت همنالينى : « هذا أفضل .. لست أدرى إن كنا سنلتقى مرة أخرى ، أو لن نلتقى .. فقد جئت لأذكر لك أننا راحلون ! » .. فسألتها كمالا : « إلى أين؟ » ، قالت : « إلى (كلكتا) . والآن ، ما أرى أن أشغلك طويلا ، فلديك أعمال الصباح تنتظرك ، ولذلك يحسن بى أن أنصرف يا عزيزتى .. ولا تنسى أننى أخت لك ! »

وأمسكت كمالا بيدها ، وقالت : « لسوف تكتبين لى .. أليس كذلك ؟ » .. فوعدتها همنالينى بذلك .. وعادت الفتاة تقول : « يجب أن تكتبى لى ، وأن تنصحينى فى أمرى .. فإنى أعتقد أن خطاباتك ستكون مبعث تشجيع لى ! » . وابتسمت همنالينى قائلة : « آه ، حسناً .. ولكنك ستعاشرين من هو أسلم منى مشورة ونصحاً ! » .

* * *

● ولم يرتح بال كمالا إلى حال همنالينى .. كانت رغم الهدوء الظاهر عليها ، لا تتمالك من الإتيان ببعض حركات تنم عن حزن دفين مما أثار ، حنان (كمالا) وإشفاقها . ولكن (همنالينى) كانت تحيط نفسها بجو يجعل المرء يتردد فى مفاتحتها ، ويحجم عن سؤالها . ومع أن (كمالا) فضفضت لها عن كل ما كان فى صدرها فى ذلك الصباح ، إلا أن (همنالينى) غادرت الدار وهى ملتفة فى عين التحفظ والتكتم اللذين أقبلت بهما .. كانت تكسو محياها مسحة من حزن روحى رفيع ، بدا بالنسبة لمحياها كشفق دائم على قسماتها !

وظلت كلمات همنالينى العذبة ، وعيناها الهادئتان ، تلاحق كمالا

طيلة يومها ، كلما فرغت من أحد أعمالها : لم تكن تعرف عن ماضى همنالينى شيئاً ، اللهم إلا حقيقة واحدة ، هى أن خطبتها إلى ناليناكشا قد فسخت .

وكانت همنالينى قد أحضرت معها فى الصباح سلة مليئة بالزهور ، فجلست كمالا — بعد أن اغتسلت فى الأصيل — وأخذت تنسق عقوداً من تلك الزهور ، وكشمنكارى لا تكف عن الحديث : « أواه ! .. ليس بوسعى يا عزيزتى أن أصف ما خالجنى من شعور حين ودعتنى همنالينى اليوم . ومهما يقال ، فإنها فتاة لطيفة حقاً . إننى لا أملك نفسى من التفكير فيما كنت أستشعره من سعادة لو أنها تزوجت من ابنى .. لا أحد سواه يعرف السر فى تحوله عنها ! » . والظاهر إن كشمنكارى كانت لا تقوى على أن تصارح نفسها بأنها قامت بنصيب كبير فى فسخ الخطبة !

وانبعث وقع قدمين فى الخارج ، فصاحت السيدة العجوز : « أهذا أنت يا نالين ؟ » .. وأسرعت كمالا ، تلف الزهور والعقود فى طرف ثوبها ، وتسدل الخمار على وجهها . ودخل نالينا كشا الحجرة ، فقالت له أمه : « لقد رحلت هيم وأبوها .. ألم ترهما ؟ » .. فأجاب : « بل قابلتهما حين انصرفا من هنا . فرافقتهما إلى دارهما فى عربتى » . قالت الأم : « قل ما شئت يا فتى ، ولكنى لا أعتقد أن فى الدنيا كثيرات مثل هيم ! » . وكانت تتكلم وكأن نالينا كشا لا يرى رأيها ، ولا يكف عن معارضتها ! ولكنه لم يقل شيئاً ، بل اكتفى بأن ابتسم . فصاحت :

« أو تبتسم ؟ .. لقد خطبت لك هيم وباركتها ، ثم إذا بنحلة تطن فى رأسك ، فتفسد كل ما أعددت .. ألست آسفاً عن ذلك ؟ »

وأجفل نالليناكشا ، وألقى نظرة على كمالا ، فلاحظ أنها كانت تنعم النظر نحوه — خلال خمارها — والتقت نظراتهما ، فودت كمالا لو أنها تضاءلت حتى تتلاشى فى الفضاء ، وأسرعت تغض بصرها :: وقال (نالليناكشا) : « لماذا ظننت يا أماه أن ابنك أهل لتلك المتعلمة ؟.: ثم إن الناس لا تنساق للحب بالعصا ! » .. وهنا رفعت كمالا بصرها ، وإذا بـ(نالليناكشا) يلقى إليها بنظرة أخرى مليئة بالحبور ، فشعرت بأن الفرار من الغرفة خير مسلك تسلكه . بينما قالت كشمنكارى لابنها : « اجر إلى غرفتك ، ولا تتكلم ، فإنك تغضبنى ! »

* * *

● عندما خلت كمالا إلى نفسها ، أكملت تنسيق زهور همنالينى فى عقود ، ثم جدلت العقود فى إكليل كبير وضعته على السلة ، ثم رشته بالماء ، وحملته بعد ذلك فوضعته فى غرفة مكتب نالليناكشا . واغرورقت عيناها حين ذكرت أن الإكليل الكبير صنع من زهور الوداع التى قدمتها همنالينى ! .. وما أن عادت كمالا إلى غرفتها ، حتى استغرقت فى نوبة طويلة من التأمل . وراحت تسائل نفسها : ما الذى كانت تحمله نظرات نالليناكشا إليها ؟ .. وما رأيه فيها ؟ .. لقد خيل إليها أن عينيه تغوصان إلى أعمق أفكارها الخفية . لقد كانت من قبل فى راحة ، حين كانت تتفادى الوجود حيثما وجد هو . أما الآن ، فقد أصبحت تجد

نفسها فى مواقف حرجة متزايدة .. وكأنما كان هذا الحرج عقاباً لتسترها على حقيقة شخصيتها !

وقالت لنفسها : « لابد أن نالليناكشا يسائل نفسه : (من أين أتت أمى بهذه الفتاة هاريداسى ؟!.. إننى لم أر أقل منها حياء !) .. أواه ! إننى لا أحتمل أن يداخله هذا الرأى لحظة واحدة ! » .. وعندما أوت إلى فراشها فى تلك الليلة ، كانت قد عقدت العزم على أن تنتهز أول فرصة فى غدها ، فتكشف سرها ، وتتحمل العواقب أياً كانت !

ونهضت (كمالا) مبكرة فى الصباح ، فاغتسلت فى (الجانجز) ، وأحضرت ملء جرة صغيرة من مياهه لتغسل بها غرفة مكتب نالليناكشا ، قبل أن تقوم بأى عمل آخر من أعمال البيت ! هكذا كانت قد اعتادت . ولكنها فى ذلك الصباح ، فوجئت بنالليناكشا يشغل الغرفة مبكراً ، على غير عادته . وأسفت كمالا لعدم استطاعتها أداء مهمتها ، فتحولت فى خطى بطيئة . ثم مرقت فى ذهنها فكرة كوميض البرق ، فوقفت مسمرة فى مكانها !

وفى بطء ، ارتدت عائدة إلى الحجرة ، ووقفت مرة أخرى لدى بابها ، إذ لم تقو على أن تمضى خطوة أخرى ! ولم تدر ما الذى غشيها ، وإنما خالت أن الدنيا بأسرها تسبح أمامها فى ضباب .. ولم تعد تشعر بالزمن فى انصرامه !

وانتبهت فجأة إلى أن نالليناكشا قد نهض عن مقعده ، وأنه كان يقف أمامها .. وقفزت كمالا ، ثم جثت على ركبتيها ، وأحنت رأسها حتى مست قدميه .. وتهدل شعرها الناعم ، المبتل — الذى لم تكن قد

عقصته بعد الاغتسال — حتى غطى قدميه . وما لبثت أن نهضت ثانية ، فوقفت أمامه جامدة ، وكأنها تمثال ، وقد نسيت أن قناعها سقط عن وجهها ، ولم تفطن إلى أن نالينا كشا أخـذ يتفرس بإمعان فى ملامحها ؛ بل إنها لم تعـد تعى شيئاً من العالم الخارجى . وفجأة ، مرق فى فكرها قبس من الإلهـام ، فقالت دون أن يتهدج صوتها : « أنا كمالا ! »

على أنها لم تكد تنطق بالكلمتين ، حتى بدد صوتها النوبة السحرية التى كانت قد أنستها الدنيا ، فسرعان ما ذابت عزيمتها . وأخذت كل جارحة فى جسدها ترتجف . وسقط رأسها على صدرها ، ولم تستطع أن تحير حراكاً ، رغم أن الفرار كان خير مسلك ينقذها من الحرج !.. كانت قد حشدت كل قواها وعزيمتها فى تلكما الكلمتين : «أنا كمالا».. فلما نطقت بهما ، تسربت معهما القوة والعزيمة !.. وأحست بخزى وحياء بالغين .. لم يبق لهـا ما توارى به خجلها عن نالينا كشا !

أما هو ، فقد رفع يديها فى بطء إلى شفتيه وتمتم : « لقـد عرفت ذلك ! .. أنت كمالا .. زوجتى ! .. تعالى معى ! » .. وأخذها إلى الحجرة ، فأحاط عنقها بأكليل الزهور الذى جدلته بيديها ، وقال : « تعالى نسجد للإله ! » . وكان شعاع الشمس يسقط على صـفحة من رخام ناصعة البياض فى أرض الحجرة ، فسجد الزوجان ، وأسلما جبهتيهما إلى تلك الصفحة الرخامية .. والشمس تتدفق على رأسيهما !

وحين نهضا ، عادت (كمالا) تركع عند قدمى (نالينا كشا) فى توقير عميق . فلما استوت قائمة على قدميها ، كان خجلها قد كف عن تعذيبها : ولم يكن فرحها منفعلا ، مهتاجاً . وإنمـا غمرت كيانها كله

راحة وادعة ، وسكينة كضوء الصباح . وملأ كل ركن من نفسهـا شعور بالتقوى الخالصة ، وخيل إليها أن الخليقة بأسرها تحترق بخوراً لمعبودها !.. وانبثق جدول فياض من الدمع ، من عينيها ، فأخـذت القطرات تتساقط دون رادع .. تلك كانت دموع الفرح تبدد غيـوم الأسى التى خيمت على حياتها من قبل !

ولم ينبس (نالينا كشا) ببنت شفة ، وإنما رفع الشعر الندى عن جبينها بحركة سريعة ، ثم غادر الغرفة . ولم تكن كمالا قد استنفدت كل ما فى قلبها من عبادة ، فتاقت إلى شىء تسكب عليه ولاءها .. ومن ثم سارت إلى مخدع نالينا كشا ، فغمرت نعليه القديمين بزهور من الإكليل الذى طوق زوجها عنقها به ، ثم ألصقت جبينها بهما فى ورع وتبجيل !

وعادت إلى أعمالها المنزلية ، وكان كل عمل منها لون من العبادة تؤديه لإله معبود .. كان كلا منها صلاة ترفعها إلى السماء على أجنحة الفرح ! .. وهتفت بها كشمنكارى : « ماذا تفعلين يا عزيزتى ؟ .. إن الذى يراك تغسلين ، وتكنسين ، وتنظفين ، يخال إنك تحاولين أن تجددى الدار كلها فى يوم واحد ! » .. وما لبثت كمالا أن فرغت من أعمالها المنزلية ، فاحتبست نفسها فى غرفتها .

وألفاها (نالينا كشا) هناك حين أقبل حاملا ملء سلة من البنفسج ذى الأريج العطر .. وقال : « ضعى هـذه فى الماء يا (كمالا) لتحتفظ بنضرتهـا .. فإذا حل المساء ، فلنتقدم بها إلى أمى ونطلب منهـا أن تباركنا ! » .. قالت كمالا وهى تغض بصرها : « ولكنك لم تسمع

القصة كلها بعد ! » .. فأجاب (نالينا كشا) : « لا حاجة بك إلى أن تذكرى شيئاً ، فإننى أعلم كل شىء ! »

وأرخت كمالا قناعها على وجهها قائلة : « ولكن الأم ... » : ولم تتم حديثها ، إذ مد نالينا كشا يده ، فأزاح النقاب ، وهو يقول : « لقد غفرت أمى فى حياتها الطويلة كثيراً من الذنوب . وليس من شك فى أنها ستغفر لك ما لم يكن من الذنوب فى شىء على الإطلاق ! »

* * *

(تمت بحمد الله)

● صدر من هذه السلسلة ●



مطبوعات كتابي
إصدار جديد

عزيزي القارئ :

إذا كان القدر قد اعتاد أن يختار الفلاسفة والمفكرين من الفقراء والمستضعفين ، إلا أن الهند شهدت مناسبتين حاد فيهما القدر عن هذه العادة : وكانت أولى المناسبتين يوم اختار القدر «بوذا» من قصر أحد الأمراء المالكين فى الهند ليكون مبشرًا بالحكمة والفلسفة .. ثم كانت المرة الثانية حين اختار «رابندرانات تاغور» حفيد الأمير «دواركانات تاجور» ليكون من رسل الأدب والحكمة .

ولد «تاجور» فى (كلكتا) فى ٦ مايو ١٨٦١ ، وبعد أن درس فى إحدى المدارس الخاصة بالهند ، رحل إلى انجلترا وهو فى سن ١٧ سنة ليدرس القانون ، لكنه لم يستسغ هذا اللون من الدراسة ، فعاد إلى بلاده وتوفر على الكتابة فى مجلات إقليم (البنغال) وصحفها ، وما لبث اهتمامه أن اتجه إلى أحوال بلاده ومواطنيه ، فراح يسعى إلى رفع مستوى الحياة الفكرية والاجتماعية فى الهند ، وأنشأ فى سنة ١٩٠١ مدرسة فذة فى نوعها ورسالتها ، ابتعد فيها عن برامج التربية المألوفة ، ليعنى بالنواحى الروحية والإنسانية والقومية ، وتوفر على الإنتاج الأدبى فى تلك المرحلة ، ففاز فى سنة ١٩١٣ بجائزة (نوبل) للآداب ، وقام بعد ذلك بعدة رحلات إلى أوربا ، واليابان ، والولايات المتحدة ، وقد وضع «تاغور» مؤلفاته ـ من أشعار وتمثيليات وروايات ـ بوحى من جمال الكون وإدراك وجود الله ، وحب الأطفال ، والبساطة . وتبدو هذه المعانى فى كل ماكتب . وحين بلغ سن ٥٨ ـ وهى سن تفتر فيها همم الكثيرين ـ وجد فى مجال الفنون ناحية جديدة لنشاطه ، فشغف بالرسم والتلوين ، وأقبل على ممارستهما . وفى ٧ أغسطس سنة ١٩٤١ مات «تاجور» عن ٨٠ عامًا . وهذه الرواية من أروع ماكتب !

حلمي مراد